

المطرب من أشعار أهل المغرب

ابن دحية الكلبي

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي شرفنا باللسان العربي، وجعلنا من أمة سيد ولد آدم محمد النبي الأمي، الداعي إلى طريق الواضح الجلي. صلى الله عليه وعلى آله المتسّمين من الفضل صهوة المنصب العلي، ما ولي الأرض بعد وسم الوسمى سلطان الولي، ونم بأسرار الرياض نسيم شذاها الذكي.

أما بعد. فإن مولانا سلطان العرب والعجم. عز الملوك العصرية؛ ومالك فضيلتي السيف والقلم. وملك اليمن والشام والديار المصرية؛ أبا المعالي أبا المظفر محمداً الكامل، الكامل الأوصاف، لا برحت ببقائه الممالك مهترّة الأعطاف. معتزّة الأطراف؛ تقدم إلى أمره المطاع، الواجب له على من الجهد غاية ما يستطيع؛ أن أجمع له ما أجمع عندي من الأناشيد، التي رويتها عن شعراء الأندلس وسائر المغرب بأقرب الأسانيد. فجمعت منها لخدمة مقامة العالي ما يؤكل بالضمير ويشرب، ويهتز عند سماعه ويطرب؛ في الغزل والنسيب، والوصف والتشبيب؛ إلي غير ذلك من مستطرفات التشبيهات المستعذبة، ومبتكرات بدائع بدائه الخواطر المستغربة. ولمح سير ملوك المغرب وملح أخبار أدبائه، ورقيق معان كتابه وجزل ألفاظ خطبائه. وبالجملة فقد نثلت في هذا المجموع كنانة محفوظاتي في المعارف الأدبية، ولم أحله من أخير ذخائر ما التقطته من أفواه مشايخي من مشكل علمي الغريب والعربية. إلا أني لم أقصد جمع ذلك على الترتيب. ولا سلكت فيه مسلكي المعهود في التبويب والتهذيب. بل استرسلت فيه مع الخاطر على ما يجود به ويسمح، ويعن له ويسنح. فالناظر فيه يسرح في بساتين، ويمرح في ميادين؛ ويخرج من فن إلى فنون، والحديث ذو شجون.

أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي

أنشدني غير واحد من شيوخي، رحمهم الله، منهم الشيخ الفقيه الأجل قاضي الجامعة الأجزل. أبو الحسن علي بن عبد الرحمن، لفضلاً بمتزله بمدينة تلمسان، قال: أنشدنا الفقيه الإمام العالم أبو عمران موسى بن عبد الرحمن "بن خلف بن موسى" ابن أبي تليد الشاطبي، قال: أنشدنا الإمام الحافظ أبو عمر بن عبد البر قال: أنشدنا مقدم شعراء الأندلس: أبو عمر يوسف بن هارون الرمادي لنفسه، وتوفي سنة ثلاث وأربعمائة:

وليلة راقبتُ فيها الهوى
والراحُ ما تنزلُ عن راحتي
ورب يومٍ قيظُهُ مُنْضِجٌ
أبرزَ في خديهِ لي رشحه
فكان في تحليلِ أزراره
فُتحتُ الجنةُ من جيبه
مُروءةٌ في الحُبِّ تنهى بأنْ
على رقيبٍ غيرِ وسنانِ
وقتناً وعن راحةِ نَدْماني
كأنَّهُ أحشاءُ ظمآنِ
طلأاً على وِردِ وسوسانِ
أفودَ لي من ألفِ شيطانِ
فبِتُ في دَعوةِ رضوانِ
نُجاهرَ اللهَ بعصيانِ

قال ذو النسيب، رضي الله عنه: لقد أحسن هذا الشاعر ما شاء من الإحسان، لا سيما في قوله "تنهى بأن نجاهر الله بعصيان".

أبو عمر الجياني

أحمد بن محمد بن فرج الجياني

ومن مליح هذا الباب، أعني الاتصاف بالعفاف، قول الأديب اللغوي النحوي، أبي عمر أحمد بن محمد بن فرج الجياني، صاحب كتاب الحقائق، ألفه للحكم المستنصر بالله، وعارض به كتاب الزهرة لأبي بكر محمد بن داود بن علي الأصبهاني، إلا إن أبا بكر إنما ذكر مائة باب في كل باب مائة بيت، وأبو عمر أورد مائتي باب في كل باب مائتا بيت، ليس منها باب تكرر اسمه لأبي بكر، ولم يورد فيه لغير أندلسي شيئاً.

قال الحميدي في جذوة المقتبس له: قال لنا أبو محمد علي بن أحمد: "و أحسن الاختيار ما شاء وأجاد فبلغ الغاية، فاتى الكتاب فرداً في معناه".
فمن قوله:

بأيهما أنا في الشكرِ بادي
سرى فأرادَه أَملي ولكنْ
وما في النومِ من حرجٍ ولكنْ
لكن أخذه من قول المتنبي:
بِشكرِ الطَّيفِ أمْ شُكْرِ الرُّقَادِ
عَفَفْتُ فلمْ أنلْ منه مُرادِي
جريتُ من العَفافِ على اعتيادي
ويَعصَى الهوى في طَيْفها وهو راقِد
يرُدُّ يداً عن ثوبها وهو قادر

وأنشدوني أيضاً لأبي عمر الرمادي المذكور:

أحمامةً فوق الأراكة بيّني
بحياة من أبكاك ما أبكاك

أما أنا فبكيّت من حرق الهوى
وفراق من أهوى أنت كذاك

أمة العزيز

وأنشدني أخت جدي الشريفة الفاضلة، أمة العزيز، ابنة الشريف الأجل العالم أبي محمد العزيز بن الحسن بن الإمام العالم أبي البسام موسى بن عبد الله ابن الحسين بن جعفر الزكي بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين الشهيد، سيد شباب أهل الجنة، ابن أم أبيها فاطمة الزهراء البتول، سيدة نساء أهل الجنة، صلى الله على أبيها وعليها، ورضي الله عن بعلمها وبنيتها:

لحاظكم تجرحنا في الحشى
ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرحٌ بجرح فاجعلوا ذابداً
فما الذي أوجب جرح الصدود

المعتمد بن عباد

وأنشدونا للمعتمد على الله أبي القاسم محمد ملك إشبيلية، وابن ملكها عباد:

لك الله كم أودعت قلبي أسهماً
وكم لك ما بين الجوانح من كلم
لحاظك طول الدهر حرباً لمهجتي
الأرحمة تننيك يوماً إلى سلمى

ولادة

وحدثني القاضي العدل أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال الأنصاري، بقراءتي عليه بقرطبة أم بلاد الأندلس؛ في العشر الآخر من صفر سنة أربع وسبعين وخمسمائة، قال في كتاب الصلة له: ولادة بنت المستكفي بالله؛ أمير المؤمنين، محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر عبد الرحمن بن محمد المرواني، من بني أمية بأندلسي؛ أديبة شاعرة؛ جزلة القول، حسنة الشعر؛ وكانت تخالط الشعراء وتساجل الأدباء، وتفوق البرعاء. سمعت شيخنا أبا عبد الله جعفر بن محمد بن مكي رحمة الله، يصف نبايتها وفصاحتها وحرارة نادرتهما وجزالة منطقتها وقال لي: لم يكن لها تصاون يطابق شرفها. وذكر لي أنها أته

معزية له في أبية إذ توفي رحمه الله سنة أربع وسبعين وأربعمائة، وتوفيت رحمها الله يوم مقتل الفتح بن محمد بن عباد يوم الأربعاء لليلتين خلتا من صفر سنة أربع وثمانين وأربعمائة، ولم تتزوج قط، وعمرت عمراً طويلاً إلى أيام المعتمد قال ذو النسيين رضي الله عنه: كانت الحسية ولادة في زمانها واحدة أوأها، حسن منظر ومخير، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة؛ متدى احرار المصر، وفناؤها ملعباً لحياد النظم والنثر، يعيشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتهاك أفزاد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة متابها؛ تخلط ذلك بعلو نصاب، وسمو أحساب؛ على أهما- سمح الله لي ولها، وتعمد زلي وزللها- اطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل؛ بقلة مبالاها، ومجاهرتها للذاها. كتبت- زعموا- على عاتقي ثوبها:

أنا والله أصلح للمعالي وأمشى مشيتي وأتبه تيهها

وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطى قبلتي من يشتهيها

وكتبت إلى ذي الوزارتين أبي الوليد أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن زيدون المخزومي القرطبي:

ترقب إذا جنّ الظلامُ زيارتي فأني رأيتُ الليلَ أكرمُ للسرّ

وبي منك ما لو كان بالبدر ما بدا وبالليل ما أنجى وبالنجم لم يسرّ

إلى أن يقول ابن زيدون: وتبنا بليلة نجتني أقحوان الثغور، ونقطف رمان الصدور، فلما انفصلت عنها صباحاً، أنشدتها ارتياحاً:

ودّع الصبر محب ودّعك ذائعا من سره ما استودعك

يقرّع السنّ على أن لم يكن زاد في تلك الخطأ إذ شيعك

يا أخوا البدر سناءً وسنى حفظ الله زماناً أطلعك

إن يطل بعدك ليلي فلکم بت أشكو قصر الليل معك

وله يتعزل فيها:

يا نازحاً وضمير القلب مثواه أنستك دنياك عبداً أنت مولاه

ألتهك عنه فكاها تذبها فليس يجري ببال منك ذكراه

علّ الليالي تُبقيني إلى أمد الدهر يعلم والأيام معناه

وله فيها:

يا قمرأ مطلعهُ المغربُ قد ضاق بي في حبك المذهب

فَأَنَّ مِنْ أَعْجَبَ مَا مَرَّ بِي أَنْ عَذَابِي فِيكَ مُسْتَعَذِبُ
الزَّمَّتَنِي الذَّنَبُ الَّذِي جَنَّتَهُ صَدَقْتَ فَأَصْفَحَ أَيُّهَا الْمَذْنَبُ

وقال:

مَا بَالُ خَدِّكَ لَا يَزَالُ مُضْرَجًا بَدَمٍ وَلِحْظُكَ لَا يَزَالُ مُرِيبًا

وقال فيها:

حَلَّيْتَنِي بِحُلَى أَصْبَحْتَ زَاهِيَةً بِهَا عَلَى كُلِّ أَنْثَى مِنْ حُلَى عَطْلٍ
لِللَّهِ أَخْلَاقُكَ الْغُرُّ الَّتِي سَوَّيْتُ مِنَ الْفُرَاتِ فَرَقَّتْ رِقَّةَ الْغَزْلِ
أَشْبَهْتِ فِي الشَّعْرِ مِنْ غَارَتِ بَدَائِعِهِ وَأُنَجَّدْتَ وَغَدَّتْ مِنْ أَحْسَنِ الْمُثَلِّ
مَنْ كَانَ وَالِدُهُ الْعَضْبَ الْمَهْدَدَ لَمْ يَلِدْ مِنَ النَّسْلِ غَيْرَ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ

حفصة بنت الحاج

من بشرات غرناطة، رحيمة الشعر، رقيقة النظم والنثر. أنشدني لها غير واحد من أهل غرناطة:

تَنَائِي عَلَى التَّنَائِي لِأَنَّي أَقُولُ عَلَى عِلْمٍ وَأَنْطِقُ عَنْ خُبْرٍ
وَأُنْصَفُهَا لَا أَكْذِبُ اللَّهُ أَنَّنِي رَشَفْتُ بِهَا رِيْقًا أَلْذُ مِنَ الْخَمْرِ

ابنة زياد المؤدب

من أهل مدينة وادي آش، أنشدني الأديب أبو عبد الله محمد بن عيل الهمداني قال، أنشدتني لنفسها:

أَبَاحَ الدَّمْعِ أَسْرَارِي بَوَادِي بِهِ لِلْحَسَنِ آثَارُ بَوَادِي
وَمَنْ بَيْنَ الطَّبَّاءِ مَهَاةُ رَمْلٍ تَبَدَّتْ لِي وَقَدْ مَلَكَتُ قِيَادِي
إِذَا سَدَلْتَ ذَوَائِبَهَا عَلَيْهَا رَأَيْتَ الصَّبِيحَ أَشْرَقَ فِي الدَّادِي
تَخَالَ الْبَدْرَ مَاتَ لَهُ خَلِيلٌ فَمَنْ حُزْنٌ تَسْرِبَلُ بِالْحِدَادِ
لَهَا لِحْظٌ تَرَقَّدُهُ لِأَمْرٍ وَذَاكَ الْأَمْرُ يَمْنَعُنِي رُقَادِي

الدادِي: ثلاث ليالٍ من آخر الشهر، هكذا قال الإثبات من الغويين. وقال أحمد بن يحيى ثعلب: يقال لليوم الذي يشك فيه من الشهر الحرام: دأداء.

الحكم المستنصر

وأنشدونا الخليفة الأندلسي، الحكم المستنصر بالله صاحب الفتوحات العظيمة، والمعرفة بالعلوم الحديثة والقديمة، كتب به إلى مصر:

ألسنا بني مروان كيف تبدلت
بنا الدار أو دارت علينا الدوائر
إذا ولد المولود منا تهللت
له الأرض وأهتزت إليه المناير

وتوفي يوم السبت لثلاث خلون من صفر سنة ست وستين وثلاثمائة، وقد انقرض عقبه.

المعتضد بن عباد

وأنشدونا للسلطان المعتضد بالله أبي عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل بن قريش ابن عباد اللخمي. والمعتضد هذا هو قطب رحى الفتنة، ومنتهى غاية الحنة؛ لم يثبت له قائم ولا حصيد ولا سلم من سيفه قريب ولا بعيد:

شربنا وجفن الليل يغسل كحله
بماء صباح والنسيم رقيق
معتقة صفراء أما نجارها
فضخم وأما جسمها فدقيق

وقال يخاطب الملك أبا الجيش مجاهد بن عبد الله، صاحب الجزائر ومدينة دانية. ويقال إنها من أبيات لكتابه ذي المعارف والفنون، أبي الوليد ابن زيدون:

خلي أبا الجيش هل يقضي اللقاء لنا
فيسنقى منك طرف أنت ناظره
شط المزار بنا والدار دانية
يا حبذا الفأل لو صحت زواجره

قال ذو النسيين، رضي الله عنه: قوله "و الدار دانية" من مליح التورية، وهي ضرب من صنعة البديع، ودانية: مدينة: مدينة كبيرة بشرق الأندلس، وهي مشتقة من: دنا يدنو: إذا قرب.

وأنشدني شيخ الإتيقان، وواحد أسانيد الفرقان، أبو العباس أحمد ابن عبد الرحمن اليافعي - ويافع بلياء المثناة باثنتين من أسفل، قبيلة من رعين - قال: أنشدني الأستاذ المقرئ: أبو داود سليمان بن يحيى، قال: أنشدنا الأستاذ الأعلى أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري الحصري القيرواني المكفوف قال: دخلت على السلطان المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن المعتضد بالله، حين مات أبوه، فأنشدته ارتجالاً:

مات عبّادٌ ولكن
بقي الفرع الكريم
فكان الميتَ حيًّا
غير أن الضادَّ ميم

ونسبه: محمد بن عباد بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو ابن أسلم بن عمرو بن عطف بن نعيم. وعطف ونعيم هما الداخلان بالأندلس:

مِنْ بَنِي الْمُنْذِرِينَ وَهُوَ انْتِسَابٌ
زَادَ فِي فَخْرِهِ بَنُو عَبَادٍ
فَقَّةٌ لَمْ تَلِدْ سِوَاهَا الْمَعَالِي
وَالْمَعَالِي قَلِيلَةٌ الْأَوْلَادِ

وهذا النسب يطرد اطراد الشآبيب، ويتسق اتساق الأنابيب، إلى مركز الدائرة من لحم، وإلى قنص بن معد من ابنه عجم. ولد رحمه الله بمدينة باجة، سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة. وولي سنة إحدى وستين، وخلع سنة أربع وثمانين، وتوفي رحمه الله في شوال لإحدى عشرة ليلة خلت منه سنة ثمان وثمانين وأربعمائة. وخلع عن ثمانمائة امرأة، أمهات أولاد، جوارى متعة، وإماء تصرف. وملك من البلاد بين مدن وحصون مائتي مسور، وإحدى وثلاثين مسورا. وقد ذكرها الوزير أبو بكر محمد بن عيسى بن محمد اللخمي، الدايني - يعرف بابن اللبانة - في كتاب نظم السلوك.

وأشددونا للمعتمد، وقد ناوله بعض نسائه كأس بلور مترعا شرابا، ولمع البرق فارتاعت، فقال بديهة:

رَبِعْتَ مِنَ الْبَرِقِ وَفِي كَفِّهَا
بَرِقٌ مِنَ الْقَهْوَةِ لَمَّاعٌ
يَا لَيْتَ شِعْرِي وَهِيَ شَمْسُ الضَّحَى
كَيْفَ مِنَ الْأَنْوَارِ تَرْتَاعُ

وأمر الأديب المصيب أبا محمد عبد جليل بن وهبون بإجازة البيت الأول، فقال:

وَلَنْ تَرَى أَعْجَبَ مِنْ أَنْسٍ
مِنْ مِثْلِ مَا يُمَسِّكُ يَرْتَاعُ

وهذا من نوادر الخواطر، وليس ينكر على هذا الشاعر. فمن جودة شعره ترتيب اللفظ فيه مع جودة معانيه، أولها المطابقة بلفظي الأنس والارتياح، وتشبيه لمعان البرق يلمعان الخمر.

وقال المعتمد في السلطان عباد أبيه، من قصيدة كبير بمدحه فيه:

سَمِيدٌ يَهَبُ الْآلَافَ، مَبْتَدِئًا
وَيَسْتَقِلُّ عَطَايَاهُ وَيَعْتَذِرُ
لَهُ يَدٌ كُلُّ جَبَّارٍ يَقْبَلُهَا
لَوْلَا نَدَاها لَقَلْنَا إِنَّها الْحَجَرُ

يريد الحجر الأسود الذي يجب تقبيله على جميع الطائفين بالمسجد الحرام، على ما ثبت عن رسول الله عليه أفضل الصلاة وأشرف السلام. والسמידع، بفتح السين في لغة العرب: السيد.

وفضل يده على الحجر بما خصت به من الندى، وكثرة الجدي، ففضل يد الممدوح على الحجر الأسود وهذا من باب غلو الشعراء وإيغالهم، فيما ينمقون من زخارف أقوالهم؛ فشتان بين يديه وبين الحجر الأسود في الممات والمحيا، لأنه يشهد يوم القيامة لمن استلمه في الدنيا، وينال بذلك عند الله جل جلاله

المتزلة العليا.

وقال أيضاً في أبيه يسترضيه:

أصبح قلبي به قريحاً

مولاي أشكو إليك داءً

فأبعث إليّ الرضا مسيحاً

سُخطك قد زادني سقاماً

فقوله "مسيحاً" من القوافي التي يتحدى بها، لصعوبتها على من راماه وأدخلها هو في باهما، إذ كان المسيح بن مريم يشفي من العلل وأصاها.

وأدخل عليه يوماً بعض فتاناه باكورة نرجس، فكتب إلى ابن عمار يستدعيه:

وحان من يومنا العشيُّ

قد زارنا النرجسُ الذكيُّ

وقد ظمنا وثم ريُّ

ونحن في مجلسٍ أنيقٍ

يا ليتَه ساعد السميُّ

ولي نديمٌ غدا سميُّ

فأجابه ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار:

له الندى الرحبُ والنديُّ

لبيك لبيك من مُنادٍ

قبيلته وجهك السنِّيُّ

ها أنا بالباب عبدٌ قنٍ

شرفته أنت والنبيُّ

شرفه والداه باسمٍ

وكتب أيضاً إلى أبي بكر بن عمار:

ورددته لما انصرفت عليه

لما نأيت نأى الكرى عن ناظري

فرهبت قلبي واعتذرت إليه

طلب البشيرُ بشارَةً يُجزى بها

أنا استحسن قول أبي فراس لسيف الدولة:

تُبعُهدتي بيد الرسول

نفسى فداؤك قد بعثُ

صلةً المبشرُ بالمقبول

وجعلت ما ملكت يدي

وقال ابن عباد:

ألا غفر الرحمنُ ذنباً تواقعهُ

تظنّ بنا أم الربيع سامةً

وبدرَ تمامٍ في جفوني مطالعه

أهجرُ ظبياً في فؤادي كناسه

على مُعنفِها أو عدواً تقارعه

إذا هجرت كفى نوالاً تفيضه

وقال:

أَكْثَرْتَ هَجْرِي غَيْرَ أَنَّكَ رَبِّمَا
فَكَأَنَّما زَمَنُ التَّهَاجُرِ بَيْنَنَا
عَطَفْتِكَ أَحْيَانًا عَلَى أُمُورُ
لَيْلٍ وَسَاعَاتُ الوَصَالِ بِدُورِ

وقال:

حَكَمَهُ فِي مُهْجَتِي حُسْنُهُ
أَفْذِيهِ مَا يَنْفَعُكَ لِي ظَالِماً
فُظِّلَ لَا يَعْدِلُ فِي حُكْمِهِ
يَا رَبِّ لَا يُجْزِي عَلَى ظُلْمِهِ

وله في جارية تسمى بوداد، وقد سافر عنها إلى تفقد بعض البلاد:

اشْرَبِ الكَأْسَ فِي وِدَادِ وِدَادِكَ
قَمَرٌ غَابَ عَن جُفُونِكَ مَرَّآ
وَتَأَنَّسْ بِذِكْرِهَا فِي انْفِرَادِكَ
هُ وَسُكْنَاهُ فِي سَوَادِ فُؤَادِكَ

وقال من أبيات في فتاة يوم وداعها، عند تفطر كبده وانصداعها:

وَلَمَّا التَّقِينَا للودَاعِ غُدِيَّةً
بَكِينًا دَمًّا حَتَّى كَأَنَّ عِيُونَنَا
وَقَدْ خَفَقَتْ فِي سَاحَةِ القَصْبِ رَايَاتُ
لَجْرَى الدَّمُوعِ الحُمُرِ مِنْهَا جِرَاحَاتُ

من هذا الباب قول الآخر:

بَكَيْتَ دَمًّا حَتَّى لَقَدْ قَالَ قَائِلٌ
وَمِنْ شَعْرِهِ الحَسَنِ وَغَرَضُهُ المِستَحْسِنُ:
أَهَذَا الفَتَى مِنْ جَفَنِ عَيْنِيهِ يَرَعُفُ
قَامَ لَيْسَقِي فَجَاءَ بِالعَجَبِ

أَبْدَى لَنَا مِنْ لَطِيفِ حِكْمَتِهِ
فِي جَامِدِ المَاءِ ذَائِبِ الذَّهَبِ
وَرُبَّ سَاقٍ مُهْفَهِفٍ غَنَجِ
أَبْدَى لَنَا مِنْ لَطِيفِ حِكْمَتِهِ

قال ذو النسيب، رضي الله عنه: أكثر الشعراء من وصفها بدوب الجامد، ووصف كأسها بجامد الذائب، فمن ذلك:

لَاحٌ وَفَاحَتْ رَوَائِحُ النَّدِّ
وَكَمْ سَقَانِي وَاللَّيْلُ مَعْتَكِرٌ
مُهْتَصِرُ الخِصْرِ أَهْيَفُ القَدِّ
فِي جَامِدِ المَاءِ ذَائِبِ الوَرْدِ

وقال الصنوبري:

أَقُولُ وَالكَأْسُ عَلَى فِيهِ قَدْ
وَجِسْمُهَا مِنْ ذَهَبِ جَامِدِ
صَوَّبَهَا كَالكُوبِ الصَّائِبِ
وَرُوحُهَا مِنْ ذَهَبِ ذَائِبِ
ذَا كَوَّكَبٌ يَغْرُبُ فِي كَوَّكَبِ
وَيَلِي مِنَ الطَّلَعِ لَا الغَارِبِ

ومما يقارب هذا الباب ما يروى من قول كسرى: ليست أدري، هل التفاح خمر جامد أم الخمر تفاح ذائب؟ أخذه الخليلع، فقال:

الرَّاحُ تَفَاحٌ جَرَى ذَائِباً
كذلك التَّفَاحُ رَاحٌ جَمَدٌ
فَأَشْرَبَ عَلَى جَامِدِهِ ذَوْبَهُ
ولا تَدَعُ لَذَّةَ يَوْمٍ لِغَدٍ

وكل هذا من قول الشريف عبد الله بن المعتز العباسي:

وخمارة من بنات المجو
سِ تَرَى الدَّنَّ فِي بَيْتِهَا سَائِلاً
وزناً لها ذهباً جامدا
فكالت لنا ذهباً سائلاً

وقال الأستاذ أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري:

أقول له وقد حياً بكأس
لها من مسك رياه ختام
أمن خديك تُعصر قال كلاً
متى عُصرت من الورد المُدام

حدثني بهذا الشيخ الإتيقان، وواحد أئمة الفرقان، الفقيه الأستاذ أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن، سبط الأستاذ المعزول، قال: حدثني الفقيه الأستاذ أبو داود سليمان بن يحيى، قال: سمعت الفقيه الأستاذ أبا الحسن الحصري يقول.

قال ذو النسين رضى الله عنه: وسمعت الوزير الفقيه المحدث الكاتب العدل أبا عبد الله محمد بن أبي القاسم بن عميرة، قال: سمعت الوزير الكاتب أبا نصر الفتح بن عبيد الله القيسي - هو ابن خاقان - يقول: أخبرني أبو بكر عيسى الداني، المعروف بابن اللبانة، أنه استدعاه المعتمد ليلة إلى مجلس قد كساه الروض وشبهه، وامتلل الدهر فيه أمره ونهيه؛ فسقاه الساقى وحياه، وسفر له الأَنس عن مونق محياه؛ فقام للمعتمد مادحا، وعلى دوحة تلك النعماء صادحا؛ فاستجاد قوله، وأفاض عليه طوله؛ وصدر وقد امتلأت يده، وغمره جوده ونداه. فلما حل بمتزلة رسوله بقطيع وكأس من بلار، قد أترعا بصرف العقار، ومعهما:

جاءتك ليلاً في شبات نهار
من نورها وغلالة البلار
كالمُشترى قد لف من مريخه
إذ لفته في الماء جذوة نار
لطف الجمود لذا وذا فتألفا
لم يلق ضدَّ ضده بنفار
يتحير الرأؤون في نعتيهما
أصفاء ماءٍ أو صفاء دراري

السلطان المتوكل على الله

أبو محمد عمر، ابن السلطان عالم ملوك الأندلس المظفر أبي بكر محمد بن عبد الله بن مسملة. وكان أعلمهم بالنسب وأيام العرب، وأجمعهم لغرائب اللغات والأخبار ومحاسن الأشعار. وألف تأليفاً بديعاً في خمسين مجلداً، ينسب إليه، وقد طالعتة. وتوفي رحمه الله بحضرة ملكة مدينة بطليوس في منتصف شهر رمضان المعظم سنة ستين وأربعمائة، وهو ابن سبعين عاماً.

حدثني الوزير الكبير الحكيم الفقيه الأديب النحرير، أبو بكر بن زهر قال: حدثنا عظيم دولتهم ووزير مملكتهم العالم الأوحى أبو محمد عبد المجيد بن عبد اله بن عبدون القرشي الفهري قال: سمعت السلطان المظفر رحمه الله يقول. فذكر تواليه كلها دقها وجلها.

وأما ولده السلطان المتوكل على الله، فله نثر تسري فيه رقة النسيم، ونظم يزري بالدر النظيم، مع جود وكرم وخيم؛ كما قال فيه ابن حنظلة البطليوسي:

زعم الناس أن حاتم طي
أول في الندى وأنت الثاني
كذب الناس ليس ذلك صحيحاً
هو مرعى وليس كالسعدان

وأما عدله فشاع في بلاده وذاع، وملاً الأصقاع والبقاع. فمن قوله يستدعي الوزير أبا طالب بن غانم، أحد ندمائه ونجوم سمائه:

أقبل أبا طالب إلينا
واسقط سُقُوطَ الندى عَلَيْنَا
فحننُ عقدٍ بغيرِ وَسْطَى
ما لم تكن حاضراً لَدِينَا

وحدثني الوزير الكاتب المحدث الفاضل أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم ابن عُميرة، قال: سمعت الوزير الكاتب أبا نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان يقول: أخبرني الوزير أبو محمد بن عبدون أنه سايره إلى شنترين قاصية أرض الإسلام، السامية الذرى والأعلام؛ التي لا يروعها صرف، ولا يفرعها طرف؛ لأهما متوعرة المراقي، معثرة للراقي؛ متمكنة الرواسي والقواعد، على ضفة نهر استدار بها استدارة القلب بالساعد؛ قد أطلت على خمائلها إطلال العروس من منصتها، واقتطعت في الجو أكثر من حصتها، فمروا ببلش قطر سالت به جداوله، واختالت فيه خمائله؛ فما يجول الطرف منه إلا في حديقة، أو بقعة أنيقة. فتلقاهم ابن مُقانا قاضي حضرته وأنزلهم عنده، وأورى لهم بالميرة زنده؛ وقدم طعاماً، واعتقد قبوله مناً وإنعاماً. وعندما طعموا قعد القاضي بباب المجلس رقيباً لا يبرح، وعين المتوكل حياً منه لا تجول ولا ترح. فخرج أبو محمد وقد أبرمه القاضي بتثقيله، وحرمه راحة رواحه ومقيله؛ فلقي ابن جيرون منتظراً له، وقد أعد لخلوله منزله؛ فصار إلى مجلس قد ابتسمت ثغور نواره، وخجلت حدود ورده من زواره؛

وأبدت صدور أباريقه أسرارها، وضمت عليه المحاسن أزرارها. ولما حضر له وقت الأُنس وحينه، وأرحت له رياحينه؛ وجه من يرقب المتوكل حتى يقوم جليسه، ويزول موحشه لا أنيسه؛ فأقام رسوله وهو بمكانه لا يريمه، قد لازمه كأنه غريمه؛ فما انفصل، حتى ظن أن عارض الليل قد نصل. فلما علم أبو محمد بانفصاله بعث للمتوكل قطع خمر وطبق ورد وكتب معهما:

إِلَيْهَا فَاجْتَلِهَا مُنِيرَةً
وَقَدْ خَبَا حَتَّى الشَّهَابُ الثَّاقِبُ
وَأَقْفَةً بِالْبَابِ لَمْ يُؤْذَنْ لَهَا
إِلَّا وَقَدْ كَادَ يَنَامُ الْحَاجِبُ
فَبِعِضُهَا مِنَ الْمَخَافِ جَامِدٌ
وَبِعِضُهَا مِنَ الْحَيَاءِ ذَائِبُ

فقلبيها، وكتب إليه:

قَدْ وَصَلْتَ تِلْكَ الَّتِي زَفَفْتَهَا
بِكْرًا وَقَدْ شَابَتْ لَهَا ذَوَائِبُ
فَهَبَّ حَتَّى نَسْتَرِدَّ ذَاهِبًا
مَنْ أَنْسَنَا إِنْ اسْتُرِدَّ ذَاهِبُ

فركب غليه، ونقل ما كان معه في المجالس، وباتا ليلتهما لا يرميان السهر، ولا يشيمان برقا إلا الكأس والزهر.

قال ذو النسيب رضي الله عنه: وقد أخذ الآن هذه البلاد ابن الريق اللعين، وحن لها يوم شر كما كان أحد يظن أنه يحين، فتملكت شنترين والأشبونة لما خاف أهلها من القتل ورأوا أن السر دونه؛ لكثرة من جاءهم في البر والبحر، وقعود المسلمين عن الحماية لهم والنصر؛ حتى ملك الكفار معاقلمهم الممتنعة، وحصونهم المرتفعة. وأبو نصر الفتح المتقدم الذكر، لاقيت جماعة من أصحابه، وحدثوني عنه بتصانيفه وعجائبه. وكان رحمان الله وإياه، مخلوع العذار في دنياه؛ ولكن كلامه في توأيفه كالسحر الحلال، والماء الزلال. قتل بحاً في مسكنه بفندق لبيب من حضرة مراکش، صدر سنة تسع وعشرين وخمسمائة. أخبرني بذلك الوزير الكاتب العالم أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن عميرة، وأن الذي أشار بقلته أمير المسلمين وناصر الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين. وكان صاحب بطليوس أبو بكر بن عبد الله بن مسلمة؛ ذو الملك الأكبر، المنعوت بالسلطان المظفر؛ وبنوه ملوك الأعيان، وأعين ملوك الزمان. ولكبر قدرهم في الملوك، وكونهم فيهم كالواسطة في السلوك؛ نزلت عليهم ملوك بلاد الأندلس من المسلمين، وهو عام الزلافة سنة تسع وسبعين. فقام ولده وولى عهده المتوكل على الله أبو محمد بن الملك المظفر، المخدم بسعدة في إقامتهم بجميع ما يحتاجونه، ووجدوا عنده فوق ما يرجونه؛ وفي جملةهم أبو يعقوب يوسف بن تاشفين، المتسمى بأمير المسلمين، مع جماعة لا تحصى من المثلثين؛ لأنه وصل من

مراكش مستدعي لقتال العدو المتحرك إلى البلاد، برغبة الملك المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد؛ لأنه جاز البحر إليه، فأنعم بالإجابة عليه، لما أراد الله من إخراجهم من ملك على يديه. ثم لما كانت المقاتلة قتل فيها من شجعان النصارى ثلاثون ألف فارس ومن الرجالة ما لا يحصى، وبعيد أن يستقصي؛ وفر أذفونش ليلاً وهو يدعو حرباً وويلاً. وفي ذلك يقول أبو محمد عبد الجليل بن وهبون:

نضاً أدرعه واجتاب ليلاً
يودّ لو أنه في الطول عامٌ
ستسألك النساء ولا رجالٌ
فحدّث "ما وراعيك يا عصام"

فلما قضيت غزاتهم، وعادت صقورهم وبزاتهم؛ طمع المثلثون في بلاد بني المظفر، فحولوهم من العيش الأخضر، إلى الموت الأحمر؛ وحاصروهم وصابروهم. ودخلوا المدينة بالسيف، وحكموا فيهم أيدي الحيف، ودخلوها عليهم قهراً وقسراً، وقتلوا الملكين الجليلين ولدى المتوكل صبراً، وقدموهما قبله لرغبته لهم في تقديمها بين يديه لينال أجرهما ويكونا في ميزانه. فقدمها عليه، وجعلوهما منه بمرأى العين، وقام بعدهما كي يصلي ركعتين فطعنوه بالرماح؛ وقد اختلط كلامه في صلاته، حتى أتوا على نفسه ووفاته؛ وكذلك غلبوا على ملوك الأندلس الباقين، ودخلوا إشبيلية قهراً ذات الأتار والبساتين؛ وأخرجوا المعتمد على الله من قصره، لى كلبه وأسرته، وفي ذلك يقول في أبيات:

كلّبي أما تعرّفني مُسلماً
أبيت أن تُشفقٍ أو ترحمأ

وحملوه إلى أقصى العدو إلى المدينة أغمات، فبقي فقيراً عديماً أسيراً إلى أن مات. ثم سلط الله على المثلثين جماعة الموحدين، فأزالوا الملك من أيديهم، وتحكموا في أنفسهم وساحاتهم وناديتهم، فصلبوا أمير المسلمين أبا محمد تاشفين بحصن العباد خارج مدينة وهران، وذلك ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان. ثم دخلوا مدينة مراكش سنة إحدى وأربعين وخمسمائة بالحسام المسلول، وتركوا القصور حاوية خالية كالطول؛ وحكموا في أعناق سلاطين المثلثين طباة السيوف وأسنة الرماح، وضربوا عنق ولي عهد أمير المسلمين إسحاق بن علي بن يوسف ابن تاشفين بجد الصفاح؛ وجرت أثمار الدم في سكك المدينة، وأزال الله جلت قدرته عنهم ملاءة السكينة. ولما غلبهم الموحدون ودخلوها، واستولوا على جميع الديار وتركوها؛ بيعت الحرة الجميلة بدجاجة، حتى تعلم أن ليس لهم بها من حاجة؛ وذلك بالمغرب يوم مشهود، علمه الغائبون والشهود.

وقد رثى ملوك بني المظفر الوزير العالم المستبحر في جميع الفنون، أبو محمد عبد الجيد بن عبد الله بن عبدون بقصيدته الفريدة المتضمنة للتواريخ والأنساب، والحكم والآداب، وهي مما يعتبر بها أولو الألباب:

الدَّهرُ يفجّع بعد العين بالأثرِ
فما البكاء على الأشباح والصّورِ

أنهاكَ أنك لا ألوك موعظةً
 فالدهر حربٌ وإن أبدي مسالمةً
 ولا هوادة بين الرأس تأخذه
 فلا يغرناك من دنياك نومتها
 ما للليالي أقال الله عثرتنا
 في كل حين لها في كل جارحة
 تسرُّ بالشيء لكن كي تغرَّ به
 كم دوله وليت بالنصر خدمتها
 هوت بدارا وقلت غرب قاتله
 واسترجعت من بني ساسان ما وهبت
 وأتبعته أختها طسماً وعاد على
 وما أقالت ذوي الهيئات من يمن
 ومزقت سباً في كل قاصية
 وأنفذت في كليب حكمها ورمت
 ودوخت آل ذبيان وإخوتهم
 ولم ترد على الضليل صحته
 وألحقت بعدي في العراق على
 وأهلكت أبرويزاً بابنه ورمت
 وبلغت يزجرد الصين واختزلت
 ولم تكف مواصي رستم وقنا
 يوم القلب بنو بدر فنوا وسعى
 ومزقت جعفرًا بالبيض واختلست
 وأشرفت بخبيب فوق فارعة

عن نومة بين ناب الليث والظفر
 والبيض والسود مثل البيض والسمر
 أيدي الضراب وبين الصارم الذكر
 فما صناعة عينها سوى السهر
 من الليالي وخانتها يد الغير
 منّا جراح وإن زاعت عن النظر
 كالأيام نار إلى الجاني من الزهر
 لم تبق منها وسل دنياك عن خبر
 وكان عضباً على الأملاك ذا أثر
 ولم تدع لبني يونان من أثر
 عاد وجرهم منها ناقض المرر
 ولا أجارت ذوي الغايات من مضر
 فما التقى رائح منهم بمبتكر
 مهلهلاً بين سمع الأرض والبصر
 عبساً؛ وعضت بني بدر على النهر
 ولا تثنت أسداً عن ربها حجر
 يد ابنه الأحمر العينين والشعر
 بيزجرد إلى مرو فلم يحر
 عنه سوى الفرس جمع الترك والخزر
 ذي حاجب عنه سعداً في ابنة الغير
 قلب بدر بمن فيه إلى سقر
 من غيله حمزة الظلام للجزر
 وأصقت طلحة الفياض بالعفر

وَحَضَبَتْ شَيْبَ عُمَانَ دَمًا وَخَطَّتْ
وَلَا رَعَتْ لِأَبِي الْيَقْظَانَ صُحْبَتَهُ
وَأَجْزَرَتْ سَيْفَ أَشْقَاهَا أَبَا حَسَنِ
وَلَيْتَهَا إِذْ فَدَّتْ عَمْرًا بِخَارِجَةٍ
وَفِي ابْنِ هِنْدٍ وَفِي ابْنِ الْمُصْطَفَى حَسَنٍ
فَبَعْضُهَا قَائِلٌ: مَا اغْتَالَهُ أَحَدٌ
وَأَرَدَتْ ابْنَ زِيَادٍ بِالْحُسَيْنِ فَلَمْ
وَعَمَّتْ بِالظُّبَا فَوَدَى أَبِي أَنَسٍ
وَأَنْزَلَتْ مُصْعَبًا مِنْ رَأْسِ شَاهِقَةٍ
وَلَمْ تُرَاقِبْ مَكَانَ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَلَا
وَأَعْمَلَتْ فِي لَطِيمِ الْجَنِّ حَيْلَتَهَا
وَلَمْ تَدَعْ لِأَبِي الذَّبَّانِ قَائِمَةً
وَأَحْرَقَتْ شَلُوَ زَيْدٍ بَعْدَ مَا احْتَرَقَتْ
وَأَظْفَرَتْ بِالْوَلِيدِ بْنِ الْيَزِيدِ وَلَمْ

إِلَى الزُّبَيْرِ وَلَمْ تَسْتَحْيِ مِنْ عُمَرَ
وَلَمْ تُزَوِّدْهُ إِلَّا الضَّيْحَ فِي الْعُمَرِ
وَأَمَكَنْتَ مِنْ حُسَيْنٍ رَاحَتِي شَمِيرٍ
فَدَتِ عَلِيًّا بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ
أَنْتِ بِمُذْهِلَةِ الْأَلْبَابِ وَالْفِكَرِ
وَبَعْضُهَا سَاكِتٌ لَمْ يُؤْتِ مِنْ حَصَرٍ
يَبُوءُ بِشِسْعٍ لَهُ قَدْ طَاحَ أَوْ ظُفَرٍ
وَلَمْ تَرُدِّ الرَّدَى عَنْهُ قَنَا زُفَرٍ
كَانَتْ بِهِ مُهْجَةَ الْمُخْتَارِ فِي وَزَرٍ
رَعَتْ عِيَادَتَهُ بِالرُّكْنِ وَالْحَجَرِ
وَاسْتَوْتَقَتْ لِأَبِي الذَّبَّانِ ذِي الْبَحْرِ
لَيْسَ اللَّطِيمُ لَهَا عَمْرٌ وَبِمُنْتَصِرٍ
عَلَيْهِ وَجَدًا قُلُوبُ الْآيِ وَالسَّوْرِ
تُبْقَى الْخِلَافَةَ بَيْنَ الْكَأْسِ وَالْوَتْرِ

حَبَابَةَ حَبِّ رَمَانَ أُتِيحَ لَهَا
وَلَمْ تَعُدْ قُضْبَ السَّقَّاحِ نَابِيَةَ
وَأَسْبَلَتْ دَمْعَةَ الرُّوحِ الْأَمِينِ عَلَى
وَأَشْرَقَتْ جَعْفَرًا وَالْفَضْلُ يَنْظُرُهُ
وَأَخْفَرَتْ فِي الْأَمِينِ الْعَهْدَ وَانْتَدَبَتْ
وَلَا وَفَتْ بَعْهُدِ الْمُسْتَعِينِ وَلَا
وَأَوْتَقَتْ فِي عَرَاهَا كُلِّ مُعْتَمِدٍ
وَرَوَّعَتْ كُلِّ مَأْمُونٍ وَمُؤْتَمِنٍ
وَأَعَثَرَتْ آلَ عَبَّاسٍ لِعَالِهِمْ

وَأَحْمَرُّ قَطْرَتَهُ نَفْحَةُ الْقَطْرِ
عَنْ رَأْسِ مَرْوَانَ أَوْ أَشْيَاعِهِ الْفُجْرِ
دَمٍ بَفَخَ لِآلِ الْمُصْطَفَى هَدَرَ
وَالشَّيْخُ يَحْيَى بِكَأْسِ الصَّابِ وَالصَّبْرِ
لِجَعْفَرِ بَابِنِهِ وَالْأَعْيُدِ الْغُدْرِ
بِمَا تَأَكَّدُ لِلْمُعْتَرِّ مِنْ مَرَرٍ
وَأَشْرَقَتْ بِقِذَاهَا كُلِّ مُقْتَدِرٍ
وَأَسْلَمَتْ كُلِّ مَنْصُورٍ وَمُنْتَصِرٍ
بِذَيْلِ رِيَاءٍ مِنْ بَيْضٍ وَمِنْ سُمْرٍ

بني المظفرّ والأَيَّامُ ما برحت
سُحفاً ليومكم يوماً ولا حملت
من للأسرة أو من للأعنة أو
من للظبا وعوالى قد عقدت
وطرُزَّتْ بالمنايا السُّود بيضُهُم
من للبراعة أو من للبراعة أو
أو دفع كارثة أو دع رادفة
ويح السَّمَّاحِ وويح البأس لو سلماً
سَقَّتْ تَرى الفضل والعباسِ هاميةً
ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رُقوا
ثلاثة ما رأى العصران مثلهم
ثلاثة كذوات الدهر مُنذُ نأوا
ومرَّ من كلِّ شيءٍ فيه أطيبه
أين الجلال الذي غَضَّتْ مهابتُه
أين الإباءُ الذي أرسوا قواعده
أين الوفاءُ الذي أصفوا شرائعه
كانوا رواسي أرض الله مُنذُ نأوا
كانوا مصابيحها فيها فمَنْذُ خبوا
كانوا شجى الدهر فاستهوتهم خُدغُ
ويل أمه من طلوب الثأر مُدرِكة
من لي ومن لهم إن أظلمت نُوبُ
من لي ومن لهم إن عطلت سنن
من لي ومن لهم إن أطبقت محنُ
على الفضائل إلا الصبر بعدهم

مراحلاً والورى منها على سَفَر
بمثله ليلة في غابر العمر
من للأسنة يهديها إلى الثغر
أطرافُ السُّنْها بالعِي والحصر
أعجب بذاك وما منها سوى الذِّكر
من للسَّماحة أو للنَّفع والضَّرر
أو قمع حادثة تُعيبى على القدر
واحسرة الدِّين والدنيا على عمر
تُعزي إليهم سَمَاحاً لا إلى المطرِ
وكلُّ ما طار من نسر ولم يطر
فضلاً ولو عَزَزَا بالشمس والقمر
عني مضي الدهر لم يربع ولم يحُر
حتى التمتع بالأصالِ والبُكرِ
قلوبنا وعيون الأنجم الزُّهر
على دَعائم من عزٍّ ومن ظفر
فلم يرد أحدٌ منها على كدر
عنها استطارَت بمن فيه ولم تقر
هوى الخليفة يالله في شرر
منه بأحلام عادٍ في خطا الخطر
منهم بأسدٍ سواهم في الوغى صبر
ولم يكن ليُلها يُفضي إلى سحر
وأخفيتُ ألسن الآثار والسير
ولم يكن وردّها يدعو إلى صدر
سلامٌ مُرتقب للأجر مُنتظر

يَرْجُو عَسَى، وله في أختها أمل
 قَرَّطت آذَانَ من فيها بفاضحة
 والدَّهْرُ ذو عُقْبٍ شَتَّى وذو غير
 عَلَى الحِسانِ حصَاً الياقوتِ والذَّرر
 سيارَةٍ في أقاصي الأرض قاطعة
 شقَّاشقاً هَدَّرت في البَدْوِ والحَصْر
 مُطاعة الأمر في الألباب قاضية
 من المسامع ما لم يُقْض من وطَر

السلطان المعتصم بالله

أبو يحيى محمد بن أبي الأحوص معن بن أبي يحيى محمد بن صمادح التحيبي، منسوب إلى امرأة اسمها تجيب، بنت ثوبان بن سليم بن رهاء، بالراء، من مذحج، إليها ينسبون. وهي أم عدي وسعد، ابني أشرس بن كندة، واسمه ثور بن عفير بن عدي بن الحارث بن مرة أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وقد اختلف الناس في ضبط هذا الحرف، بعد اتفاقهم أنه نسب إلى هذه المرأة، فقالوا: إنه بضم التاء، وبه نطقت العرب. وكثير من الأدباء والمحدثين يفتحون التاء. وقال أبو مروان بن سراج: "الفتح وحده". وزعم أن التاء أصلية وليست للمضارعة، ولذلك أثبتته صاحب كتاب العين في حرف التاء، إلا أنه قال: "تجيب وتجب، قبيلة" وقال أبو محمد بن السيد النحوي: "أنا أذهب إلى صحة الوجهين، مع كون التاء مزيدة، من جاب تجوب وتجب".

وبنو صمادح، بينت العلوم الفائقة، والآداب الرائقة.

يروي عن أبيه أبي الأحوص معن، عن أبيه أبي يحيى محمد بن صمادح مختصر غريب تفسير القرآن للطبري. حدثني به الفقيه المحدث الصالح أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبيد الله، قال: حدثني الفقيه المحدث الإمام أبو عبد الله محمد بن حسين يعرف بأحد عشر - قال: حدثنا الفقيه الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن أسود الغساني عن السلطان أبي يحيى محمد بن أبي الأحوص معن، عن أبيه أبي يحيى محمد بن صمادح، مختصره. وقال مطر الوراق في قوله جل وعلا: "وإنه لذكر لك ولقومك": هو أن الرجل: حدثني أبي عن جدي. وقال ابن أبي الحسن البصري: "حدثوا عن الأشراف، فإنهم لا يرضون أن يدينسوا شرفهم بالكذب ولا بالخيانة". والأشراف في اللغة الأعيان من أي القبائل كانوا.

وأنشدنا غير واحد بالسند المذكور آنفا عن الفقيه أبي إسحاق بن أسود وغيره، قالوا: أنشدنا السلطان المعتصم لنفسه:

يا مَنْ بجسمي لبعده سَقَمٌ
بين جفوني والنَّومُ مُعْتَرِكٌ
إن كان صرفُ الزمانِ أبعدي
عَنكَ فطيفُ الخيالِ يُدنيني
ما منه غيرُ الدُّنُوِّ يَبْرِينِي
تَصْغُرُ عنه حروبُ صَفِينِ

وله رحمه الله بركة ماء بناها في الصماد حية، وقد حضر في مجلسه أعيان الوزراء، ونبهاء الشعراء؛ وهو قاعد على موضع يتداخل الماء فيه، ويتلوى في نواحيه، فقال:

أَنْظُرْ إِلَى حُسْنِ هَذَا الْمَاءِ فِي صَبِيهِ
كَأَنَّهُ أَرْقَمٌ قَدْ جَدَّ فِي هَرَبِهِ
فاستبدع الكل قوله، فخلع عليهم ومنحهم فضله وطوله - والأرقم: من أسماء الحية - وله أيضاً فيها:

كَأَنَّ انسياب الماء في صفحاتها
تفورُ فوارةً مستديرةً
أَدْرْنَا بِهَا كَأْسًا كَأَنَّ حَبَابَهَا
لَهَا فِي غَدِيرِ الْمَاءِ لِأَلَاءِ جَمْرَةٍ
حُسَامٌ تَقِيلُ الْمَتْنَ سُلًّا مِنَ الْغَمِّ
لَهَا مُقْلَةٌ زَرْقَاءُ مَوْصُولَةٌ السَّهْدِ
حَبَابُ سَقِيظِ الطَّلِّ فِي وَرَقِ الْوَرْدِ
حَكَتْ نَارَ إِبْرَاهِيمَ فِي اللَّوْنِ وَالْبَرْدِ

وله:

الرَّوْضُ يَشْرَبُ وَالْأَنْوَارُ تَنْسَكِبُ
وَالشَّمْسُ تَظْهَرُ أَحْيَانًا وَتَحْتَجِبُ
وَلِلْبَهَارِ عَلَى أَفْنَانِهِ زَهْرٌ
كَأَنَّهُ فَضَّةٌ مِنْ فَوْقِهَا ذَهَبٌ

قال ذو النسيين رضي الله عنه: أهل الأندلس يسمون النرجس البهار واسمه في اللغة العبهر. ودخلا الأريب أبو الوليد النحلي مدينة المرية، يرفل في أثواب سود زرية، فكتب إلى السلطان:

أَيَا مَنْ لَا يُضَافُ إِلَيْهِ ثَانٍ
أَيَجْمَلُ أَنْ تَكُونَ سَوَادَ عَيْنِي
وَيَمْشِي النَّاسُ كُلَّهُمْ حَمَامًا
وَمَنْ وَرَثَ الْعُلَا بَابًا فَبَابًا
وَأَبْصَرَ دُونَ أَبْغِي حِجَابًا
وَأَمْشِي بَيْنَهُمْ وَحْدِي غُرَابًا

فبعث إليه من المال جملة وافرة، ومن البياض خلعة فاخرة، وكتب له رقعة فيها بيتان:

وَرَدْتَ وَلِلَّيْلِ الْبَهِيمِ مَطَارْفٌ
وَأَنْتَ لَدَيْنَا مَا بَقِيَتْ مَقْرَبٌ
عَلَيْكَ وَهَذِي لِلصَّبَاحِ بُرُودٌ
وَعَيْشُكَ سِلْسَالُ الْجِمَامِ بُرُودٌ

السلسال: الصافي العذب، يقال: ماء زلال وسلسال، إذا كان صافياً عذباً. والجمام، بكسر الجيم: جمع جم وجمعة، وهو الماء المجتمع.

وأشهدونا لابنه الأمير أبي جعفر رحمهما الله:

كُتِبْتُ وَقَلْبِي ذُو اشْتِيَاقٍ وَوَحْشَةٍ
جَعَلْتُ سُودَ الْعَيْنِ فِيهِ مَدَادَهُ
فَخَيْلٌ لِي أَنِّي أَقْبَلُ مَوْضِعاً
يُصَافِحُهُ ذَاكَ الْبِنَانُ الْمَكْرَمُ
ولو أنه يستطيعُ مرَّ يُسَلِّمُ
وأبيضه طرساً وأقبلتُ أَلْتُمُ

قال ذو النسيب رضي الله عنه: وهذا عندي من قول أبي إسحاق الصابي:

لَمَا وَضَعْتُ صَحِيفَتِي
قَبَّلْتُهَا لَتَمَّسَهَا
وَتَوَدَّ عَيْنِي أَنَّهَُا
حَتَّى تَرَى مِنْ وَجْهِكَ الـ
فِي بَطْنِ كَفِّ رَسُولِهَا
يُمْنَاكَ عِنْدَ وَصُولِهَا
قُرْنَتْ بِبَعْضِ فُصُولِهَا
مِيْمُونَ غَايَةَ سُؤْلِهَا

الملك الراضي بالله أبو خالد

يزيد ابن المعتمد على الله بن أبي القاسم عباد، وقد مرت عليه هوادج وقباب، فيها له أخدان وأحباب؛ وجهوا على وجه الهدية إلى بر العدو، وقد كان يلتمس بهم في صباح إمام قریش بدار الندوة؛ فقال ارتجالاً، وأنشد سحرًا حلالاً:

مَرَوْا بِنَا أَصْلًا مِنْ غَيْرِ مِيعَادِ
وَأَذْكُرُونِي أَيَّامًا لَهَوْتُ بِهِمْ
لَا غَرَوْا أَنْ زَادَ فِي وَجْدِي مَرُورُهُمْ
فَأَوْقَدُوا نَارَ شَوْقِي أَيَّ إِيقَادِ
فِيهَا فَفَازُوا بِإِيثَارِي وَإِحْمَادِي
فَرُؤْيَا الْمَاءِ تُذَكِّي غَلَّةَ الصَّادِي

صدي يصدي، فهو صاد وصيد، إذا عطش. ورجل صديان: عطشان. الغلة، واللواب، بفتح اللام؛ واللوح، بضم اللام؛ والجواد، بضم الجيم بلا همز: كل ذلك من أسماء العطش. وقد جمعناها في غير موضع.

الحاجب ذو الرياستين

أبو مروان عبد الملك بن رزين، ورث الملك كابرًا عن كابر، من ملوك من أسلافه، أرباب أسرة ومناير. وذو الرياستين زاد عليهم بأدب أهدى من الروض الریض، ومنظوم بديع من القريض. فمن شعره قوله يخاطب ذا الوزارتين أبا بكر محمد بن عمار، وكان ضيفاً عنده:

ضَمَّانٌ عَلَى الْإِيَّامِ أَنْ أَبْلَغَ الْمُنَى
إِذَا كُنْتُ فِي وَدِّي مُسْرِراً وَمُعْلِنًا

فلو تسأل الأيام من هو مفردٌ
بوَدَّ ابن عمَّارٍ لقلتُ لها أنا
فإن حَالَتِ الأيامُ بيني وبينه
فكيف يَطيبُ العيشُ أو يحسنُ المنى

فلم يجبه ابن عمار في يومه، لأنه كان يعاني قوله ويعلله، ويرويه ولا يرتجله. وأتى به في اليوم الثاني بأعذب الألفاظ وأرق المعاني، وهو:

هَصَرْتُ لِي الْأَمَالَ طَيِّبَةَ الْجَنَى
وَأَبْسَتِي النُّعْمَى أَعْضَّ مِنَ النَّدى
وَكَمْ لَيْلَةً أَحْظَيْتَنِي بِحُضُورِهَا
أَعْلَلُ نَفْسِي بِالْمَكَارِمِ وَالْعُلَا
سَأَقْرِنُ بِالنَّمْوِيلِ ذِكْرَكَ كَلِّمًا
لَأَوْسَعَتَنِي قَوْلًا وَطَوَّلًا كِلَاهِمَا
وَشَرَفْتَنِي مِنْ قِطْعَةِ الرَّوْضِ بِالنَّيِّ
تُرُوقُ بِجَبَدِ الْمَلِكِ مُرْصَعًا
فَدُمُ هَكَذَا يَا فَارِسَ الدَّسْتِ وَالْوَعَى
وَسَوَّغْتَ لِي الْحَوَالَ مُقْبَلَةَ الدُّنَا
وَأَجْمَلَ مِنْ وَشَى الرَّبَّيْعِ وَأَحْسَنًا
فَبِتُ سَمِيرًا لِلْسِّنَاءِ وَلِلْسَنَا
وَأُذْنِي وَكَفِّي بِالْغِنَاءِ وَبِالْغِنَى
تَعَاوَرَتِ الْأَسْمَاءُ غَيْرَكَ وَالْكُنَى
يُطَوِّقُ أَعْنَاقًا وَيُخْرَسُ أَلْسَنَا
تَتَأَثَّرُ فِيهَا الطَّبَعُ وَرَدًا وَسُوسَنَا
وَتُزْهِى عَلَى عَطْفِيهِ وَشَيْئًا مُفَنَّنًا
لَتَطْعَنُ طَوْرًا بِالْكَلامِ وَبِالْقَنَا

قوله "للسناء وللسنا". السناء، بالمد: المجد والشرف. والسنا، مقصور: الضوء، قال الله العظيم: "يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ".

وقوله "و أذني وكفى بالغناء وبالغنى" الغناء، بالمد: الصوت. قاله اللغويون، فيما أنشدنيه اللغوي النحوي القاضي العدل أبو الحسن علي بن أحمد الأمي:

غِنَاءُ الصَّوْتِ مَمْدُودٌ
وَكُلُّ غِنَى فَمَقْصُورٌ
بِمَا يَسْتَجْلِبُ الطَّرْبُ
كَذَا نَطَقَتْ بِهِ الْعَرَبُ

والغنى: ضد الفقر، ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس الغنى عن كثرة العرض": بفتح العين والراء، يعني كثرة المال والمتاع، وسمى عرضا، لأنه عارض يعرض وقتاً، ثم يزول ويفنى. ومنه قوله أيضاً: "خير الصدقة ما كان عن ظهر غني". قيل معناه: الصدقة بالفضل عن قوت عيالهم وحاجتهم. ويقويه قول الله عز وجل: "و يسألونك ماذا يُنفقون قل العفو". قيل: الفضل عن أهلك. وقوله: "تتاثر فيها الطبع ورداً وسوسنا" بضم السين، وهو لحن، وليس له في العربية وزن، والصواب:

سوسن، بفتح السين، على وزن فوعل بفتح الفاء، وكذلك روشن وأمثاله، نحو جوهر وجورب وكوثر وتولب؛ إذ ما سمع في أمثلة العرب فوعل، إلا جوذر في قول بعضهم. والذست: المرتبة العالية. ومن أعيان شعراء المغرب الراسخين في الأدب، المتمسكين منه بأمتن سبب، أبو الطيب أحمد بن الحسين بن محمد المهدي المسيلي له مقطعات غزل أحسن من قطع الرياض، وأغزل من العيون المراض. وكان شعره مدوناً بالثغر الأعلى بمدينة سرقسطة. أنفرد بروايته عالمها وحسيها الفقيه العالم النحوي الأصولي المتكلم أبو جعفر محمد بن حكم بن باق السرقسطي - وجده الأعلى محمد بن باق، ملك مدينة سالم - استوطن آخراً مدينة فاس، ولى أحكام القضاء بها. وكان محمود الحال، حسن الخلق، قولاً بالحق إلى أن توفي في العشر الأواخر من شعبان سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، أجاز له الفقيه الإمام القاضي أبو الوليد الباجي اللغوي النحوي الإمام أبو القاسم، وأبو محمد عبد الدائم بن مروان بن خير القيرواني، نزيل مدينة المرية. روى بالبصرة عن أبي الحسن محمد بن الحسين، سنة ست وعشرين وأربعمائة، عن هلال بن الحسن. ولقي المعري سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة وقرأ عليه، وسمع بالأندلس على جماعة. وحمل الإمام أبو جعفر بن باق ببلده سرقسطة عن الفقيه القاضي بها أبي محمد بن فورتش، وأبي عمر أحمد بن مروان المالكي، قرأ عليه كتب أبي المعالي. وروى عن أبي سعيد محمد بن سعد الزعيمي البغدادي، طراً على الأندلس وهو مسن. وروى عن الشريف المرتضى؛ أخي الشريف الرضي؛ القصيدة التي أولها:

يا ظبية البان ترعى في خمائله

مع جميع ما رواه عن الشريف وعن غيره. وروى شعر أبي العرب الصقلي. وكان أبو العرب قد سكن سرقسطة ومدح المستعين بن هود بشعر كثير. وروي أيضاً عن أبي جعفر البطروشي، والوزير أبي الفوارس بن عاصم، والوزير أبي عبيد البكري، وغيرهم. أقرأ أبو جعفر هذا بمدينة فاس كتاب سيبويه وكتاب الإيضاح، وتكلم على أعيان مسائله، وعلى جملة أبياته وشواهد، وشرح كتاب الإيضاح لأبي علي. وكان في النحو والأصول لا يشق غباره، ولا يخاض تياره. وله تأليف في علم الجدل. حدثني عنه جماعة من شيوخي رحمهم الله فأولهم، وأفضلهم قاضي الجماعة، ومعدن البراعة؛ المتفنن في جميع العلوم، والحسن إلى كل مجهول ومعلوم. الفقيه الزناتي الذي فاق متقدم الفقهاء الأوائل، وأعيان سحبان وائل؛ أبو موسى عيسى ابن عمران بن دانال الزناتي المكناسي الوردميثي، من ولد الملك أبي عمران موسى ابن أبي العافية. وبنو أبي العافية هم الذين كانوا ملوك المغرب الأقصى، وفضائله أكثر من

أن تحصى، فكم حلى رحمه الله من جيد معطال، وعطر من متفال، وانهض من ثفال، وجدد من شرف بال، لم يخطر للدهر على بال:

تالله لا يأتي الزمانُ بمثله

إنَّ الزَّمانُ بمثله لبخيلٌ

لقي جماعة من العلماء، منهم الفقيه أبو يوسف الزناتي الملقب بالرحي، لحفظه. وكان يحفظ دواوين، منها: المدونة، وكتاب الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار. فقرأ الفقه عليه، وقرأ موطأ مالك بن أنس من رواية يحيى بن يحيى على قاضي القضاة الفقيه أبي محمد عبد الله بن خليفة الأزدي، يعرف بابن أبي عرجون، وقرأ النحو على الأستاذ أبي حسن بن عبد الله القيسي، ثم رحل إلى مدينة فاس، فلقي الفقيه النحوي الأصولي المتكلم أب جعفر محمد بن حكم بن باق المذكور آنفاً، ولقي بأغرناطة النحوي الكبير أبا بكر محمد بن مسعود الخشني، يعرف بابي ركب. ثم رحل إلى المرية، فلقي إمام أهل عصره، ورزين جميع الأمصار مع مصره، أبا القاسم أحمد بن محمد التميمي سبط ابن ورد، وسمعه يقول: لم ألق بالأندلس مثل ابن ورد، ولا أحاشي من الأقسام من أحد.

واكن يفضله على ابن العربي، وابن عياض، وغيرهما. قرأت عليه مدة مديدة، ولزمته أعواماً عديدة، وسألته أن يجيز لي، ولأخي الحافظ أبي عمرو جميع ما رواه وجمعه، وتكلم فيه من العلم أو وضعه، فأجابني إلى ذلك، وقال لي: لم أفعله لأحد قبلك، ممن سلك هذه المسالك، وإنما اشتغلت عن كثرة الرواية بالدرس والدراسة.

وسألته عن مولده، فقال: ولدت في شعبان سنة اثني عشرة وخمسمائة، وتوفي رضي الله عنه شهيداً من داء البطن ليلة الخميس آخر الليل. ودفن ظهر يوم الخميس الخامس والعشرين من شعبان سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، وهو على أحكامه وإعزازه وإكرامه.

فمن شعر الأديب أبي الطيب أحمد بن الحسين بسندنا المتقدم إليه، رحمة الله علينا وعليه، فمن ذلكم في النسب:

متى طلعت تلك الأهله في الخمر	ونابت لنا العيون عن الخمر
ومن علم الأعجاز تستعجز النقا	وهذي الثنايا الزهر تسطو على الدر
شموس أبت إلا الشماس سجيبة	وأقمار حسن في الهوى قمرت صبري
تذكرت، والتذكار من مر الأسي	ليالينا بين الرصافة والجسر
ليالي لا دمعي يبدد بالنأي	ولا سنتي مما تروّع بالهجر

ومنها في صفة القصيدة:

ودونكمَا غرَاءَ قامت لخاطري
وإن لم تلمه حين قصر بالعدر
خَفَضْتُ بها الأشعارَ حتَّى كأنها
وإن رفعتني الآن من أحرف الجرِّ

قال ذو النسيين، رضي الله عنه: وذهذ الرائية من شعره عند العلماء بنقد الشعر وسره، أحسن من رائية علي بن الجهم التي أولها:

عيون المها بين الرُّصافة والجسر جَلَبْنُ الهوى من حيث أدري ولا أدري

ومن أسماء بقر الوحش: الأي مثل الفتي، والأنتى، لاة، مثل شاة، وتسمى المهاة أيضاً، والجمع: المها، والعيناء؛ والجمع: عين.

ومما يمازح برفته النسيم امتزاج الماء بالراح، ويدخل من أبواب خروق المسامع على القلوب بلا استئذان فترتاح به الأرواح، قول هذا الشاعر من أبيات:

خطرتُ على وادي العُذيب بأدمعي
فما جُرّته إلا وأكثره دُم
وقد شَرِبْتُ منه كرامُ جياندا
فكادت بأسرارِ الهوى تتكلم
سرى البرقُ من نَعمانِ يُخبرُ أنه
سيشقى بكم من كان بالأمس ينعم
رحلتُم، فهذا الليلُ فيكم فلم يعد
إلى سواه فيكم إذ رحلتُم
وما أنا صَبُّ النجومِ وإنما
تُخيلُ لي الآفاق أنكم هم

لقد أحسن ما شاء، غير أن قوله: "خطرت على وادي العذيب....." مأخوذ من قول الشاعر، وهو مهيار:

عَبَرْتُ على الوادي فحرّمت ماءه وكيف يحلّ الماءُ أكثره دم

عبرت: أي أسلت عبرتي فيه، فوري. والمحفوظ عند أهل اللغة: استعبر الرجل، إذا بكى، والذي رويناه في شعر مهيار "بكيت" والمليح البديع من هذه القطعة قوله:

سرى البرقُ من نَعمانِ يُخبرُ أنه سيشفى بكم من كان بالأمس ينعم

فيه من صنعة البديع المقابلة، وهي مقابلة "سيشفى" "بينعم". ومن مليحها قوله:

رحلتُم فذها الليلُ فيكم فلم يعد إلى سواه فيكم إذ رحلتُم

وهو من أبيات المعاني التي يسأل عنها، ويفهم معناه من قوله: "فلم يعد إلى سواه"، لأنه لا يعود سوى الليل الماضي، وهو الليل المستقبل، إلا بعد صبح يفصل بينهما، ولا فاصل عنده بعد فرقة أحبابه؛ لأن

الأيام جميعها عنده صارت مظلمة لبعده أحبائه؛ فما دامت الفرقة مستمرة، كانت الظلمة مستقرة.
ومن بدائع هذا الشاعر قوله:

سَلَّمَ إِذْ مَرَّ وَلِي هَمَّةٌ تَسْتَنْزِلُ الْأَقْمَارَ وَالْأَنْجَمَا
تَظْمَأُ وَلَا تَرُوي وَلَوْ أَنِّي أَلْتَمَتَهَا وَجَنَّتَهُ وَالْفَمَا
فَقَلْتُ لِلنَّفْسِ وَقَدْ أَرْمَعْتُ أَنْ تَرُدَّ السُّلُوانَ خَوْفَ الظُّمَا
هَذَا كَثِيرٌ فَأَشْكُرِي وَأَحْمَدِي فَكَيْفَ لَوْ مَرَّ وَمَا سَلَّمَا

قوله في البيت الأول: "سلم إذ مر"، ثم قوله في آخر البيات: "فكيف لو مر وما سلما" من الصنف المسمى في صناعة البديع بالتبديل. إلا أنه فرق بينهما في أبيات، وقد جمع ذلك بعض أهل مصره، من شعراء عصره، فقال:

أَصْبَحْتُ صَبَاً دَنَفَا مُغْرَمَا أَشْكُو جَوِي الْحَبِّ وَأَبْكِي دَمَا
هَذَا وَقَدْ سَلَّمَ إِذْ مَرَّ بِي فَكَيْفَ لَوْ مَرَّ وَمَا سَلَّمَا

ومن أفاضل شعراء المغرب المعروفين بالإجادة، الموصوفين بالإحسان والإفادة:

أبو عبد الله ابن قاضي ميله

اشعر من دب بميلة ودرج، ودخل بها وخرج. فمن رقيق شعره قوله:

قَلْتُ لِلْحَسَنَاءِ لِمَا أَبْصَرْتِ دَمْعَ عَيْنِي قَدْ جَرَى فِيمَا جَرَى
لَا تَظْنِي الدَّمْعَ مَا عَايَنْتِهِ أَنَا مَنْ يُهْدِي إِلَيْكَ الْخَبْرَا
جَالَ فِي خَدَيْكَ مِنْ مَاءِ الصَّبَى رَوْنَقٌ يَسْبِي سَنَاهَ الْبَشْرَا
تَأْخُذُ الْأَجْفَانُ مِنْهُ رِيهًا فَإِذَا جَاَزَ التَّنَاهِي قَطْرَا

ومن قوله:

رَحَلَ الرُّكْبُ وَالْمَشُوقُ مَقِيمٌ كَيْفَ يَسْرِي مَعَ الصَّحَّاحِ السَّقِيمِ
وَبَنَاتِكَ الْقَبَابِ رِيْمٌ تَوَلَّى وَضُلُوعِي كَهْفٌ لَهُ وَرَقِيمِ
أُمُّهُ الشَّمْسُ وَهُوَ أَعْجَبُ شَيْءٍ فَمَتَى أَنْتَجَّتَهُ وَهِيَ عَقِيمِ
أَقْعَدْتَنِي حَوَادِثُ الدَّهْرِ عَنْهُ هَكَذَا الدَّهْرُ مُقْعَدٌ وَمَقِيمِ

وله في حمامة فوق أيكة تصدح، في فحمة الليل والبرق يقدح:

ومُرْنَةٌ قَدَحَتْ زَنَادَ صَبَابَتِي والبرقُ يقدحُ في الظلامِ شرارُهُ
ورقاءُ تَأْرُقُ مُقْلَتِي لِبِكَائِهَا ليلاً إذا ما هَوَّمتُ سَمَّارَهُ
إِيهِ بَعِيثُكَ يَا حَمَامَةَ خَبْرِي كيف الكئيبُ ورَّندَهُ وعَرَّارَهُ
أُتْرَنَحَتْ بِجَوَانِحِي أَثْلَاثُهُ أم أَيْتَعَتْ بِمَدَامِعِي أَزْهَارَهُ

وله في المعاني:

ورقاءُ صَافِيَةٌ الجِناحُ تَسْتَرَّتْ عَنَّا بِغُصْنَيْ بَانَةٍ وَأَرَاكِ
غَنَّتْ فَأَذْكَرَتِ المَشُوقَ بَبْئِهَا وتمايلت فعل الصَّحِيحِ الشَّاكِي
وعَجِبْتُ مِنْ ضِدِّينَ فِي أوصافِهَا خَلَعَ الخَلِيعَ وَلِبِيسَةَ النُّسَّاكِ

وله في المعنى:

ومُرْنَةٌ وَالذَّجْنُ يَنْسُجُ فَوْقَهَا بُرْدِينَ مِنْ نَوءٍ وَطَلٌّ بَاكِ
مَالَتْ عَلَى طِيِّ الجِناحِ وَرَبِّمَا جَعَلَتْ أَرِيكَتَها قَضِيبَ أَرَاكِ

ومن نسج في الرقة على منواله، وضرب في بديع المعاني والألفاظ على مثاله:

محمد بن حبيب المهدي القلاتسي

فقال:

بدورٌ وجوهٍ في ليالي ذوائب لَعَبْنُ بَلْبِي بَيْنَ تَلْكَ المَلْعابِ
تَبْرَقَعْنَ مِنْ خَوْفِ العَيونِ وَإِنَّمَا طَلَّعْنَ شَموساً تَحْتَ غُرِّ السَّحَابِ
وَفَوْقَنْ مِنْ تَحْتَ أُسْهُمَا مِنْ اللِّحْظِ تَرْمِي عَنِ قَسِيِّ الحِوَالِبِ
ومن الموصوفين بجزالة الألفاظ ورقة المعاني:

يعمر بن ميمون الخولاني

فمن قوله:

نَبَّئْتُ أَنَّكَ مُولٍ لَا تَكَلِّمُنِي فَبِتُّ خَائِفَ هَجْرٍ مِنْكَ قَدْ حَدَّثَا
وَمَا يَفِي النَّذْرَ مِنْ آلِي بِمَعْصِيَةٍ هَذِي مَقَالَةٌ مِنْ بِالْحَقِّ قَدْ بُعِثَا

فأحنت فحنتك وصلّى وهو يعتقني

وإن تحرّجت من إثم وخفت له

قوله: "نبئت أنك مول": أخبرت أنك حالف. يقال آلي الرجل فهو مؤل إليه، بتشديد الياء. والآلية: اليمين، يقال: آليت واثلتيت وتآلتيت، آلية وألوة، بفتح الهمزة؛ وألوة، بضمها، وإلوة، بكسرها، كل ذلك لغات فيها. ولم يعرف الأصمعي، كسر الهمزة في أوله. وفي الصحيحين إن رسول الله صلى الله عليه وسلم آلي من نسائه شهراً.

وقوله:

وما يفِي النذر من آلي بمعصية

هذي مقالة من بالحق قد بعنا

صدق وبر، ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه". وملح بقوله: "فأحنت فحنتك وصلّى"، وبالبيت الذي بعده وكأنهما ينظران إلى البيت الذي أنشده أبو الفرج الأصبهاني في كتب الأغاني له:

إذا قبل الإنسان آخر تُشتهي

ثنائاه لم يَأتمَّ وكان له أجرُ

ومن مجيد شعراء المغرب:

محمد بن زكريا القلعي

له من قصيدة يمدح بها بعض المغرب، وكأتما عني بمعانيها مولانا السلطان الملك الكامل، وأشار بأنامل بديع ألفاظها إليه، لا برحت محاسن المحامد مصروفة له، وموقوفة عليه:

وقادَ الجيادَ الأعوجياتِ دونها

عوابسُ تطفو في العجاج وترسبُ

عساكرُ مثل الطّرفِ إن خفن ضلّة

أضاء لها ليل الحديدِ المذوّب

يمرُّ نهأه بالشكوكِ فتنجلي

ويجري نداءه في الأجاج فيعذب

وكأتما عناه أيضاً هذا الشاعر بقوله:

ملك إذا طلب الغمامُ بفوق ما

في وسعته فعلى نداءه يُحيل

زجرت مواهبه المساغب أن ترى

ولها بساحة مُجتدية حلول

ومن شعراء:

صقلية

وهي بفتح الصاد والقاف، قاله النحوي أبو بكر محمد بن علي بن الحسن بن البر التميمي، هكذا عربتها العرب. واسمها بالسان الرومي "سيكة" بكسر السين وفتح الكاف وسكون الهاء، و"كيليه" بكسر الكاف واللام، وتشديد الياء وسكون الهاء، وتفسيرها: تين وزيتون. وإلى هذا المعنى أشار الأديب البارع، أبو علي حسن بن رشيقي، حين مدح صقلية بقوله:

فيه سواها من البلدان فالتمس
قلد إذا شئت أهل العلم أو فقس

أخت المدينة في اسم لا يشاركها
وعظم الله معنى لفظها قسماً

قوله في هذا البيت:

وعظم الله معنى لفظها قسماً

يريد قول الله جل جلاله "والتين والزيتون" قال مجاهد في صحيح البخاري: هو التين والزيتون الذي يأكل الناس.

وقال الحسن: هو التين الذي يؤكل، ولزيتون الذي يعصر. وبه قال عكرمة. وقال آخرون: التين: مسجد دمشق، الزيتون: بيت المقدس، قاله كعب وقتادة وابن زيد وعكرمة أيضاً. وصقلية: جزيرة كبيرة طولها مسيرة أيام، وعرضها مسيرة خمسة أيام. وهذا الاسم لأحد مدنها. فنسبت الجزيرة كلها إليها. وفيها مدن كثيرة وقلاع شهيرة، وهي في البحر الشامي، موازية لبعض بلاد إفريقية، بينهما يوم وليلة. افتتحت في سنة اثني عشرة ومائتين، ثم إن الله تعالى صرفها إلى النصارى. فكان أول افتتاح كان فيها لهم في سنة خمس وخمسين وأربعمائة، إلى أن خلصت الجزيرة كلاه لهم في سنة خمس وثمانين وأربعمائة. فمن شعرائها:

أبو محمد ابن حمديس

عبد الجبار بن أبي بكر محمد بن حمديس

شاعر جيد السبك، مليح الاستعارة، حسن الأخذ، لطيف التناول، رقيق حواشي المعاني، عذب اللفظ. دخل الأندلس وافداً على المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد ياشبيلية فمدحه بأشعاره البديعة، وعبر عن الأدب بأنفاسه النفيسة الرفيعة. فما يجري من قوله رقة مع الماء، ويكاد يمتزج بالهواء، ويأخذ بمجامع الأهواء، قوله من قصيدة:

وقد نعي الليلَ بشيرُ الصبّاحِ

قُمْ هالكها من كفِّ ذاتِ الوشاحِ

وباكِر اللذات واركبُ لها

سوابق اللّهُ ذواتِ المِراحِ
ريقَ الغوادي من تُغور الأَقاحِ

من قَبْلِ أن تَرشُف شمسُ الضحَى

أنظر من أحسن هذه الاستعارة، وأحلى هذه العبارة.

وله قصيدة أخرى في الوزن على الرّويّ أولها:

مرحباً بالشمس من غير صباح

طَرَقَتْ وَاللَّيْلُ مَمْدُودُ الْجَنَاحِ

أتى فيها بكل معنى مبتكر بديع، معدود من الطراز الأول الرفيع.

ومما أخذه فملكه فأسترقه، واستوجهه بزيادته فيه على مبتكره واستحقه، قوله في وصف فرس سابق:

تري اليوم أشباحاً تمرُّ به غداً

كَأَنَّ لَهُ فِي الْأَذْنِ عَيْنًا بَصِيرَةً

ولو مرَّ في آثارهنَّ مَقِيداً

يَقِيدُ بِالسَّبْقِ الْأَوَابِدَ فَوْقَهُ

أخذه من قول امرئ القيس بن حجر، وهو أول من قصد القصائد، وقيد الأوابد، فقال في لاميته المعلقة:

بمنجِردٍ قِيدِ الْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَقَدْ اغْتَدَى وَالطَّيْرُ فِي وَكِنَاتِهَا

وزيادة عبد الجبار عليه قوله:

ومر في آثارهن مقيدا

وتصدير هذا العجز بقوله: "أقيد بالسبق" مليح جدا.

ومن مليح أخذه المستحسن قوله من أخرى.

يَشْدُوهُمْ فِي الْهُوَادِي كَلِمَا اقْتَحَمُوا

لَهُمْ رِيَاضٌ حُتُوفٌ فَالذُّبَابُ بِهَا

وهي الذُّكُورُ الَّتِي افْتَضَّتْ بِهَا الْقَمَمُ

بِيضٌ يَضَعْنَ الْمَنَايَا السُّودَ صَارِخَةً

أخذه من قول أبي نصر عبد العزيز بن نباته السعدي:

تَلْدُ الْمَنَايَا السُّودَ وَهِيَ ذُكُورٌ

وَمِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ بِيضَ سَيُوفِهِ

إلا أنه زاد عليه، وبعد ما ساواه في المقابلة، بذكر البيض والسود. وذكر الذكورية مع ذكر الوضع الذي

ذكره في موضع "تلد" بقوله: "صارخة"، إذ من شأن المولود أن يستهل صارخا عند الوضع. وكذلك

الواضعة تصرخ أيضاً حالة الطلق، فتمم بهذه الزيادة قوله: "يضعن المنايا السود".

كما زاد عند ذكر الذكور، وتمم المعنى بقوله: "افتضت بها القمم"، فجعل سيلان دماء القمم بذكور

الصوارم كسيلان دماء العذارى لدى افتضاض ذكور الرجال لها، وهذا من سر الشعر المخزون، وعلمه المكنون. وفي البيت الذي وطأ به نوع من أنواع البديع يسمى التويرة، وهو قوله:

لهم رياضٌ حثتوفٌ فالذبابُ بها يَشْدُوهم في الهوادي كلما اقتحموا

الذباب، من الحيوان معروف؛ والذباب: ذباب السيوف. الشدو: الغناء. فشبهه طنين الذباب في الهوادي، وهي الأعناق، بترنم الذباب. واستعار الرياض للحثوف لتوطئة لشدو الذباب؛ لأن الرياض الملتفة الأسجار، موضع ترنم سواجع الأطيبار.

وملاحظة أمثال هذه المقاصد من مقاصد فحول الشعراء، مما يعين الشادي في الأدب المحاول انظم الشعر، على نظم جيده.

وأذكرني بيت نباتة قول ابن الرومي، وهو من أحسن ما سمعت في معناه:

ومن عجبٍ أن السيوفُ لديهمُ تحيضُ دماءً والسيوفُ ذكورُ
وأعجبُ من ذا أنها في أكفهم تأججُ ناراً والأكفُ بحورُ

ومن شعراء المغرب الأوسط، وأهل التصنيف والإتقان والضبط، الشاعر الرقيق، العربي الأزدي العريق:

أبو علي حسن بن رشيق

وكان رجلاً تلعبه، كثير الدعابة، غير أنه لم يذمه أحد بذلك ولا عابة، كتب إلى بعض الرؤساء:

إني لقيتُ مشقةً فابعتُ إلى بشقةً
كمثل وجهك حسناً ومثل ديني رقةً

فقل له الرئيس: أما مثل دينك رقة، فلا يوجد إلا بوزن أمثال رمال الرقة؛ ثم استحسن في هذه المداعبة أدبه، ففضى أربه.

فمن قوله يمدح السلطان أبو يحيى تميم بن المغرب:

أصحُّ وأقوى ما رويناها في الندى من الخبرِ المأثور منذُ قديمِ
أحاديثُ تملئها السيولُ عن الحيا عن البحرِ عن جودِ الأميرِ تميمِ

وله أيضاً:

لو أوركنتُ من دم الأبطال سُمراً قناً لأوركنتُ عنده سُمراً القنا الذُبُلِ
إذا توجهَّ في أولى كتائبه لم تفرقِ العينُ بين السهلِ والجبلِ

فالجيش يَنْفُضُ حَوْلِيَه أَسْنَتَه

نَفْضَ الْعُقَابِ جَنَاحِيهَا مِنَ الْبَلَلِ

وهذا البيت من غرر قلائده، وهو مع ذلك ملتقط من قول المتنبي:

يَهْزُ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبِيَه

كَمَا نَفَضْتَ جَنَاحِيهَا الْعُقَابُ

ومن قول أبي صخر الهذلي:

وَإِنِّي لَتَعْرُونِي لَذَكَرَاكَ هِرَّةٌ

كَمَا انْتَفَضَ الْعُصْفُورُ بَلَلَةَ الْقَطْرِ

ومعنى الالتقاط، ويسمى أيضاً بالتلفيق والترتيب، أن ينشر الشاعر المعاني المتقاربة، ويستخرج منها معنى مولداً يكون فيه كالمخترع، وينظر به إلى جميع تلك المعاني، فيقوم وحده مقام جماعة من الشعراء، وهو مما يدل على حذق الشاعر وفطنته. ومن أحذق من فعل ذلك المتنبي والمعري. ولا بن رشيق أيضاً:

وَمِنْ حَسَنَاتِ الدَّهْرِ عِنْدِي لَيْلَةٌ

مِنَ الْعُمُرِ لَمْ تَتْرُكْ لِأَيَّامِنَا ذَنْبًا

خَلَوْنَا بِهَا نَنْفِي الْكُرَى عَن جُفُونِنَا

بَلُؤْلُؤَةٍ مَمْلُوءَةٍ ذَهَابًا سَكْبًا

وَمَلْنَا لَتَقْبِيلِ الْخُدُودِ وَلَثْمَهَا

مَمِيلِ جِيَاعِ الطَّيْرِ تَلْتَقُطُ الْحَبًّا

وقال أبو الحسن عبد الكريم بن فضال الحلواني في ابتداء قصيدة فريدة:

عَرَسَا بِي فَذَا مُنَاحٌ كَرِيمٌ

هَذِهِ جُمَّةٌ وَهَذَا تَمِيمٌ

هَذِهِ الْجَنَّةُ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ وَهَذَا صِرَاطُهُ الْمُسْتَقِيمُ

وكان المعز ملك صنعهاجه، لم يقصده ذو حاجة إلا وقضى حاجه، وعجل بذلك سروره وابتهاجه. وإنما خلع المستنصر وأزال عنه الخلافة، وأظهر معاندته وخلافه، بعد أن كان يظهر له ولأبيه الظاهر الطاعة، ويبدل لهم الاستطاعة، أن الجرجائي الوزير، أساء معه التدبير. وأحفظه بأشياء بلغت عنه، وعقارب مكابدت إليه من مصر منه. وقال من له الإجادة والإحسان:

جِرَاحُ السَّيْفِ تُوْلِمُ ثُمَّ تَبْرَأُ

وَلَا بَرءٌ لِمَا جَرَحَ اللِّسَانُ

وإلا فملك صنعهاجه قديم، وشرفهم صميم، وذلك أن إفريقيس بن أبرهة ذي المنار بن الحرث الرائش بن شداد- ويقال: شدد بن الملطاط- ابن عمرو ذي أئين بن ذي يقدم بن الصوار بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان ابن قطن بن عريب بن زهير بن الغوث بن أيمن بن الهمسيق بن حمير، خرج غازيا نحو المغرب في أرض البربر، حتى انتهى إلى طنجة، ونقل البربر من أرض فلسطين ومصر والساحل إلى

مساكنهم اليوم، وخلف مع البربر من خلف من حمير اليمن، مثل صنهاجة وكتامة. هذا قول ابن الكلبي، وبه قال أبو عبيد القاسم بن سلام وأبو محمد بن يعقوب الهمداني، من ولد همدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة بن الحيار بن مالك بن زيد بن كهلان ابن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقد ذكر نسبه متصلاً إلى همدان في كتاب الإكليل المؤلف في أنساب حمير وأيام ملوكها. وهو كتاب عظيم الفائدة. قال الهمداني: ثم تقدم في المغرب، حتى بني مدينة إفريقية، وهي مشتقة من اسمه، وخلف في البربر قواماً من حمير، ليردوهم على شاكلتهم القديمة، ويأخذوا إتاوتهم، ويدبروا أمورهم، فهم إلى اليوم على ذلك. ومنهم اليوم بالمغرب كتامه، ولواته، وصنهاجة، وهم الغالبون على المغرب اليوم. حدثني بهذا الكلام نحو من عشرين شيخاً - منهم الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن عميرة، والمحدث أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبيد الله الحجري بفتح الحاء وسكون الجيم، من حجر بن ذي رعين - قالوا: حدثنا نسابه الأندلس الفقيه أبو محمد عبد اله بن علي اللخمي المعروف بالرشاطي. ونقلته من أصله وكتابه الذي سماه ب "اقتباس الأنوار، والتماس الأزهار، في أنساب الصحابة ورواة الآثار"؛ إلا ما فيه من نسب همدان، فإنني نقلته من غيره.

قال الرشاطي: فشرف صنهاجة أصيل، ومجدهم أثيل ورياستهم قديمة، ونسبتهم إلى حمير معلومة. قال ذو النسيب، رضي الله عنه: ووقاء السلطان تميم مشهور، وعلم ذكره بذلك منشور. حدثنا غير واحد من شيوخنا، رحمهم الله، ومنهم الفقيه المحدث المفيد المقرئ اللغوي النحوي أبو بكر محمد بن خير، بمسجده بإشبيلية سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، قال: حدثنا الفقيه القاضي المقرئ الخطيب أبو الحسن شريح ابن محمد بن شريح، قال: أنبأنا حافظ الأندلس الفقيه العالم أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم في كتابه إلبنا، قال: حدثنا أبو البركات محمد بن عبد الواحد الزبيدي من ولد عبد الله بن الزبير، قال: حدثنا أبو علي حسين بن الأشكري المصري، قال: كنت من جلاس تميم بن أبي تميم، وممن يخف عليه جداً، قال: فأرسل إلى بغداد، فاتبعت له جارية رائعة فائقة الغناء، فلما وصلت إليه دعا جلساءه، قال: فكنيت فيهم، ثم مدت الستارة، وأمرها بالغناء، فغنت:

برق تَأَلَّقَ مَوْهِنًا لِمَعَانِهِ

وَبَدَا لَهُ مِنْ بَعْدِ مَا أَنْدَمَلَ الْهَوَى

صَعْبُ الذُّرَى مَمْتَنِّعٌ أَرْكَانُهُ

يَبْدُو كَحَاشِيَةِ الرِّدَاءِ وَدُونَهُ

وَالْمَاءُ مَا سَمَحَتْ أَجْفَانُهُ

فَالنَّارُ مَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُلُوعُهُ

قال: فأحسنت ما شاءت. فطرب تميم وكل من حضر، ثم غنت:

أَوَائِلُهُ مَحْمُودَةٌ وَأَوَاخِرُهُ

سَتُسَلِّيكِ عَمَّا فَاتَ دَوْلَةٌ مَفْضِلِ

على البرِّ مُذْ شُدَّتْ عليه مآزرُهُ

ثنَى الله عِطْفَه وَأَلْفَ شَخْصَه

قال فطرب تميم ومن حضر طربا شديدا، قال: ثم غنت:

بالكَرْخِ من فَلكِ الأزرارِ مَطْلَعُهُ

أَسْتودِعُ اللهَ في بَغدادَ لي قَمراً

قال: فاشتد طرب تميم، وأفرط جدا ثم قال لها: تمنى ما شئت فلك مناك. فقالت: أتمنى عافية الأمير وسعادته. فقال: والله لا بد لك أن تتمنى. فقالت: على الوفاء أيها الأمير بما أتمنى؟ فقال: نعم. فقال: أتمنى أن أعني بهذه النوبة ببغداد. قال: فانتقع لون تميم وتغير وجهه، وتكدر المجلس، قام وقمنا. قال ابن الأشكري: فلحقني بعض خدمه وقال لي: ارجع، فالأمير يدعوك. أ رأيت ما امتحنا به؟ فقلت: نعم أيها الأمير. فقال: لا بد من الوفاء لها، وما أثق في هذا بغيرك، فتأهب لتحملها إلى بغداد، فإذا غنت هناك، فاصرفها. فقلت: سمعا وطاعة. ثم قمت وتأهب، وأمرها بالتأهب، وأصحابها جارية له سوداء تعادها وتخدمها، وأمر بناقة وبجمل "عليه هودج" فأدخلت فيه، وجعلها معي، وصرت إلى مكة مع القافلة، فقضينا حجنا، ثم دخلنا في قافلة العراق وسرنا. فلما وردنا القادسية، أتتني السوداء عنها فقالت: تقول لك سيدتي: أين نحن؟ فقلت لها: نحن نزول بالقادسية. فانصرفت إليها وأخبرتها، فلم أنسب أن سمعت صوتها وقد ارتفع بالغناء:

لما وردنا القادسيَّةَ حيثُ مجتمَعُ الرِّفاقِ

زِ نَسيمِ أنفاسِ العِراقِ

وشِمتُ من أرضِ الحِجاءِ

أيقنْتُ لي ولمن أحبُّ بجمعِ شملٍ واتِّفاقِ

ء كما بكيتُ من الفِراقِ

وضحكتُ من فرحِ اللِّقا

فتصايح الناس من أقطار القافلة: أعيدي بالله! أعيدي بالله! قال: فما سمع لها كلمة. ثم نزلنا الياسرية، وبينها وبين بغداد نحو خمسة أميال في بساتين متصله يتزل الناس بها، فيبيتون ليلتهم ثم ييكرن لدخول بغداد فلما كان قرب الصباح، إذا بالسوداء قد أتتني مذعورة، فقلت: مالك؟ فقالت: إن سيدتي ليست بحاضرة. فقلت: ويلك! وأين هي؟ قالت: والله ما أدري! قال: فلم أحس لها أثراً بعد. ودخلت بغداد، وقضيت حوائجي بها، وانصرفت إلي تميم فأخبرته خبرها. فعظم ذلك عليه، واغتم له غما شديدا، ثم ما زال بعد ذلك ذاكرة لها، واجماً عليها.

قال ذو النسيبن، رضي الله عنه. وقد ذكر هذه الحكاية الشيخ الجليل الإمام العالم أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي في جذوة المقتبس في تاريخ الأندلس قال: حدثني أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم

بن غالب الفارسي الفقيه، وأملاه علي بالأندلس، فذكر ما ذكرناه حرفاً بحرف .
قال ذو النسيب رضي الله عنه: قرأت في كتاب الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين العبشمي الأصبهاني،
أن هذا الشعر الذي فيه الغناء للشريف أبي عبد الله محمد بن صالح الحسيني، وأوله:

طربَ الفؤادُ وعاودتْ أحزانه
وتفرقتْ بزمانه أشجانه

وبداله...

وأمر بعض الملوك ابن رشيق بركوب البحر، فخاطبه بهذا الشعر:

أمرتني بركوب البحر في عَجَلِغِيرِي فديتُك فأخصُصُه بذَا الرَاءِ
ما أنتَ نوحٌ فنتجيني سفينته
ولا المسيحُ أنا أمشي على الماءِ
ومنهم زين الزمان، وفخر المكان، العالم:

أبو عبد الله الجذامي

بن أبي سعيد بن شرف الجذامي

من ولد جذام بن عدي بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب ابن عريب بن زيد بن كهلان بن
سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. كذا نسبه أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي.
ولابن شرف مصنفات عديدة، وأوضاع مفيدة، منها: أبتكار الأفكار، في سفرين، اختراع كله في الحكم
والأمثال؛ والنظم والنثر؛ وكتابه المسمى بأعلام الكلام، مخترع أيضاً. وكتابه المسمى بلمح الملح؛ إلى غير
ذلك.

حدثني بها جماعة لا أحصيهم كثرة، منهم: الوزير الفقيه المقرئ المحدث الشاعر اللغوي النحوي، المهندس
الطبيب، واحد عصره، وفريد دهره، أبو بكر محم

ابن الطفيل القيسي، عن ولده العالم الرباني روضة العلم الأنف أبي الفضل جعفر بن محمد بن شرف،
صاحب الأوضاع في جميع الأنواع؛ ومنها: كتاب الزمان. عارض به "كتاب كليلة ودمنة"؛ وكتابه عقيل
وعليم"؛ وكتابه في النحو، على طريق "البرهان"؛ وكتابه في العروض، كشف بع عن دقائق لم يسبق إليها
العروضيون. ومن النوادر جدا جدول جعله صفحة واحدة، كأنه صفحة من الزيج، يتضمن استخراج ما
سئل عنه من أبيات الأعراب كلها، سهلة كانت أو صعبة ومنها: رسالته في اللعب باللعبة التي تسمى
"فريسيا" أي ملكة اللعب، يلعب بها كما يلعب بالشطرنج، وهي من غرائب الدهر؛ إلى غير ذلك من
علمه المشهور، عند الخاصة والجمهور.

وبسندنا إلى أبي عبد الله محمد بن شرف قال: أكثر ما يكون توارد الخواطر ووقوع الاتفاق وما يقاربه، إذا طلب الشاعران أو الناثران معنى واحدا في قافية واحدة أو سجع واحد: أمرني السلطان المعز بن باديس وأمر الحسن بن رشيق في وقت واحد أن نعمل شعرا في "الموز" على قافية الغين، فصنعنا للوقت، ولم يقف أحدنا على صنعة الآخر، فقلت:

يا حبذا الموزُ وإِسعادُه
لأنَّ إلى أن لا مَجَسَّ له
سيان قُلنا مأكُلٌ طيِّبٌ
من قبل أن يَمضُغَه الماضِغُ
فالفمُ ملآنٌ به فارغُ
فيه وإلا مشربٌ سائِغُ

وقال ابن رشيق:

موزٌ سريعٌ سوغُه
مأكَلُه لآكل
فالفمُ من لِينِ به
من قبل مضغِ الماضِغِ
ومشربٌ لسائِغِ
ملآنٌ مثلُ فارغِ

قال ابن شرف: واستحلانا المعز يوما وقال لنا: أحب أن تصنعا لي شعرا تمدحان فيه الشعر الرقيق الخفيف، ربما كان في ساقى بعض النساء، فأني أستحسنه، وقد عاب بعض الضرائر بعض من هذا فيه، وكلهن قارئات كاتبات، فأحب أن أريهن هذا، وأدعى لهن أنه قدس، لأحتج به على من عابه، وأسر به من عيب عليه. فأنفرد كل منا. وأتمنا الشعرين في الوقت.

فكان الذي صنعه أنا:

وبلقيسة زينتُ بشعرٍ
دقيقٍ في خدَجَةٍ رَداحِ
حكى زغَبَ الخُدودِ وكلُّ خَدِّ
فإن يكُ صرَحُ بلقيسِ زُجاجا
يَسِيرِ مثلِ ما يهَبُ الشَّيحُ
خفيفٍ مثلِ جسمٍ فيه رُوحِ
به زغَبٌ فمِعشوقٌ مَليحِ
فمن حدَّقَ العيون لها صُروحِ

وصنع ابن رشيق:

يعبُونَ بِلُقَيْسيَّةٍ إذ رَأوا لَهَا
وقد زادها التَّرغيبُ مِلحا كمثل ما
كما قد رأى من تلكَ من نَصَبِ الصَّرْحَا
يزيدُ خدودَ المُردِ تَرَغيبُها مِلحا

فعاب السلطان على ابن رشيق قوله "يعيون بلقيسة وقال له: قد أوجدت لخصمها حجة بأن بعض الناس قد غاب هذا. وهذا نقد ما كنت فطنت له.

فهذه المقطعات التي أوردت حديثها، واستطردت باتفاقها، لو رآها من عسى أن يراها وهو لا يعلم ما جرى، لم يشك أن أحد قائلها سرق من الآخر، وكم من مظلوم برئ، نسب باتفاق خاطره وخاطر غيره إلى التلصص والإغارة، نحو ما ألفه ابن وكيع عن المتني في كتابه الذي سما المنصف، وهو فيه جور من قاضي سدوم.

فمن شعر ابن شرف ما أنشدنا غير واحد، عن ولده عنه، وشعره في خمس مجلدات:

شتان في النطقين ما بيننا وبيننا في المتظيرين اشتباه
يا عجباً من حُرقات الهوى تصعدُ نيرانا وتجري مياه
وأنشدونا له في عدو قينة:

سقي الله أرضاً أنبتت عُودك الذي زكَّتْ منه أعراقٌ وطابت مَعَارِسُ
تغني عليه الطيرُ والعودُ أخضرٌ وغنَّتْ عليه الغيدُ والعودُ يابس
وقال في مثله:

يا عودُ من أية الأشجارِ أنت فلا جفاً تراها ولا أغصانها الماءُ
غني القيانُ عليها وهي يابسةٌ بعدَ الحَمَامِ زماناً وهي خضراءُ
وقال في اجتماع البعوض والذباب والبراغيث في مجلس، مخاطب لصاحبه يستهزئ به:

لك مجلسٌ كملت بشارتنا به للهو لكن تحتَ ذاك حديثُ
غني الذباب وظل يزمرُ حوله فيه البعوضُ ويرقصُ البرغوثُ
وأنشدونا أيضاً له:

إن تلقك الغربة في معشرٍ تطابقوا فيك على بُغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم
وله:

صنمٌ من الكافور بات مُعانقي في حلتين تعفُّ وتكرم
فكرتُ ليلةً وصله في صدّه فجرتُ سوابقُ أدمعي كالعندم
فطفقتُ أمسحُ مقلتي في نحرها إذ عادةُ الكافور إمساكُ الدَّم
وهذا شعر وطب.

وأنشدونا لابنه أبي الفضل:

وعصرُكُ مثلُ زَمَانِ الرَّبِيعِ لَا تَهْجُرُ الشَّمْسُ فِيهِ الحَمْلُ

وسارت أيديك سبَّير المثل

تسامتُ علَّاكُ سُمُو النجوم

وقال من أبيات:

ألمُ الجراحة بالدم المحصور

ألمي لفقد الدم بعد فراقهم

ومنهم:

المرواني الطليق

شاعر رائق الألفاظ، رقيق المعاني، يجاري ويباري في الخمریات الحسن بن هانئ. فمن خمریات الی یغنی
بها قوله من أبيات:

ثوبُ نورٍ من سناها یَقَقَا

رب كأسٍ قد كست شخصَ الدُّجَى

سِنَّةٌ تُورِثُ عیني أرقَا

ظَلَّتْ أُسْقِيها رَشًا في طَرَفه

كشُّعاع الشمسِ وأفي الفلقَا

برَزَّتْ في ناصعٍ من كَفِّه

ويذُ السَّاقِي المحيِّي مَشْرِقا

أصبحتُ شمسًا وفُوهُ مغربًا

أطلعتُ في الخدِّ منه شَفَقَا

فإذا ما غربت في فَمِه

أنظر ما أغرب استعارته "المغرب" لفيه، وما أبدع قوله:

أطلعت في الخد منه شفقًا

في التشبيه. وأما جمعه في "الفم" بين هاء الضمير والميم، فليصح في الوزن المستقيم. قال النحويون: والفم،
إذا أفرد كان بالميم، فإن أضفته ل تجمع بين الميم والإضافة. تقول: هذا فوك، ولا يحسن: فمك إلا في
الشعر، قال الشاعر:

يُصبح عطشان وفي الماء فمه

كالحوت لا يرويه شيء يلهمه

اللهم: شدة الابتلاع - ولا يجوز تشديد هذه الميم بحال في الكلام، وقد جاء فليلا في الشعر، قال الراجز:
وأسطمة النسب، وأطمسته، على القلب: وسطه ومجتمعه فأتى في هذا البيت الماء مع الميم المشددة.
وأنشدني سيدي أبي رضي اله عنه، قال: أنشدنا الفقيه الفاضل أبو القاسم عبد الرحمن بن الوزير أبي علي
كاتب مؤنس، قال أنشدني أبي:

وداستني الليلي أي دؤس

تقوس بعد طول العمر ظهري

فَأَمْشَى وَالْعَصَا تَمْشِي أَمَامِي

كَأَنَّ قَوَامَهَا وَتُرِّ لِقَوْسٍ

وأنشدني غير واحد من شيوخ الأفارقة، للأديب الماهر أبي الحسن علي بن حبيب يصف بحر سفاقس في
مدته وجزره، وقد دخلتها فرأيت معنى ما قال في شعره:

سَقِيًّا لِأَرْضِ سَفَاقْسٍ

ذَاتِ الْمَصَانِعِ وَالْمُصَلَّى

بَلَدٍ يَكَادُ يَقُولُ حِينَ تَزُورُهُ أَهْلًا وَسَهْلًا

وَكَأَنَّهُ وَالْبَحْرُ بَيْنَ

ضَبِّ تَارَةٍ عَنْهُ وَيُمْلَأُ

صَبِّ يَرِيدُ زِيَارَةَ

فَإِذَا رَأَى الرَّقَبَاءَ وَلَّى

وأنشدني شيخ الإِتقان، وواحد أسانيد الفرقان، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن، سبط الأستاذ أبي محمد
المعزول، قال: أنشدنا الأستاذ المقرئ أبو داود، قال: أنشدنا الأستاذ المقرئ اللغوي النحوي الشاعر أبو
الحسن علي بن عبد الغني الحصري:

يَا نَائِرًا دُرَّ عَيْنِي بِلِ عَقِيقَ دَمِي

مَا بَالِ طَرْفِكَ دُونِي صَحَّ بِالسَّقَمِ

وَمَا لِنَفَاحَتِي خَدَّيْكَ أُبْنِعَتَا

فَأَفْطَرْتُ مِنْهُمَا عَيْنِي وَصَامَ فَمِي

وقال في غلام اسمه هارون:

يَا غَزَالَ فُتْنِ النَّاسِ بَعِينِيهِ فُتُونَا

صَحَّفُوا تَاعَكَ نُونَا

أَنْتَ هَارُوتُ وَلَكِنْ

وأنشدونا أيضاً للأديب أبي الفتح عبد العزيز بن جعفر العذري:

نَظَرَ النَّاسُ إِلَى حَسَنِ الَّذِي أَهْوَى وَحَزَنِي

وَرَأُوا يَعْقُوبَ مَنِّي

فَرَأُوا يَوْسُفَ مِنْهُ

وأنشدونا للشاعر المصيب أبي الحسن عبد الكريم بن فضال:

وَلَمَّا تَدَانُوا لِلرَّحِيلِ وَقُرْبَتِ

عِتَاقُ الْمَطَايَا وَالرِّكَابِ تَسِيرُ

وَضَعْتُ عَلَيَّ قَلْبِي يَدِيَّ مُبَادِرَا

فَقَلُّوا مَحَبًّا لِلْعِنَاقِ يُشِيرُ

فَقَلْتُ وَمَنْ لِي بِالْعِنَاقِ وَإِنَّمَا

تَدَارَكْتُ قَلْبِي حِينَ كَادَ يَطِيرُ

وقال أبو زيد بن العمة في الشطرنج:

هَلُمَّ إِلَى تَدْبِيرِ جَيْشِينَ جُمْعَا

رِخَاخٍ وَأَفْيَالٍ وَجُرْدُ سَوَابِحُ

تَكْبُرْنَ عَنْ حَمْلِ السَّلَاحِ إِلَى الْوَعَى

فَأَرْمَاحُهَا أَلْبَابُنَا وَالْقَوَائِحُ

وأنشدني غير واحد، قالوا أنشدنا: الوزير أبو بكر محمد بن محمد بن القصيرة من أبيات، يهنئ فيها بمولود:

لم يستهَلَّ بَكَاً وَلَكِنْ مُنْكَرًا أَنْ لَمْ تُعَدُّ لَهُ الدُّرُوعُ لَفَائِفًا

ومن أبدع ما قيل في هذا المعنى قول الأديب أبي بكر محمد بن أحمد بن محمد الأنصاري الإشبيلي المعروف بالأبيض، وكان من فحول شعراء المغرب المذكورين بالسبق في الشعر والأدب، ومات بعد خمس وعشرين وخمسمائة:

أَصَاخَتِ الخَيْلُ آذَانًا لَصْرَخَتِهِ وَأَهْتَزَّ كُلُّ هَزْبٍ عِنْدَ مَا عَطَسَا
تَعَشَّقُ الدَّرْعَ مَدْ شَدَّتْ لِفَائِفِهِ وَأَبْغَضَ المَهْدَ لَمَّا أَبْصَرَ الفِرْسَا
تَعَلَّمَ الرِّكْضَ أَيَّامَ المَخَاضِ بِهِ فَمَا امْتَطَى الخَيْلَ إِلَّا وَهُوَ قَدْ فَرَسَا

وأنشدونا لابن فتوح:

ومُدَامَةٌ صَفْرَاءٌ عَلَّلَنِي بِهَا قَمْرٌ كغصن البان في حركاته
صَفْرَاءٌ تَغْرِبُ إِنْ بَدَّتْ مِنْ كَفِّهِ فِي فِيهِ ثُمَّ تَلُوحُ مِنْ وَجَنَاتِهِ

وأنشدني الفقيه القاضي المحدث النحوي أبو محمد عبد المنعم بن محمد ابن عيد الرحيم الخزرجي بمدينة غرناطة، قال: أنشدني الوزير الكاتب أبو عامر محمد بن أحمد بن عمر السالمي - صاحب كتاب الجمان، ونتائج الزمان، في ذكر الشعراء الأعلام، في الجاهلية والإسلام. ومؤلف درر القلائد، وغرر الفوائد. ومؤلف بستان الأنفس، في نظم أعياد الأندلس - لأبي الحسن بن مظفر، من اله مدينة ذاتية، في غلام رآه في الحمام يضرب بالماء وجهه:

لَقَدْ نَعِمْتُ بِحَمَامٍ تَطَلَّعَ فِي أَرْجَائِهِ قَمْرٌ وَالْحُسْنُ يُكْمَلُهُ
أَبْصَرْتُهُ كَلَّمَا رَأَيْتُ مَحَاسِنُهُ وَنَعْمَةُ الجِسْمِ الأَرْدَافِ تُحْجِلُهُ
يَرِشُ بِالمَاءِ خَدَّيْهِ فَقَلَّتْ لَهُ صِفٌ لِي كَذَا أَحْمَرَ اليَاقُوتِ تَصَقُّلُهُ

قال وأنشدني للأديب الأوحدي أبي محمد بن عبد الله بن سارة الشنتريني:

أَعْنَدُكَ أَنْ البَدْرَ بَاتَ ضَجِيعِي فَقَضَيْتُ أوطاري بغير شفيع
جَعَلْتُ ابْنَةَ العُنُقُودِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فَكَانَتْ لَنَا أُمَّاً وَكَانَ رَضِيعِي

قال ذو النسيين، رضي الله عنه: أبو محمد بن سارة هذا، أدبه موفور، وشعره مشهور، لقيت جماعة من أصحابه. ومات، رحمه الله، سنة سبع عشرة وخمسمائة، وانتقل من بلده شنترين إلى مدينة إشبيلية، وهو

أوحش حالاً من الليل، وأكثر انفراداً من سهيل؛ فانتجع الوراقه على كساد سوقها، وفساد طريقها.
فتركها وأنشد فيها:

أما الوراقه فهي أنكدُ حرفة
أغصانها وثمارها الحرمانُ
شبهتُ صاحبها بإبرة خائطٍ
تكسو العراة وجسمها عريان

وأنشدني الفقيه القاضي أبو محمد عبد المنعم الخرجي قال: أنشدني الوزير أبو عامر السالمي لنفسه - ونقلته
من خطه - في حال خد:

أوقد النارَ بقلبي
ثم هبت ریحُ صدّه
فشرارُ النارِ طارت
فانطفت في ماءِ خده

قال: وأنشدني أيضاً أبو عامر لنفسه في وصف النارج:

أنظر إلى زهر الرياض كأنه
ديباجة بسطت لقوم مجدٍ
وكأنما النارج في أغصانها
زهر الكواكب في سماء زبرجد

وأنشدني الفقيه المحدث المؤرخ الثقة القاضي أبو القاسم خلف بن عبد الملك ابن مسعود بن بشكوال
الأنصاري بمذلة بمدينة قرطبة، قال: حدثنا الثقة العدل أبو القاسم خلف بن محمد بن صواب اللخمي،
قال: أنشدنا المقرئ اللغوي النحوي الأديب أبو الحسن علي بن عبد الغني الفهري الحصري لنفسه بمدينة
مرسية سنة إحدى وثمانين وأربعمائة في جارية بيضاء منتقشة:

خضبت يديها لون فاحمها فما
نقص البياض ملاحه بل زاد
ما بال شيبى تكررین خضابه
وأراك خاضبة البياض سوادا
قالت نجيعك في يدي وإنما
بدلته أسفاً عليك حدادا

ودخلت على سلطان بلنسية - كان - العالم أبي عبد الملك مروان بن عبد الله، ابن عبد العزيز في بستانه
بحضرة مراکش وهو يتوضأ للصلاة، فنظر إلى لحيته، وقد اشتعلت بالشيب اشتعالاً فأنشدني لنفسه
ارتجالاً:

ولما رأيت الشيب أيقنت أنه
نذيرٌ لجسمي بانهدام بنائه
إذا ابيض مخصرُ النبات فإنه
دليل على استحصاده وفنائه

وأنشدني الوزير بليغ شرق الأندلس أبو بكر بن مغاور في منزلة بمدينة شاطبة، قال: سمعت القاضي الشهيد الإمام أبا علي حسين بن محمد الصدي يقول: سمعت الفقيه الإمام الأديب أبا زيد عبد الرحمن بن شاطر السرقسطي ينشدنا لنفسه:

قد كنتُ لا أدري لأيةِ علّةٍ صار البياضُ لباسَ كلِّ مُصابٍ
حتى كساني الدهرُ سحقَ ملاءةٍ بيضاءَ من شبيبي لفقْدِ شبابي
فبذا تبين لي إصابةٌ من رأى لبس البياض على توى الأحباب

يقال: توى يتوى، بفتح الواو في الماضي، وبكسرها في المضارع، وهي لغة طيء، والمصدر: تَوَى، مقصور؛ كل بالتاء المثناة باثنتين من فوق. ولغة أهل الحجاز: تَوَى، بكسر الواو؛ ويَتَوَى، بالفتح في المضارع، وهو اختيار الخليل: كل ذلك إذ هلك. ولبس البياض هي عادة أهل الأندلس في الحزن على موتاهم، استنوا ذلك من عهد بني أمية قصداً لمخالفة بني العباس في لباسهم السواد، ولذلك قال الأستاذ النحوي أبو الحسن الحصري:

إذا كان البياضُ لباسَ حزنٍ بأندلسٍ فذاك من الصَّوابِ
ألم ترني لبستُ بياضَ شبيبي لأنني قد حزنتُ عل الشبابِ

ولقيت بمدينة غرناطة الوزير الأجل أبا بكر، محمد بن أبي العافية الأزدي القتندي الأصل الأغرناطي المنشأ، وكان من بقايا الأدباء وفحول الشعراء، ورواة الحديث عن العلماء. سمع كتاب الملخص وصحيح مسلم على فقيه شرق الأندلس في زمانه الحافظ أبي محمد بم أبي جعفر. وقرأ الأدب على الأستاذ أبي عبد الله بن خطاب المرسى - عرف بالجزار. وعلى الأديب أبي عبد الله محمد بن وضاح - يعرف بالبقيرة. وقرأ على الوزير أبي إسحاق الخفاجي نظمه ونثره في مجلدين. وقرأ على الأديب أبي الوليد يونس بن أبي عيسى الخباز. وله شعر كثير وأدب غزير.

مولده سنة ثلاث شعرة وخمسمائة، وتوفي سنة أربع وثمانين وخمسمائة بأغرناطة. سمعت منه وأجاز لي ولأخي أبي عمرو وجميع ما رواه ونثره ونظمه. فمن شعره في الشيب:

لأمر ما أكابدُ كلَّ شجْوٍ إذا سَجعت على الأيك الحمَامُ
لأنَّ بياضها كبياضِ شبيبي فمعنى سجعها قرْب الحمَامُ

وأنشدني هذا الوزير أيضاً لنفسه في تفاحة بيد غلام وسيم يأكلها:

ولا كتفاحة حمراء همتُ بها إذ أشبهت حدَّ من قلبي منيِّمةً
سمتُ بها كفه يوماً إلى فمه فخلتُه البدرَ والمريخُ يلثمه

أَوْ شَارِباً كَأْسَ صِهْبَاءٍ مَعْتَقَةً
وَلَا حَبَابَ سِوَى أَنْ رَاقَ مَبْسِمِهِ

وأنشدونا لأبي عثمان سعيد بن فتحون بن مكرم التجيبي في الشيب لنفسه:

تَخَطُّ يَدُ الزَّمَانِ عَلَى عِذَارِي
سَطُوراً مِنْ حُرُوفِ الشَّيْبِ بِيضاً
فَأَبْغَضُهَا وَإِنْ كَانَتْ كَصُبْحِ
وَلَمْ أَرِ قَبْلَهَا صُبْحاً بَغِيضاً

ودخلت على سلطان بلنسية المتقدم ذكره، بعد ذهاب ملكه، وانتشار سلكه، في داره بمدينة مراكش، وقد كان خطب له من حصن لقنت إلى مدينة لاردة، وكانت الأوامر عنه فيها صادرة واردة؛ وهو يعالج سكرات الموت، وقد أشرف على الفوت؛ فأنشدني في ذلك الوقت الذي تدهل فيه العقول، ويزول عنها المعقول:

إِلَهَ الْخَلْقِ هَبْ لِي مِنْكَ عَفْواً
تَحَطُّ بِهِ وَتَغْفِرُ مِنْ ذُنُوبِي
وَسَعَتَ الْخَلْقِ إِجْمَالاً وَفَضْلاً
فَهَلْ لِي فِي نَوَالِكَ مِنْ ذُنُوبِ

الذنوب، في اللغة: الحظ والنصيب، ومنه قول علقمة بن عبدة:

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبِطَتْ بِنِعْمَةٍ
فَحَقَّ لِنَاسٍ مِنْ نَدَاكَ ذُنُوبُ
أَي نَصِيبٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ الرَّاجِزِ أَيْضاً:

لَنَا ذُنُوبٌ وَلَكُمْ ذُنُوبٌ
فَإِنْ أْبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ

والذنوب، أيضاً: الدلو العظيمة إذا ملئت أو قاربت الملاء، وهو السجل أيضاً فالموت نهاية كل عيش، وغاية كل ملك وجيش.

ومن مליح ما أنشدني، وقد ولي مكانه من لا يساويه ولا يدانيه:

وَلَا غَرَوَ بَعْدِي أَنْ يُسَوِّدَ مَعَشِرُ
فِيضِحِي لَهُمْ يَوْمٌ وَلَيْسَ لَهُمْ أَمْسُ
كَذَلِكَ نَجُومَ الْجَوِّ تَبْدُو زَوَاهِرًا
إِذَا مَا تَوَارَتْ فِي مَعَارِبِهَا الشَّمْسُ

وأنشدني المحدث العدل أبو القاسم بن بشكوال، قال: أنشدنا أبو القاسم ابن صواب المقرئ قال: أنشدنا الأستاذ أبو الحسن الحصري لنفسه في التحنيس:

فَارَقَّتْنِي وَأَنَا وَالشَّوْقُ الْإِفَانِ
فَسَلُّ رَسُولَكَ عَنِّي كَيْفَ الْفَانِي
قَبْلَتْ كُتُبَكَ مِنْ فَرَطِ الْهَوَى قُبلاً
أَقْلَهُنْ إِذَا عَدَدْتَ الْفَانِ

وكتب إلى العالم الأديب الحسيب أبي محمد غانم بن وليد المخزومي:

لقد فاق في نثره غانم
بديع الزمان وقابوسه
وروى الظماء بماء النع
يم فلا عيش إلا وقى بوسه

بديع الزمان، هو علامة همدان، وصاحب المقامات المبتكرات الحسان. وقابوس؛ وهو الملك شمس المعالي بن وشمكير الديلمي صاحب طبرستان وجرجان. وله نثر بديع ومنظوم، وبصر بأحكام النجوم، ذكره مشهور معلوم، وهو القائل:

قل للذي بصروف الدهر عيرنا
هل عاند الدهر إلا من له خطر
أما ترى البحر يطفو فوقه جيف
وتستقر بأقصى قعره الدر
وإن تكن نشبت أيدي الزمان بنا
ونالنا من تمادي بؤسه ضرر
ففي السماء نجوم مالها عدد
وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وأنشدني شيخنا الوزير الفقيه المحدث الكاتب السامي المراتب، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن عميرة، قال: أنشدنا الفقيه الإمام المحدث المفسر أبو الحسن علي بن عبد الله بن موهب الجذامي، يعرف بابن الرقاق، بالراء المهملة:

محبك يسهر الليلا
يكيل دموعه كئيل
تمنيه الوصال ولا
ينال من الرضا نيلا
ستقتله كما فعلت
بقيس قبله ليلى

وسأل شيخنا القاضي الفقيه بيلنسية أبو الحسن محمد بن واجب شيخنا الإمام المحدث المفسر أبا الحسن بن الرقاق، كم تحفظ من الشعر: فقال: ألف قطعة مثل هذه في الحسن، وأنشد:

وشادين ألمّا بي على مقة
تتازعا الحُسن في غايات مُستَبِق
كأن لمة ذا من نرجس خلقت
على بهارٍ وذا مسكٍ على ورق
وحكماً الصبّ في التفضيل بينهما
ولم يخافا عليه رشوة الحدق
فقام يدلي إليه الرّيم حُجته
مبيّناً بلسان منه مُنطلق
فقال وجهي بدرٍ يُستضاء به
ولون شعريّ مقطوعٌ من الغسق
وكحل عيني سحرٌ للنهي وكذا
ك السحر أحسن ما يُعزي إلى الحدق
وقال صاحبه أحسنت وصفك ل
كُن فاستمع لمقالٍ في متفق
أنا على أفقي شمس النهار ولم
تغرب وشقرة شعري شقرة الشفق

وفضل ما عيبَ في عينيَّ من زَرَقٍ أنَّ الأسنَّةَ قد تُعزِّي إلى الزَّرَقِ
 قضيتُ لَمَّةَ الشِّقْرَاءِ حيثُ حَكَّتْ لوني كذا حُبُّها يقضي على رَمَقِي
 فقام ذو اللَّمَّةِ السُّوداءِ ترشُّقُنِي سهامُ أجفانه من شدَّةِ الحَنَقِ
 وقال: جُرْتُ؛ فقلتُ الجورُ منك على قلبي ولي شاهدٌ من دمعي الغَدَقِ
 فقلتُ عفوك إذ أصبحتُ متَّهما فقال دونك هذا الحبلُ فأختنقُ

وهذه القطعة للفقير أبي أيوب سليمان بن محمد بن بطلال البطليوسي، يعرف بالملتمس - والمتلمس في اللغو معناه: الطالب - وهو صاحب كتاب "الأحكام مما لا يستغني عن علمه الحكام" وصل إليه فتيان: أحدهما ذو لمة شقراء، والآخر ذو لمة سوداء، يتحاكمان عنده أيهما أجمل. فقال هذه الأبيات. فتكلم بالسنة المجيدتين، وتصرف المطبوعين؛ فجمع الله العظيم له براعة الفقهاء، وبلاغة الشعراء النبهاء. وأنشدني الفقيه القاضي بمدينة دانية أبو عبد الله محمد، ابن الفقيه القاضي بسبته أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، قال: أنشدني أبي لنفسه، في خامات زرع، بينها شقائق نعمان، هبت عليه ريح:

أنظر إلى الزَّرَعِ وخاماته تحكي وقد ماست أُمَامَ الرِّيَاخِ
 كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

الخامة: القصبة الرطبة من الزرع.

وأنشدني أيضاً، قال: أنشدني أبي لنفسه رحمه الله:

يا من تحمّل عني غير مكترث لكنه للضننى والسقم أوصى بي
 تركتني مستهام القلب ذا حرق أخوا جوى وتباريح وأوصاب
 أراقب النجم في جنب الدجى سهراً كأنني راصدٌ للنجم أو صابي
 وما وجدت لذيذ النوم بعدكم إلا جنى حنظل في الطعم أو صاب

قوله: أوصى بي، من الوصية. والأوصاب: جمع وصب، وهو المرض وصب فهو يوصب فهو وصب، إذا لزمه وجع. والصابي، يهمز ولا يهمز؛ قرأ نافع: الصابين والصابون حيث وقع من القرآن بلا همز. وذلك على وجهين: أحدهما أن يكون خفت الهمزة؛ والوجه الآخر أن يكون: صبا إلى اللهو يصبو صبواً. والباقون يهمزون من قواهم: صبا في الدين صبواً، فالصبأة، مثل: كافر وكفرة، ومعناه الخارج من دين إلى دين،

لأنهم خرجوا من اليهودية والنصرانية إلى دين ثالث. معظمهم يعبد الدراري، ومنهم من يعبد الملائكة؛ و
قبلة صلاتهم من قبل مهب الجنوب. ويزعمون أنهم على دين نوح، على نبينا وعليه السلام، وفيهم
اختلاف وكلام. والصاب: الصبر، وهو مر.
وأنشدني أيضاً لأبيه:

الله يعلم أنني منذ لم أركم كطائرٍ خانَهُ ريشُ الجناحينِ
فلو قدرتُ ركبتُ البحرَ نحوكمُ فإنَّ بُعدكمُ عنيَ جنَى حيني

وأنشدنا أيضاً لأبي محمد عبد الله بن هارون من شعراء السبتيين المطبوعين في غلام رفاء، وكان وجهه قمر
سما:

يا رافياً قطع كل ثوبٍ ويا رشاً خيبَ اعتقادي
عسى بكف الوصال ترفو ما قطع الهجر في فؤادي

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني أبي موسى بن عيسى السمسار البلغواطي في غلام أهدى له بنفسجا:

ما كان أطفه بروح محبه إذ سلها منه بغير تخرج
أهدى إليه بنفسجا يشتمه فإذا به رفقا دع يا نفسُ جي

وهذه القبيلة يقال لها: بلغواطة، بلام مفتوحة، وإسكان الغين. والنسب إليها: بلغواطي. قرأته في كتاب
"تثقيف اللسان، وتلقيح الجنان"، للقاضي الجليل أبي حفص بن عمر بن خلف الحميري المازري قال:
أخبرني بذلك اللغوي النحوي أبو بكر محمد بن البر التميمي، عن اللغوي الكبير أبي عبد الله القزاز، قال:
والعامية تقوله بالراء: برغواطة، والصواب: بلغواطة، كما تقدم.
وأنشدني أيضاً قال: أنشدني أبي الفقيه الأديب أبي الحسن علي بن عمر، ابن الإمام الفقيه عالم سبته أبي
محمد عبد الله بن غالب:

ومهفهف خنث الجفون كأنما من أرجل النمل استفاد عذارا
فتخاله ليلا إذا استقبلته وتخال ما يجري عليه نهارا

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني أبي، قال: أنشدني الشيخ أبو علي الحسن ابن علي بن الفضل الفقيه، قال:
أنشدني خالك أبو بكر محمد بن علي المعافري - المعروف بابن الجوزي - للكاتب أبي بكر عطاء، كاتب
صاحب سبته الحاجب بهاء الدولة وكاتب أبيه قبله:

سأمنع قلبي أن يكون لكم مثوى وأستدفع البلوى وأستصرف اللهوا

وما سرّني بعد الرضا إذ غدرتُم وغدرتُم بين الحسَى هضبتني رضى

وصيرتُم العتبي عتاباً فكلّما أبنتُكم شجوى تزيدونني شجوا
قضى الله أن أقصي وأصفيكم الهوى وغيري يُسندني وإن كان لا يهوى
وما كان ظنّي قبل ذا أن حاسدي بمنهلكم يُروي وأنّي لا أروي
وما جلّت البلوى عليّ وإنما شماتة أعدائي أجلُّ من البلوى

وأنشدني أيضاً قال: أنشدني للفقهاء الأجل أبي العباس أحمد بن سعيد ابن غازي السبتي يصف ناقه:

حرف كمثل الصاد إلا أنها بعد السرى جاءت كحرف النون
كالبدر قدره الإله منازلًا في الأفق حتى عاد كالعرجون

والحرف: المسنة. وقال أبو زيد سعيد بن أوس اللغوي: هي النجبية التي أنضتها الأسفار، وأنكر على من قال: هي المهزولة. وقال صاحب كتاب العين. هي الصلبة، شبهت بحرف الجليل، ثم قال: شبهت بحرف السيف في مضائها.

وأنشدني جماعة من شيوخي رحمهم الله، منهم: الشيخ الفقيه المقرئ المحود الخطيب المحدث أبو جعفر أحمد بن البنسي، المعروف بابن اليتيم، بجامع مدينة مالقة قال: أنشدني العالم الزاهد المقرئ الأديب المتصوف أبو العباس أحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي، المشهور بابن العريف:

سلوا عن الشوق من أهوى فإنهم أدنى إلى النفس من وهمي ومن نفسي
ما زلتُ مذ سكنوا قلبي أصون لهم لحظي وسمعي ونطقي إذ همو أنسي
وفي الحشا نزلوا والوهم يجرحهم فكيف قرؤا على أذكي من القبس
حلوا الفؤاد، فما أئدى، ولو وطئوا صخرًا لجاد بماء منه متنجس
لأنهضنّ إلى حشري بحبهم لا بارك الله فيمن خانهم فنسي

وأنشدني الشيخ الفقيه الأجل، إمام النحويين، قاضي قضاة المغرب، بقية أعلام مشيخة الأندلسيين، أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمي رضي الله عنه قال: أنشدني الفقيه الإمام المفسر النحوي الأصولي، القاضي بمدينة المرية أبو محمد عبد الحق بن الإمام أبي بكر غالب بن عبد الرحمن بن عطية الحاربي بمدح المثلثين ملوك المغرب المتقدمين:

إذا لثموا بالريط حلت وجوههم ازاهر تبدو من فتوق كمائم

وإن لثموا بالسابريةً أظهروا

عيون الأفاعي من جلود الأراقم

وأنشدني شيخنا أيضاً قال: أنشدنا أستاذ المقرئين الفقيه الخطيب القاضي إشبيلية أبو الحسن شريح بن محمد بن شريح الرعيي قال: أنبأنا الإمام حافظ أهل زمانه أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري لنفسه في كتابه إلينا:

لئن أصبحت مرتحلاً بشخصي

فَرُوحِي عندكم أبدأً مُقِيمٌ

ولكن للعيانٍ لطيفٌ معنًى

له سأل المعاينةَ الكليُم

وأنشدني جماعة من شيوخي رحمهم الله منهم الأستاذ النحوي أبو القاسم السهيلي - والأستاذ كلمة ليست بعربية، ولا توجد هذه الكلمة في الشعر الجاهلي. وأصطلحت العامة إذا عظموا المحبوب أن يخاطبوه بالأستاذ، وإنما أخذوا ذلك من الماهر بصنعتهم، لأنه ربما كان تحت يده غلمان يؤدبهم، فكأنه أستاذ في حسن الأدب. حدثني بهذا جماعة بغداد، منهم جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله. قال: سمعته من شيخنا اللغوي أبي منصور موهوب ابن أحمد الجواليقي، في كتاب المعرب من تأليفه وكان السهيلي فردا في زمانه، لبراعته في العلوم وافتنانه. قال: أنشدني الإمام العالم الزاهد أبو عبد الله محمد بن معمر المذحجي قال: أنشدني الأديب الشاعر أبو القاسم خلف بن فرج الألبيري - المعروف بالسُميسير - لنفسه:

بعوضٌ جعلن دمي قهوةً

وعنَّيني بضروب الأغانِ

كأنَّ عروقي أوتارها

وجسَمي الرِّبابُ وهنَّ القِبان

وأنشدني سيدي أبي رضي الله عنه للسُميسير يصف الدهر وتقلبه بأهله، وذلك من فعل الله لا من فعله:

النَّاسُ مثلُ حَبَابِ

والدَّهرُ لَجَّةُ ماءٍ

فعالمٌ في طُفُوٍّ

وعالمٌ في انطفاءٍ

وهجوه أكثر من مدحه، يا رب سامحه على قبحه. له مجلدات سماها بشفاء الأغراض، في أخذ الأعراض. وأنشدني الشيخ الفقيه الأجل القاضي بجزيرة شقر أبو يوسف يعقوب ابن محمد بن طلحة بتمتلي بمدينة شاطبة، قال: أنشدني الوزير الأديب الشاعر المصيب أبو إسحاق الخفاجي لنفسه:

ما للزمان يجوز في أبنائه

حُكْمًا ويرمقهم بعين العائبِ

فيحطُّ علوهم ويرفع سُفلهم

فكأنهم قَلَمٌ بيمني كاتب

وأنشدني الأستاذ شيخ الإِتقان، وواحد أئمة الفرقان، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن، قال: أنشدنا الأستاذ أبو داود سليمان بن يحيى، قال: أنشدنا الأستاذ أبو الحسن الحصري لنفسه:

ضاقَتْ بِلَنْسِيَّةِ بِي وِذَا دَعَنِي غُمُوضِي
رَقَصُ الْبِرَاغِيثِ حَوْلِي عَلَي غِنَاءِ الْبَعُوضِ

وأنشدني الوزير الكاتب الناظم الناثر العالم أبو يحيى أبو بكر بن عيد الغني، المعروف بابن الجنان، بمدينة مراكش سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، قال: أنشدني الوزير الأديب أبو الإصبع بن رشيد، وقد هطلت بإشبيلية سحابة بقطر أحمر، يوم السبت الثالث عشر من صفر عام أربعة وستين وخمسمائة:

لَقَدْ أَنْ لِلنَّاسِ أَنْ يُقْلَعُوا وَيَمْشُوا عَلَى الْمَنْهَجِ الْأَقْوَمِ
مَتَى عَهْدِ الْغَيْثِ يَا غَافِلًا كَلَوْنَ الْعَقِيقِ أَبُو الْعَنْدَمِ
أَظُنُّ الْغَمَامَ فِي جَوْهَا بَكَتْ رَحْمَةً لِلرَّوَى بِالْدَمِّ

وفيها من غير هذا المعنى:

لَا تَكُنْ دَائِمَ الْكَأَبَةِ مِمَّا قَدْ سَرَى فِي الثَّرَى نَمِيرًا نَجِيعًا
لَطَمَ الْبَرِقُ صَفْحَةَ الْمُزْنِ حَتَّى سَالَ مِنْهُ عَلَى الرَّيَاضِ نَجِيعًا

النجيع الأول، من قولهم: نجع الطعام ينجع نجوعا؛ كنا يقال: نمير. ونجع في الدابة العلف، إذا أثر فيها فسمت وقويت على المشي؛ وقد نجع فيه الخطاب والوعظ والدواء: دخل وأثر. قال الثقة عبد الله محمد بن أبي العباس البيهقي: النجيع: ما نجع في البدن من طعام وشراب. وأنشد لمسعود أخي ذي الرمة:

وَقَدْ عَلِمْتُ أَسْمَاءَ أَنْ حَدِيثَهَا نَجِيعٌ كَمَا مَاءُ السَّمَاءِ نَجِيعٌ

والنجيع الثاني، من الدم، ما كان إلى السواد. وقال الأصمعي: هو دم الجوف خاصة.

وفيها، وأستغفر الله:

لَيْسَ مَا قَدْ هَمَى عَذَابًا وَلَكِنْ هُوَ عِنْدِي مِنَ الثُّغُورِ الْعَذَابِ
ضَحَكَ الْبَرِقُ عَنْ لَثَاتِ عَيْقِقِ بَيْنَ دُرِّ مِنَ الْقِطَارِ مُذَابِ

وأنشدني لابن رشيد في دولاب:

وَمَجْنُونٍ إِذَا دَارَتْ سَمِعَتْ لَهَا صَوْتًا أَجَشَّ وَطَلَّ الْمَاءُ يَنْهَمُ
كَأَنَّ أَقْدَسَهَا رَكْبًا إِذَا سَمِعُوا مِنْهَا حُدَاءً بَكْوًا لِلْبَيْنِ وَارْتَحَلُوا

الأقداس: جمع قدس بفتح القاف والذال، والعامّة تقول، قادوس.
وأنشدني له في اللغز، في فتى اسمه مالك:

غزاليُّ الجفونُ شَقِيقُ بدرٍ تبَسّمَ عن عَفِيقِ فوقِ دُرٍ
له نفحاتُ مسكٍ أيّ مسكٍ له نفّاتٌ سحرٍ أيّ سحرٍ
شكوتُ له الهوى والهونُ منه فقال عليك باسمي سوف تدري
تعملتُ القساوةَ من سمّي وأحرقتُ القلوبَ بنار هجري

وأنشدني الفقيه الأجل العالم الحسيب أبو الحسن علي بن أحمد بن علي ابن فتح، وهو لبال بن أمية بن إسحاق القرشي الأموي، بمنزلة بمدينة شريش شذونة، وهو عين ذلك المصر، وفارسه في الفقه والنظم والنثر؛ ولي القضاء به فحمدت في ذات الله مآثره وآثاره، وسارت في العدل أخباره؛ يتشوق إلى الروضة المقدسة الطاهرة، ويسلم على محمد سيد ولد آدم في الدنيا، وسيد الناس في الآخرة ذي الآيات البيّنات والمعجزات الباهرة، صلى الله عليه ما زهرت الكواكب ودارت الأفلاك الدائرة.

سلامٌ ولا أقرأ سلاماً على هندٍ صرفتُ إذاً مسرايَ عن مسلكِ الرشدِ
على قمرٍ لو أطلعتُه يدُ الثرى لقصرَ عن لألئه قمرُ السعدِ
وأربى على نور الغزالة نورُه كما يفضلُ الحرُّ الكريمُ على العبدِ
فطاب به تربُّ الضريح بطيبه فيعقبُ عن مسكٍ نديٍ وعن ندِّ

ويضحكُ عن روضِ تُداني يدُ الصبّا به صفحة السّوسان من صفحة الوردِ
فطوبى لمن أضحى يمرغُ لوعةً بتربه ذاك القبرِ خدّاً إلى خدِّ
بني عليه من تلابؤ نوره تلالؤ برقي أسرجته يدُ الرعدِ
نما من قريش في ذؤابة هاشم فما شئتَ من فضلٍ عميمٍ ومن مجدِّ
سلامٌ عليه ما تغنت حمامةً وفاح ذكيّ المسك من جنة الخلدِ
وما أنشد المشتاقُ إن هبت الصبّا ألا يا صبا نجد متى هجت من نجدِ

وأنشدني أيضاً لنفسه في الجلمين:

ومُعْتَنِقَيْنِ ما اتّهما بعشقٍ وإن وُصفا بضمٍّ واعتناقِ
لعمرُ أبيك ما اجتمعاً لمعنى سوى معنى القطيعة والفراقِ

وأنشدني أيضاً في محبرة عناب محلاة بفضة:

مُنْعَلَةٌ بِالْهَلَالِ مُلْجَمَةٌ
كَأَنَّمَا حَبْرُهَا تَمَّيْعُ فِي
فَأَنْتَ مَهْمَا تُرِدِ شَبِيهَتَهَا
فِي كُلِّ حَالٍ فَأَنْظِرُ إِلَى الْأَفُقِ
بِالنَّسْرِ مَجْدُولَةٌ مِنَ الشَّفَقِ
فُرَضَتْهَا سَائِلًا مِنَ الْغَسَقِ

وله في محبرة آبنوس:

وَحَدِيمَةٌ لِلْعِلْمِ فِي أَحْشَائِهَا
لَيْسَتْ رِذَاءَ اللَّيْلِ ثُمَّ تَوَشَّحَتْ
كَلْفٌ بِجَمْعِ حَرَامِهِ وَحَلَالِهِ
بِنَجْوَمِهِ وَتَوَجَّحَتْ بِهَيْلَالِهِ

وأنشدني لنفسه في اللغز:

سَبِيئَتَانِ اثْنَتَانِ هَذِي
قُلْ لِدَوِي الْعِلْمِ خَبْرُونِي
حَلٌّ مُبَاحٌ وَذِي حَرَامٍ
مَا الْحَلِّ مِنْهَا وَمَا الْحَرَامِ

السيئة الأولى: هي شاة المسلوخة، يقال سبأت الجلد، إذا سلخته؛ والثانية: الخمر.

وأنشدني أيضاً في الغز لنفسه:

مُعَانَقَةُ الْعَجُوزِ أَشَدُّ عِنْدِي
وَمَا رِيْقُ الْعَجُوزِ أَمْرٌ عِنْدِي
وَأَقْتُلُ مِنْ مُعَانَقَةِ الْعَجُوزِ
وَلَا بِأَلَدٍّ مِنْ بَوْلِ الْعَجُوزِ

العجوز الأولى: المرأة المسنة، والثانية: السيف؛ والثالثة: الخمر؛ والرابعة: البقرة؛ وبولها: لبنها.

وله، حجازية:

مَتَى أَقُولُ وَقَدْ كَلَّتْ رِكَائِبُنَا
يَا نَائِمِينَ عَلَى الْأَكْوَارِ وَيَحْكُمُ
مِنَ السُّرَى وَارْتِكَابِ الْبَيْدِ فِي الْبُكْرِ
شُدُّوا الْمَطِيَّ بِذِكْرِ اللَّهِ فِي السَّحَرِ
أَمَّا سَمِعْتُمْ بِحَادِينَا وَقَدْ سَجَعَتْ
وُورِقُ لِحَمَائِمِ فَوْقِ الْأَيْكِ وَالسَّمْرِ
هَذِي الْبِشَارَةُ يَا حُجَّاجٍ قَدْ وَجِبَتْ
غَدًا تَحْطُونَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْحَجَرِ

ومن شعراء الأندلس الذي فاخرت به شعراء العراق، وأجلب به المغرب على المشرق وجلبت إليه من

أنفاسه نفائس الأعلاق، وسارت أشعاره سير الأمثال في الآفاق، الشاعر الرقيق:

أبو الحسن ابن الزقاق

علي بن عطية بن الزقاق

وقد حدثني بديوانه، جماعة من أئدانه. منهم الأديب الوزير، أبو بكر يحيى ابن محمد الأنصاري الأركشي، أئفه الله برءاء عرفانه،. فمن بديع شعره ومنظوم دره قوله:

لعمرُ أبيها ما نكثتُ لها عهدًا
ولا فارقتُ عيني لفرقتها السُّهدًا
أتأمرني سُددي بأن أهجرَ الكرى
وأعصي على طوعي لأجفانها سُددي
برئتُ إذا من صُحبة الركب والسرى
ولا عرفتُ إيلي ذميلا ولا وخذًا
وليلٍ طرقتُ الخدرَ فيه وللدجى
عُبابُ تراه بالكواكبِ مُزبدا
أجاذبُ عطفَ الملكية تحته
وأسحبُ من ضافي العفاف به بُردًا
نعمتُ بها والليلُ أسودُ فاحمٌ
يغازل منها الأسود الفاحم الجعدًا
فلم أرَ أشهى من لَمَها مُدامة
ولم أرَ أذكى من تتفُسها نَدًا
تبسمُ عما قُلدته فأجتلى
بمبسمها ذرًا ولببها عِقدًا
ويعبقُ رِيَّها إذا هبَّت الصبا
فيحملُ عنها نشرها العنبر الوردا
سلِ الرِيحَ عن نجدِ تخبرك أنها
معطرةُ الأنفاسِ مذ سكنتِ نجدًا

وأنَّ الغضا والسدر مُذ جاورتهما
بطيبِ شذاهَا أشبها البانَ والرندا

وله في غلام يكسف نور البدر إذا طلع نور طلعتة، وقد رمي بحجر فأنشق شقيق وجنته:

وأحوى رُمي عن قسيِّ الحورِ
يقولون وجنته قُسمت
وما شقَّ وجنته عابثٌ
ورسمُ محاسنه قد دثر
وجلاها لنا الله كيما نرى
ولكنها آيةٌ للبشر
بها كيف كان انشفاقُ القمرِ
سِهاماً يفوقهنَّ النظرَ

وله في خود مهتصر الخصر، خدلجة المعصم والساق، تطالع من طلعتها مقاتل الفرسان ومصارع العشاق:

وخودِ ضمِّ مئزرها كئيباً
يُهالُ وبردُها غُصناً يراخُ
لها قُلبُ أبي النطقِ اكنتاماً
وسرُّ نطاقها أبداً مُباحُ
وقد أمرتُهما بالكتِّم لكن
أطاعَ سوارُها وعصى الوشاخُ

وله في ساق كأنما اعتصر من خده ما يمينه، وأطلع في مشرق كأسه ما أشرق من جبينه:

وساقٍ يحثُ الكأسُ وهي كأنما
سقاني بها صرفَ الحميا عشيةً
هضيمُ الحشا ذو وجنةٍ عندميةٍ
فأسرب من يُمناه ما فوق خده

تلاًلاً منها مثلُ ضوءِ جبينه
وتتّى بأخرى من رحيقِ جُفونه
تُريكِ قطافِ الوردِ في غيرِ حينه
وألتم من خديه ما بيمينه

وله في محبوبة له، ودعها واستودعها قلبه، فاستصحبته معها:

أأندبُ رسمَ دارهم المحيلاً
وبى هيفاءً من ظبيات نجد
أقول وقد توارت يومَ حزوي
كرهت بأن ينالك لحظ عيني

وأسأل عنهم الریح البليلاً
تُضاهي الغصن والحقف المهيلاً
بكلتها وأشغفت الحمولاً
فكيف رضيت أحشائي مقبلاً

وقال أيضاً:

بأبي وغير أبي أغنُ مهفهفٌ
لبسَ الفؤادَ ومزقته جُفونه

مهضومٌ ما خلفَ الوشاحِ خميصُهُ
فأتى كيوسفَ حينَ قد قميصُهُ

وله في الإشارة إلى دقة الخصر:

وآنسة زارت مع الليل مضجعي
أسائلها أين الوشاح وقد سرت
فقالته وأومت للسوار نقلته

فعانقت غصنَ البان منها إلى الفجرِ
مُعطلةً منه معطرة النثرِ
إلى معصمي لما تقلقل في خصري

قال ذو النسيين رضي الله عنه: ومن مليح ما سمعت في دقة الخصر ما أنشدنيه صاحبنا الفقيه القاضي الأديب أبو حفص عمر بن عبد الله بن عمر السلمي لنفسه:

لها ردفٌ تعلق من ضعيفٍ
يُعذبني إذا فكرت فيه

وذاك الردف لي ولها ظلومٌ
ويُتعبها إذا رامت تقوم

رجعنا إلى شعر الأديب أبي الحسن علي بنم عطية بن الزقاق:

ومرتجة الأعطافِ أمّا قوامها
ألمت فبات الليل من قصر بها
وبتٌ وقد زارت بأنعم ليلةٍ

فلدنٌ وأمّا ردفها فرداخُ
يَطيّر ولا غيرُ السرور جناح
تُعانقني حتى الصبّاح "صباح"

على عاتقي من ساعديها حمائلٌ

وفي خصرها من ساعديّ وشاح

وله أيضا:

سقتني بيمناها وفيها فلم يزل

يُجاذبني من ذا ومن هذه سكرُ

ترشفتُ فاهًا إذ ترشفتُ كأسها

فلا والهوى لم أدر أيُّهما الخمرُ

وله:

عذيري من هضم الكشح أحوى

رَحِيمِ الدَّلِّ قد لبس الشَّبَابَا

أعدّ الهجر هاجرةً لقلبي

وصيرّ وعده فيها سرايا

وله:

وعشيّة لبستُ رداءَ شقيقِ

تُرْهِي بلونِ اللُخْدودِ أنيقِ

أبقتُ بها الشمسُ المنيرةُ مثلَ ما

أبقى الحياءُ بوجنة المعشوقِ

لو أستطيع شربتها كلفاً بها

وعدلتُ فيها عن كئوسِ رحيقِ

وله:

كتبتُ ولو أنّني أستطي

ع لإجلالِ قدرِك دُونَ البَشْرِ

قددْتُ اليراعةَ من أقلي

وكان المِدادُ سوادَ البَصْرِ

وله:

وحبّبَ يومَ السبِّتِ عندي أَنَّهُ

ينادُمَنِي فيه الذي أَنَا أَحَبِّتُ

ومنِ اعجبِ الأشياءِ أَنِّي مُسَلِّمٌ

حَنِيفٌ ولكنْ خيرَ أَيَّامِي السبِّتُ

وله:

ومُقَلَّةِ شادينِ أودتُ بنفسي

كَأَنَّ السَّقْمَ لي ولها لباسُ

يسلُّ اللحظُ منها مشرفياً

لِقَتْلِي ثم يُغمده النُّعاسُ

وله:

وقفتُ على الرُّبوعِ ولي حنينٌ

لساكنهنّ ليسَ إلى الرُّبوعِ

ولو أَنِّي حننْتُ إلى مَعَانِي

أحَبَّائِي حننْتُ إلى ضلوعي

وله:

يا ثاويًا بضلوعي ما يفارقها
لأنتَ إنسانٌ عيني فأعجبني لمن

وإنَّ تحمّلَ عن أكنافِ أربعه
إنسانٌ مُقلته ما بين أضلعه

وله:

رقّ النَّسيمُ وراق الروضُ بالزَّهرِ
ما العيشُ إلا اصطباحُ الرَّاحِ أو شنبِ
قلِّ للكواكبِ غُضِّي للكُرى مُقلًا
وللصَّبَّاحِ ألا فانتشرُ رداءَ سنا
وقام بالقهوة الصهباءِ ذو هَيْفِ
تطفو عليها إذا ما شجَّها دُرٌّ
والكأسُ في كفه بالراحِ مُترعةٌ

فنبه الكأسَ والإبريقَ بالوترِ
يُغني عن الرَّاحِ من سلسالِ ذي أشُرِ
فأعين الزُّهرِ أولى منك بالسَّهرِ
هذا الدُّجى قد طوته راحةُ السَّحرِ
يكادُ معطِّفه يَنقَدُ بالنَّظرِ
تخالها اختلستُ من ثغره الخَصِرِ
كهالة أهدقت في الأفقِ بالقمرِ

وله في صفة فرس أعر:

وأعرٌ مصقول الأديم تخاله
يطأ الثرى متبخترًا فكأنه
فكأن بدر التَّمِّ فوق سراته

برقًا إذا جمع العتاق رِهانُ
من لحظ من في منته نشوان
حُسنًا وبين جُفونه كِيوان

وله:

يا ضياءَ الصُّبحِ تحت الغَبَشِ
أم رياضٍ دبَّجتها مُزنةٌ
لست أدري أسهامُ اللَّحظِ ما
بأبي منك قسيُّ لم تزل
رشقتُ قلبًا خفوقًا يلتظي
رُبَّ ليلٍ بته ذا أرقِ
سابقًا في لُججِ الدَّمعِ ول
وبُروقِ اللَّيلِ في أسدافه
وسماءُ الله تُبدي قمرًا

أطرازٌ فوق خديك وُشي
وبدا الصُّدُغُ بها كالحنَشِ
أتقي أم لدغُ ذاك الأرقشِ
رامياتٍ أسْمهما لم تطشِ
كضرامٍ بيدي مُرتعشِ
ليس إلا من قنَادِ فرُشي
كنني أشكو غليلِ العطشِ
كسيوفٍ بأكفِ الحَبَشِ
واضحَ الغُرةِ كابنِ القرشي

والبها إن طلعا في غبش
وبذا حومة "باب الحنش"

ليس فرق في السنّا بينهما
غير أن الأفق مغمورٌ بذا

وهو أحد أبواب بلنسية، وهي مطيب الأندلس، وفيها يقول:

وفي آياتها أسنى البلاد
بأن جمالها للعين بادي
له علمان من بحر وواد

بلنسية إذا فكرت فيها
وأعظم شاهدي منها عليها
كساها ربنا ديباج حُسن

وأشدي سلطانها - كان - أبو عبد الملك مروان بن عبد الله بن عبد العزيز:

وملبسها السندس الأخضرُ
بأكمامها فهي لا تظهرُ

كان بلنسية كاعبُ
إذا جنتها سترت نفسها

وهذه تورية مليحة، فإن الأكام ها هنا أكمام الأزهار والأشجار.

ولأبي الحسن بن الزقاق أيضا، وهو في الرقة بمترج بالنسيم، ويعد في أنواع البديع من نوع مليح التقسيم:

فهن منيراتُ الصفاح بواسمُ
وإن كن زهراً فالقلوب كرائم

تضوعن أنفاساً وأشرقن أوجهاً
لئن كن زهراً فالجوانح أبرجُ

وأشدي جماعة من شيوخه، منهم سيدي أبي الفقيه الفضل أبو علي حسن ابن علي، وشاعر المغرب الأقصى ومفخرة في صناعة المحاكاة والتخييل أبو عبد الله محمد بن حسين بن حبوس، قال: أنشدنا الوزير أبو عامر بن الحمارة:

وجهُ الحبيب وزهرة البستانِ
ما شئتَ من رُوحٍ ومن رِيحانِ
شغل الزمان بها عن الحدثنانِ

لله يومٌ كان فيه مُنادمي
صرعتي اللذاتُ فيه مَصارعاً
يا صاحبي تمتعاً من ساعة

وله:

لما قرعتُ عليك السنَّ من ندمٍ
ويصرفُ الطيفَ أني بتُ لم أنم
من ذا أباحَ لذاك اللحظِ سفكَ دمي

لو كنتُ أملُ أن ألقاك في الحلمِ
يحمي وصالك أعداءُ لهم رَصَدُ
يا مُرسلاً سَهَمَ عينيه ليقْتُلني

وله وقد أهدت إليه امرأة موصوفة بالجمال مسكاً:

ويُثني على ذاك الندى والتَّكْرُمِ
على رِقْبَةِ لَحْظِ المَشُوقِ المُنِيْمِ
وراعك لا تَقْدَمَ على غير مَقْدَمِ
أشَمُّ الذي ما بين عينيك والفم

أنا فتيتُ المسك يَعْبِقُ عَرْفَهُ
فأشعرني رِيًّا حَبِيبِ أَعِيرُهُ
فو الله لولا أن تقول لي المُنَى
لحدت نفسي عند ذلك أني
وأهدت إليه أخرى تُفَاحَة فقال:

وكطعم ريقها رحيقاً سلسلاً
مُترشفاً عَذْبَ الجَنَى ومُقَبَّلاً
فيقول بات بغيرنا متعللاً

بعثت إلي كخذها تُفَاحَةً
فصرفت وجهي عنهما ولقد أرى
كي لا يَغَارَ على الحبيب حبيبه

وله:

بعيدة عن مركز العالم
أعجوبة بين بني آدم

لم أعشق الشمس سماويةً
إلا لأضحى في غرامي بها

أنشدني الشيخ الفقيه الأديب القاضي بمدينة فاس أبو محمد عبد الله بن محمد ابن عيسى التَّادُلِيُّ رحمه الله،
قال: أنشدني الوزير الأديب الشاعر المصيب أبو القاسم المُنِيْشِي لنفسه في زُرُور:

يَفْرَعُه مِصْقَعُ خَطِيبِ
لم يتوضَّح بها مَشِيبِ
أَبْلَهَ لَكِنَّه لَيِّيبِ

أَمِنِبِرٌ ذاك أم قَضِيبِ
يَخْتالُ في بُرْدَتِي شَبَابِ
أُخْرَسُ لَكِنَّه فَصِيحُ

ومن فحول شعراء الأندلس؛ مالكُ أزمّة القريض، وماسكُ راية التَّصْرِيحِ فيه والتَّعْرِيضِ؛ شعره أرقّ من
التَّسِيمِ، وآنقُ من المُحَيَّا الوَسِيمِ، الوزير:

أبو إسحاق الخفاجي

إبراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله الخفاجي

من أعيان مدينة شقر، وهي جزيرة قد أحرق النهر بها؛ كما أحرق بحدقة شفر؛ وحسبك من ماء سائح،
وطائر صادح؛ وبطاح عرضة، ورياض أريضة؛ فلا ترى إلا انسجام الغمام، ولا تسمع إلا ترنم البلبل
والحمام. فمن قوله:

خَنَتْ المَعَاطِفِ والنَّظَرَ

ومُهْفَهفِ طَوايِرِ الحَنَسَا

تَلَيْتُ مُحَاسِنَهَا سُورَ
وَإِذَا سَعَى وَإِذَا سَفَرَ
مَةَ وَالْغَمَامَةَ وَالْقَمَرَ

بهر العيون بصورة
وَإِذَا رَنَا وَإِذَا شَدَا
فَضَحَ الْمُدَامَةَ وَالْحَمَا

قول الخفاجي: "وإذا رنا فضح المدامة" مأخوذ كم قول القائل:

فَعُولَانِ بِالْأَلْبَابِ مَا تَفْعَلُ الْخَمْرُ

وَعَيْنَانِ قَالَ اللَّهُ كُونَا فَكَانَتَا

ووصفه لها بالغمامة مأخوذ من قول الأعشى:

مَرُّ السَّحَابَةِ لَا رَيْثٌ وَلَا عَجْلُ

كَأَنَّ مَشِيئَتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا

قال الوزير أبو إسحاق: سبب هذه القطعة أني ذهبت يوماً أريد باب السمارين بشاطبة، ابتغاء الفرجة على جرية ذلك الماء بتلك الساقية، وذلك سنة ثمانين وأربعمائة، وإذا فقيه أبو عمران بن أبي تليد رحمه الله قد سبقني إلى ذلك، فألفيته جالسا على مصطبة كانت هنالك مبنية لهذا الشأن، فسلمت عليه، وجلست إليه متأنسا به وبتلك الحال، فأنشد أثناء ما تناشدناه قول ابن رشيق رحمه الله:

يَا مَنْ يُمِرُّ وَلَا تَمَرُّ بِهِ الْقُلُوبُ مِنَ الْفَرْقِ

أَوْ خَذَهُ مِنْهَا اسْتَرَقَ

بِعِمَامَةٍ مِنْ خَدِّهِ

قَمَرٌ تَعَمَّمٌ بِالشَّفَقِ

فَكَأَنَّهُ وَكَأَنَّهَا

وَإِذَا رَنَا وَإِذَا نَطَقَ

فَإِذَا بَدَا وَإِذَا مَشَى

رَحَ وَالْخَوَاطِرَ وَالْحَدَقَ

شَغَلَ الْجَوَانِحَ وَالْجَوَا

فقال، وقد اعجب بها جدا: احسن ما في القطعة حسن سياقة الإعداد. فقلت له: هي حسنة، ولكنها دون موقعها منك. وإلا الست تراه قد استرسل فلم يقابل بين ألفاظ البيت الأخير والبيت الذي قبله، فيترل بإزاء كل واحد منها ما يلائمها. وهل يحسن أن يترل بإزاء قوله: "وإذا نطق" قوله: "شغل الحدق". وكأنه نازعني القول في هذا. فقلت هذه القطعة المتقدمة انسج على ذلك المنوال. قال: فاستحسنها ابن أبي تليد.

قلت: هذا تعسف. ولم يرد ابن رشيق مقابلة الأعداد بعضها ببعض، وإنما أراد أن جملة محاسن هذا النير الزاهر، شغلت جملة هذا المتأمل الناظر. وقد عارضه الخفاجي في هذا الروي:

يَا ذَهَبًا سَائِلًا عَلَى وَرَقِ

يَا شَفَقًا سَاطِعًا عَلَى فَلَقِ

ما الحُسن إلا مُعصِفَرُ شَرِقِ
فأض على جسم أبيض يَفَقُ
قد نَصَبَ الحُسنُ وجْهَهُ غَرَضاً
تَرشُقُهُ أسهُمٌ من الحَدَقِ
أبيضٌ وأخضرٌ شَطْرُ عارِضِهِ
فاقترن النُّورُ منه بالورَقِ

أنشدني الفقيه الأجل القاضي بمدينة شقر أبو يوسف يعقوب بن محمد بن خلف ابن يونس بن طلحة
للخفاجي:

كُتِبْتُ وقلبي في يديك أسيرُ
يُقيم كما شاء الهوى وأسيرُ
ولي كل حينٍ من هوائِكِ وأدمعي
بكل مكانٍ روضةٌ وغديرُ

وله:

كُتُبْنَا وُلدينا البدرُ نَدْمَانُ
وعندنا لكُئوسُ الرِّاحِ شُهْبَانُ
والقُضْبُ مائِسةٌ والطيرُ ساجِعةٌ
والأرضُ كاسيةٌ والجوُّ عُريَانُ

وله:

رب طِرْفٍ كالطَّرْفِ سُرْعَةَ عَدْوِ
لَيْسَ يَسْرِي سُرَاهُ طَيْفُ الخَيْالِ
إِن سَرَى فِي الدُّجَى فِبعْضِ الدَّرَارِي
أَوْ سَعَى فِي الفَلَا فإِحْدَى السَّعَالِي
لستُ أدري إِنْ قِيدَ لَيْلَةَ أسْرِي
أَوْ تَمَطَّيْتَهُ غَدَاةَ قِتَالِ
أَجْنُوبٌ مَقُودَةٌ مِنْ جَنِيْبِ
أَوْ شَمَالٌ مَوْضُوعَةٌ فِي شِمَالِي
جَالٌ فِي أَنْجُمٍ مِنَ الحَلِيِّ بِيضِ
وَقَمِيصٌ مِنَ الصَّبَاحِ مُذَالِ
أشهبُ اللُّونِ أنْتَقَلْتَهُ حَلِيٌّ
خَبَّ فِيهِنَّ وَهُوَ مُلْقَى الجِلَالِ
فَبَدَا الصُّبْحُ مُلْجِماً بِالنُّرِيَا
وَجَرَى البَرَقُ مُسْرَجاً بِالهَلَالِ

قال ذو النسيين، رضي الله عنه: وقد اخذ هذا المعنى بعض أهل عصره، يقال: هو أبو الصلت، فقال وزاد
فيه معنى من معنى البديع، وهو التشكيل، فقال:

وأشهبُ كالشهابِ وأفي
يَجُولُ فِي مَذْهَبِ الجِلا
قال حَسُودِي وَقَدْ رآهُ
يُجَنَّبُ خَلْفِي إِلَى القِتَالِ
من أَلْجَمِ الصُّبْحِ بِالنُّرِيَا
وَأَسْرَجَ البَرَقَ بِالهَلَالِ

وقال الوزير أبو إسحاق بن خفاجة في قوس:

عَوَجَاءُ تُعْطَفُ ثَم تُرْسَلُ تَارَةً
فكأنما هي حيةٌ تنسابُ

وَإِذَا أَنْحَنَتْ وَالسَّهْمُ مِنْهَا خَارِجٌ

فَهِيَ الْهَلَالُ انْقَضَ مِنْهُ شَهَابٌ

وله:

وَعَسَى اللَّيَالِي أَنْ تَمُنَّ بِنَظْمِنَا

عَقْدًا كَمَا كُنَّا عَلَيْهِ وَأَفْضَلًا

فَلرَبَّمَا نُنِرَ الْجَمَانُ تَعَمُّدًا

لِيُعَادَ أَحْسَنَ فِي النُّظَامِ وَأَجْمَلًا

وهذا مأخوذ من قول مهيار:

عسى الله يجعلها فرقة

تعودُ بأكرم مُسْتَجْمَع

وله:

حَيًّا بِهَا وَنَسِيمُهَا كَنَسِيمِهِ

فَشَرِبْتُهَا مِنْ كَفِّهِ فِي وَدِهِ

مُنْسَاغَةً فَكَأَنَّهَا مِنْ رِيْقِهِ

مُحْمَرَّةً فَكَأَنَّهَا مِنْ خَدِّهِ

وأنشدني الفقيه القاضي الفاضل أبو يوسف يعقوب بن محمد بن طلحة قال: أنشدني الوزير أبو إسحاق الخفاجي لنفسه في النيلوفر:

وَنَيْلُوفَرٍ لَمْ يَدْرِ مَا مَسُّ حُرْقَةٍ

بُحْبٌ وَلَا مَا لَوْعَةٌ وَغَرَامٌ

يَهْبُ مَعَ الْإِصْبَاحِ مِنْ سِنَةِ الْكَرَى

وَيُطَبِّقُ لَيْلًا جَفَنَهُ فَيَنَامُ

وأنشدني له أيضا، يحمل على طلب العلم والتحلي به:

عَشُّ طَالِبًا أَوْ عَلِيمًا

فَالْجَهْلُ عَيْنُ الْمَحْطَةِ

وَلَا يَصْدُكَ يَأْسٌ

عَنْ نَيْلٍ أَشْرَفَ خُطَّهُ

فَمَبْدَأُ النَّارِ سَقَطٌ

وَأَوَّلُ الْخَطِّ نَقْطَةٌ

ولما بلغ سن الكهولة، وأدرك من أقطار الشبيبة مأموله؛ نام فرأى أنه مستيقظ يفكر فيما سلف من بطالته، ويتحسر على ما فرط من تجريه على معصية الله واستطالته؛ ويتذكر ما مضى من شبابه، ومن انقضى مني أحبابه؛ ودمعه يباري صوب المزن في انصبابه، ويحكى في انسجامه وانسكابه؛ فانتبه وهو منتبه لرشاده، مقبل على التزود لمعاده، منشد ما تترعج القلوب من إنشاده:

أَلَا سَأَجُلُ دُمُوعِي يَا غَمَامُ

وَطَارِحُنِي بِشَجْوِكَ يَا حَمَامُ

فَقَدْ وَفَّيْتَهَا سَتِينَ حَوْلًا

وَنَادَتْنِي وَرَائِي هَلْ أَمَامُ

وَكَنتَ وَمِنْ لُبَانَاتِي لُبَيْتِي

هَنَّاكَ وَمِنْ مَرَاضِعِي الْمُدَامُ

يَطالِعُنَا الصَّبَاحُ بِبِطْنِ حُزْوَى
وكان به البشامُ مراحَ أنسى
فِيَا شَرِخَ الشَّبَابِ أَلَا لِقَاءُ
ويا ظِلَّ الشَّبَابِ وَكُنْتَ تَتَدَى
فِيُنْكَرُنَا وَيَعْرِفُنَا الظَّلَامُ
فَمَاذَا بَعَدْنَا فَعَلَ البَشَامُ
يُيَلُّ بِهِ عَلَى بَرِحِ أَوَامُ
عَلَى أَفْيَاءِ سَرَحَتِكَ السَّلَامُ

ومن شعراء جزيرة الأندلس وفحولها، البريء مطروق الأشعار ومنحولها، ذو الآداب والفنون:

أبو محمد عبد الجليل بن وهبون

دخل على السلطان أبي القاسم محمد بن عباد يوماً، وهو ينشد قول المتنبي:

إِذَا ظَفَرْتَ مِنْكَ الْعَيُونَ بِنَظْرَةٍ
وَجَعَلَ يَرُدُّهُ اسْتِحْسَانًا لَهُ. فَقَالَ عَبْدُ الْجَلِيلِ بَدِيهًا:
أَثَابَ بِهَا مُعَيِّي المَطِيَّ وَرَازِمُهُ

لئن جاد شعراً ابن الحسين فإنما
تنبأ عجباً بالقريض ولو درى
تُجِيدُ العَطَايَا وَاللَّهِي تَفْتَحُ اللِّهًا
بَأَنَّكَ تَرَوِيهِ إِذَا لَتَّأَلَّهَا
فَأَمْرٌ لَهُ بِمَائِي دِينَارٍ، وَهُوَ مِثْلُ قَدِيمِ.

قال أبو سعيد القصار في جعفر بن يحيى:

لَا بِنَ يَحْيَى مَأْتِرُ
جَادَ شِعْرِي بِجُودِهِ
بَلَّغْتَ بِي إِلَى السُّهَا
وَاللَّهِي تَفْتَحُ اللِّهَا

اللهي، بالضم: العطايا؛ واحدها: لهوة ولهية. واصلها: القبضة من الطعام تلقى في الرحي لتطحن، فجعلت
الدفعة من المال المعطى لهوة. وأما اللهيا، بالفتح فجمع لهاة: الحلق.

ولما جاز السلطان ابن عباد البحر المسمى بالمحيط إلى مدينة سبتة، قاصداً لأمير المسلمين، وناصر الدين أبي
يعقوب يوسف بن تاشفين للاستنجاد به على الروم، وقد راموا الوثوب على الأندلس، بعد أخذ طليطلة،
وهجموا على بلادها أقبح هجوم قال:

أَحَاطَ جُودُكَ بِالدُّنْيَا فَلَيْسَ لَهُ
وَمَا حَسِبْتُ بِأَنَّ الكُلَّ يَحْمِلُهُ
إِلَّا المُحِيطُ مِثَالٌ حِينَ يُعْتَبَرُ
إِلَّا وَمَدَّتْ يَدًا أَرْجَاؤُهُ الأَخْرَ
كَأَنَّمَا البَحْرُ عَيْنٌ أَنْتَ نَاطِرُهَا
وَكُلُّ شَطِّ بِأَشْخَاصِ الوَرَى شُفْرُ

تَأْتِي الْبِلَادَ فَتَنْدَى مِنْكَ أَوْجُهَهَا
 حَتَّى يَقُولَ تَرَاهَا هَلْ هَمَّى الْمَطْرَ
 مَا الْقَفْرُ إِلَّا مَكَانٌ لَا تَحُلُّ بِهِ
 وَحَيْثُمَا سَرَتْ سَارَ الْبَدْوُ وَالْحَضْرَ
 الْأَرْضُ دَارِكٌ فَاسْتَلْكَ حَيْثُ شَدَّتْ بِهَا
 هُوَ الْمَقَامُ وَإِنْ قَالُوا هُوَ السَّفْرَ

وله قصيدة يمدح ابن عباد، ويذكر ثباته يوم الواقعة بين جيوش المسلمين والورم بالموضع المعروف بالزلاقة من عمل بطليوس، وكانت الزلاقة يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة، قتل فيها من شجعان النصارى ثلاثون ألف فارس. ذكره النسابة أبو محمد الرشاطي في كتاب: "اقتباس النور" ومن الرجال ما لا يحصى، وطعن فرس ابن عباد تحته، فكبا به، فسقط عنه. فقدم إليه بعض من ثبت من جنده معه فرساً، فركبه وأبلى بلاء حسناً وقاتل قتالا شديداً - منها:

وَلَمْ يَنْبُتْ مِنَ الْأَشْيَاعِ إِلَّا
 شَقِيقُكَ وَهُوَ صَارْمُكَ الْحُسَامُ
 يَمَانٍ فِي يَدَيْ مَاضٍ يَمَانٍ
 فَلَا نَابِي الْغِرَارِ وَلَا كَهَامٍ
 وَلَمْ يَحْمَلْكَ طَرْفُكَ بَلْ فَوَادٌ
 تَعَوَّدُ أَنْ يُخَاضَ بِهِ الْحِمَامُ

ثَبَّتَ بِهِ ثَبَاتَ الْقُطْبِ لَمَّا
 أَدَارَ رَحَاهُ خَطْبٌ لَا يُرَامُ

ومنها:

مَضَوْا فِي أَمْرِهِمْ سَحْرًا وَدَارَتْ
 بِمَا عَقَدُوا مِنَ الْحَلْفِ الْمُدَامُ
 فَرَدَّوْهَا عَلَى الشَّفَرَاتِ بِيضًا
 وَجَدَّدَ فِي تَعَاطِيهَا النَّدَامُ
 وَمَا أَخَذْتَهُمُ الْأَسْيَافُ لَكِنْ
 صَوَاعِقُ لَا يَبُوحُ لَهَا ضِرَامُ

باخ الحر، إذا سكن، يبوخ بالخاء المعجمة. وباخت النار والحرب، إذا سكتنا.

إِذَا مَا بَرَقَتْ بَرَقَتْ عَلَيْهِمْ
 فَإِنَّ الْقَطْرَ أَعْضَادٌ وَهَامُ

ومنها يصف الهزّام أذفونش تحت الظلام بجيشه منهم، وإلقاء الدروع عنه وعنهم:

سَتَسْأَلُكَ النَّسَاءُ وَلَا رِجَالٌ
 فَحَدَّثَ مَا وَرَاءَكَ يَا عَصَامُ
 وَرَاقِبَهَا بِأَرْضِكَ طَالَعَاتٍ
 كَمَا تُهْدِي صَوَاعِقُهَا الْغَمَامُ

ومنها:

فَإِنْ شَدَّتْ اللَّجِينُ فَتَمَّ "سَامُ"
 وَإِنْ شَدَّتْ النَّظَارُ فَتَمَّ "حَامُ"

ومنها:

نضاً أدراعه واجتأب ليلاً

يوذ لو انه في الطول عام

وله يتشوق إلى ابن عباد، وقد حضر بالمرية في بعض الأعياد، والشعراء ينشدون المعتصم بالله أبا يحيى محمد بن معن بن صمادح سلطان تلك البلاد:

دنا العيد لو تَدنو به كعبةُ المني

وركنُ المعالي من ذُؤابة يعرب

فيا ويلتأ للشعر تُرمي جماره

ويا بُعد ما بيني وبين المَحْصَبِ

وكان عبد الجليل منطفاً بما يقول، يجري على لسانه المقول. حدثنا غير واحد من شيوخنا رحمهم الله، منهم سلطان بن نسيه أبو عبد الملك بن عبد العزيز، والوزير الكاتب أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن عميرة، والفقير القاضي بجزيرة شقر أبو يوسف يعقوب بن طلحة، قالوا: حدثنا الوزير أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة قال: لقيت الشاعر أبا محمد عبد الجليل بين لورقة والمرية، فبتنا نتناشد الأشعار، وتناكر الآداب والأخبار؛ فلما انفجر عمود الصباح، وحيعل داعي الفلاح؛ وكان العدو على مقربة من البلاد، والناس في ضروب من الخوف والأنكاد؛ سرنا وفؤاد عبد الجليل يطير فرقاً، وفرائضه ترعد قلقاً؛ فأخذت أسكن روعه بأناشيد من القريض، وهو لما داخله من الوجع كالمندف المريض؛ لا ييدي ولا يعيد، إلى أن اطلعت لنا اليد؛ مشهدين وعليهما رأسان يخاطبان، من الحال بأفصح لسان؛ فقلت مرتجلاً، والركب يجد السير من الفزع عجلاً:

ألا رُبَّ رأسٍ لا تزاورَ بينه

وبين أخيه والمزارِ قَرِيبُ

أنافَ به صلدُ الصفا فهو منبَرُ

وقام على أعلاه وهو خطيبُ

فتاب لعبد الجليل عقله، وآب إليه ذكاؤه ونبله، فقال:

يقول حذاراً لا اغتراراً فطالما

أناخ قَتِيلُ بي ومرَّ سَلِيبُ

ويُئشِدنا: إنا غريبان هاهنا

وكلُّ غريبٍ للغريب نسيبُ

فإن لم يَزِرْه صاحبٌ أو خَلِيلُهُ

فقد زاره نَسْرٌ هناك وذيبُ

فها هو: أما منظراً فهو ضاحك

إليك وأما نَصْبَةً فكَئيبُ

يريد بقوله "أما منظراً فهو ضاحك" أن ذلك الرأس قد ذهبته عنه جلده بطول بلاه، فهو بحسب مرآه كأنه ضاحك، وبحسب معناه كأنه كئيب. ولم يذكر "الفتح" منها في "قلائده" لعبد الجليل سوى بيت، هو قوله:

يقول حذاراً لا اغتراراً فطالما

أناخ قَتِيلُ بي ومرَّ سَلِيبُ

وانه قتل من ساعته كما ذكرناه، والله الموفق لا رب سواه؛ فما أتم قوله إلا وعجاجة قد ارتفعت، وكتيبة قد طلعت؛ فما انجلت إلا وعبد الجليل قتيل وأنا سليب، وهذا فآل عجيب، وافقه قدر مصيب.
قال ذو النسيين، رضى الله عنه: ومن شعراء الأندلس الذين أنجدت بأقوالهم الحداة وأهمت، واعرقت بها الرواة وأشامت، الأديب:

أبو جعفر أحمد بن محمد البتي

إلا انه كان حبيث اللسان، ما كف هجوه عن إنسان، ما برح مدة حياته منتزحاً عن الأوطان، خائفاً مترقباً من السلطان؛ لما شهد به الناس عليه، ونسبوه إليه؛ من الزندقة والإلحاد، وإنكار حشر الأجساد؛ وانكبابه على الاشتغال بكتب ابن سينا وانكفافه، وميله عن الكتاب والسنة وانحرافه؛ وقد وجد هالكا في حفرة تنمق فيها اللحم والجلود، وتنهشها الحشرات العابثة والدود، ويتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيتوب ولا مرجع إلى الدنيا ولا مردود.

فمن مليح ما حدثنا عنه، وسمعه أشياخنا منه؛ أنه ساقته يوماً سواك الأقدار، في بعض الأسفار؛ وقد ولى شباب النهار؛ إلى خان بمغيلة من أنظار فاس، تأوي إليه الغرباء من الناس؛ فتبوا من بيوته أخرجها، وأهجتها وأسمجها. وكان من معاصريه الأستاذ أبو بكر اليكي وكان مثله في أخذ الأعراس والهجاء، والتقدم بين فرسان تلك الهيجاء؛ وكل واحد منهما على لقاء صاحبه حريص، بيد أن ماله عن ملازمة مركزه محيص. فبينما ابن البتي جالس بذلك البيت وقد انسدت ستور الظلام، وهمعت دموع الغمام؛ إذ هجم عليه لتوقي المطر رجل فسلم وجلس، وأذكى الخاني القبس، فقال أبو بكر اليكي:

مُحِيًّا مِنْ أَحِبِّ إِذَا تَجَلَّى

وَقِنْدِيلٍ كَأَنَّ الضَّوَاءَ مِنْهُ

فأجابه أبو جعفر بن البتي بقوله:

فَشَمَّرَ ذَيْلَهُ فَرَقًا وَوَلَّى

أَشَارَ إِلَى الدُّجَى بِلِسَانٍ أْفَعَى

فقال: أنت البتي! فقال: أنت اليكي! فتعانقا وباتا يقتطفان ثمر السمر، إلى أن غارت النجوم وغاب وجه القمر.

ومن شعراء المعتصم بالله أبي يحيى محمد بن معن بن أبي يحيى محمد بن صمادح التجيبي، صاحب مدينة المرية وأعمالها السنوية: الأديب

أبو القاسم الأسعد بن إبراهيم

فمن شعره:

سَكَرَانَ لَا أُدْرِى وَقَدْ وَافَى الْكَرَى
تَتَنَفَّسُ الصُّهْبَاءُ فِي لَهَوَاتِهِ
وَكَأَنَّمَا الْخَيْلَانُ فِي وَجَنَاتِهِ
أُ مِنْ الْمَلَاخَةِ أَمْ مِنَ الْجَرِيَانِ
كَتَنَفَّسُ الرِّيحَانَ فِي الْأَصَالِ
سَاعَاتُ هَجْرٍ فِي زَمَانٍ وَصَالِ

وله أيضا:

لَبَسُوا مِنَ الزَّرْدِ الْمُضَاعَفِ نَسْجُهُ
صَفٌّ كَحَاشِيَةِ الرَّدَاءِ يَوْمَهُ
مَاءٌ طَفَّتْ لِلْبَيْضِ فِيهِ حَبَابُ
صَفٌّ الْقَنَاءِ فَكَأَنَّهُ هُدَّابُ

وهذا من قول عبد الجليل بن وهبون في ابن عباد، وقد تقدم:

كَأَنَّمَا الْبَحْرُ عَيْنٌ أَنْتَ نَاطِرُهَا
وَقَالَ أَبُو إِسْحَاقَ الْخَفَاجِي:
وَكُلُّ شَطٍّ بِأَشْخَاصِ الْوَرَى شُفْرُ
وَعَدَّتْ تَحْفٌ بِهِ الْغُصُونُ كَأَنَّهَا

وهذا من قول شعراء الأندلس، وأصحاب ممالكها الدرس، الأديب الكاتب:

أبو حفص ابن برد

أحمد بن محمد بن أحمد بن برد

مولى أبي عامر بن شهيد المبدع في التشبيه والتمثيل، والبارع في المحاكاة والتخييل، من أهل بيت جليل. له رسالة في السيف والقلم والمفاخرة بينهما، وهو أول من سبق إلى القول في ذلك بالأندلس. وله في النرجس، وأهل الأندلس يسمونه البهار، واسمه في اللغة العبهر:

تَنَبَّهَ فَقَدْ شَقَّ الْبَهَارُ مَغْلَسًا
مَدَاهِنُ تَبْرٍ فِي أَنْامِلِ فِضَّةٍ
كَمَائِمَهُ عَنْ نُورِهِ الْخَضِيبِ النَّدِيِّ
عَلَى أذْرُعِ مَخْرُوطَةٍ مِنْ زَبْرُجْدٍ

وهذا من مליح التشبيهات في النرجس، وبديعها وغريبها وصنيعها. وأكثر ما تواردت خواطر الشعراء على تشبيهه بالعيون المراض، كقول أبي عبد الله محمد بن الحسن الكاتب من شعراء جزيرة صقلية، أعادها الله بعزته على الإسلام:

بِخَدِّكَ أَسٌّ وَتَفَاحَةٌ
وَرِيفُكَ مِنْ طَيِّبِهِ قَهْوَةٌ
وَعَيْنُكَ نَرْجِسَةٌ ذَابِلَةٌ
فَوَجُّهُكَ لِي دَعْوَةٌ كَامِلَةٌ

وقال آخر من أهل العصر:

غَزَالَ لَهُ فِي كُلِّ عَضْوٍ مَحَاسِنٌ
فَوَجَنَّتُهُ وَرَدَّ وَعَيْنَاهُ نَرْجِسٌ
يَقُومُ لَخَلَّاعِ الْعِدَارِ بِهِ الْعُدْرُ
وَمَبْسِمِهِ كَأْسٌ وَرَيْقَتُهُ خَمْرٌ

وهو تشبيه غير أنيق، إذا حك بمحك التحقيق؛ لأن بين نرجس الحدائق والأحداق، الموصوفة بالدعج وتكحيل الآماق؛ من التباين ما بين الأضداد، وليس يحسن أن تحل الصفرة في موضع السواد؛ فتشبيهه بعيون الهرر أولى من تشبيهه بعيون الناس، في حكم القياس. وإنما حسن تشبيهه بذلك لموضع إحاطة البياض بالصفرة، كإحاطة بياض العين بسوادها فقط. وليس تشبيههم الحدود بالورد من هذا النمط؛ فإنها تشبهها في تضرجها بالحمرة ونعومتها، ونداها ونضرتها. وكذلك الأقاح بالثغور. والأقاح: جمع الأقحوان؛ لأن له ورقا أبيض يشبه الثغر به. وقد لاحظنا في هذا المعنى ما لم نعلم أحداً ممن عني بنقد الشعر قبلنا لاحظته، ولا كشف قناع معناه.

ولأبي نواس مقاطيع في تفضيل النرجس على الورد، منها المقطوع الذي أوله:

أين الخدودُ من العيون نفاسَةً
ورياسةً لولا القياسُ الفاسدُ

اللغة: يقال: أحضلت الشيء: إذا بللته، وخضل، أي رطب - ولا ين برد هذا:

لما بدا في اللازورِ
كبرتُ من فرط الجمَا
ديّ الحريرِ وقد بهرِ
ل وقلت ما هذا بشرِ
فأجابني لا تتكرنُ
ثوبَ السماء على القمرِ

وأشعدي الوزير الكاتب الناظم، الناثر أبو بكر عبد الرحمن بن محمد بن مغاور بمثله بمدينة شاطبة قال: أنشدنا الفقيه الأجل، العالم الأكمل، الزاهد الأفضل قاضي القضاة، وعلم الرواة، أبو علي محمد بن حسين الصدفي، يعرف بابن سكرة، قال: أنشدنا الفقيه الأجل أبو زيد عبد الرحمن بن شاطر السرقسطي لنفسه، وكان نسيج وحده، وشاعر بلده:

ولائمةٍ لي إذ رأنتي مُشمرًا
تقول تنبهه ويك من ردة الصبَا
أهرولُ في سُبُلِ الصبا خالعِ العُدْرِ
فقد دبَّ صبُحُ الشيبِ في غسقِ الشُعْرِ
فقلت لها كُفّي عن العتبِ واعلمي
بأنَّ ألدَّ النومِ إغفاءةُ الفجرِ

وتسك هذا الرجل في آخر عمره، وراجع بصيرته في مستأنف أمره.
 وأنشدني غير واحد من شيوخي - رحمهم الله - للأديب العالم أبي علي إدريس ابن اليمان من أهل جزيرة
 يابسة، وقد رأيت هذه الجزيرة، وهي ضد اسمها، لكثرة شجرها وخصبها.
 وقد أجاز لنا الثقة أبو الفتح محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سلمان، نسيب ابن البطي، وابن ينيان
 الحمداني، قالوا: أنبأنا الإمام العالم أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي، قال: أنشدني عنه أبو عثمان
 خلف بن هرون القطيني من قصيدة طويلة يمدح بها إقبال الدولة على بن مجاهد العامري:

ثقلت زجاجاتُ أتننا فرغاً حتى إذا ملئت بصرف الراح
 خفت فكادت تستطير بما حوت وكذا الجسم تخفُّ بالأرواح

قال الحميدي: ومما يستحسن له في صفة الدرق:

إلى موشجة الأبخار من درق يكاد منها صفاً الفولاذ ينفطر
 مؤنثات ولكن كلما قرعت تأنث الرُمح والصمصامة الذكر

وأنشدنا الفقيه الأستاذ المحرز لقصب السبق في كل خير، أبو بكر محمد بن خير، قال: أنشدنا غير واحد،
 قالوا: أنشدنا الوزير أبو الحسين سراج بن عبد الملك ابن سراج، كبير دار الخلافة، المنفرد بالشرف
 والإنافة؛ يخاطب الملك الراضي ابن المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد.
 قال ذو النسيب رضي الله عنه: وقد أدركت جماعة من أصحاب أبي الحسين ابن سراج، ورحلت إلى
 قرطبة أم بلاد الأندلس، فأنشدني الشيخ الفقيه المحدث المؤرخ القاضي بأركش أبو القاسم بن بشكوال،
 قال: أنشدنا أبو القاسم خلف بن عمر صاحبنا، قال: أنشدنا أبو الحسين بن سراج لنفسه:

بث الصنائع لا تحفل بموقعها من آمل شكر الإحسان أو كفر
 فالغيث ليس ببالي أينما انسكبت منه الغمام ترباً كان أو حجراً

قيدنا "بث الصنائع" بفتح الثاء، إذ الفتحة أخف الحركات والعرب تؤثرها. ويجوز كسر الثاء لالتقاء
 الساكنين، كما روى النحويون بيت الحرير:

فغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

فجوزوا كسر الضاد من "غض" لالتقاء الساكنين، وفتحها لحنة الفتحة، وضمها على اتباع الضمة قبلها
 وهو أضعفها. وله نظائر في النحو كثيرة.

وأنشدونا له أيضاً:

قالوا به صُفْرَةٌ عابت محاسنَه

فقلتُ ما ذاك من داء به نَزَلَا

عَيْنَاهُ تُطَلِّبُ مِنْ ثَأْرٍ بِمَا قَتَلَتْ

فليس تَلْقَاهُ إِلَّا خَائِفًا وَجِلًّا

وأشردونا للفقهاء الأجل المؤرخ صاحب الرحلة المذكورة، والتصانيف المشهورة، أبي الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، المعروف بابن الفرضي، القاضي بمدينة بلنسية:

إِنَّ الَّذِي أَصْبَحَتْ طَوْعَ يَمِينِهِ

إِنْ لَمْ يَكُنْ قَمْرًا فَلَيْسَ بِدُونِهِ

ذُلِّي لَهُ فِي الْحُبِّ مِنْ سُلْطَانِهِ

وَسَقَامَ جِسْمِي مِنْ سَقَامِ جَفُونِهِ

ومن اشتهر عندنا بالشعر والأدب، ونظم منه مثل. الدرر وصاغ سببه الذهب، إلا أنه أفرط في الإقذاع في الهجو فهجر لهذا السبب:

أبو بكر يحيى بن سهل اليكبي

ويكة بياء مثناة باثنتين من أسفل: حصن في جوف مدينة مرسية، على خمسة وأربعين ميلا منها، وتشتبه بيكة، بالباء بواحدة من أسفل. وهي على مقربة من جزيرة طريف على ساحل البحر الملح، رأيتها غير مرة.

فمن قوله في الغزل مما أنشدنيه جماعة من أصحابه:

وقائل فيم لم تهجع فقلت له

كيف الهجوع بطرف نافر الوسن

لم يدر أن الكرى الممنوع عن بصري

تلك السنات التي في مقلتي حسن

وله:

يوسف يا بُغْيَيْتِي وَأَنْسِي

صيرني مُغْرَمًا هَوَاكَا

ملكْتِ قلبي وَأَنْتِ فِيهِ

كيف حَوَيْتِ الَّذِي حَوَاكَا

ومن قدماء شعراء صاحب الأندلس، أبي المطرف عبد الرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان:

يحيى بن حكيم الغزال

القاعد على كيوان، شاعر ذلك الأوان؛ وقد اثبت له من قوله ما يشهد بإبداعه، وحسن تصرفه في المعاني واختراعه، وطول يده في الأدب وامتداد باعه. فمن قوله فيما ذكره تمام بن علقمة في تاريخه:

بَعْضَ تَصَابِيكِ عَلَى زَيْنَب

لَا خَيْرَ فِي الصَّبْوَةِ لِلْأَشْيَبِ

وأفيةً تصبُو إلى الرَّبِّربِ
كالمُهْرَةِ الضَّامِرِ لم تُركَبِ

أبعد خمسينَ تقضِيَّتَها
كلَّ رَدَّاحِ الرَّدْفِ خُمُصَانَةٍ

وفيه تشبيب حسن كثير اختصرناه لطوله، وقال في المديح منه:

الوارثَ المَجْدَ أبا عن أبِ
قصدتُ في القولِ فلم أَطْنِبِ
أذكرتَنَّا من عُمَرَ الطَّيِّبِ
إليكِ قد حنَّ إلى المغربِ
إليكِ بالسَّهْلِ وبالمرْحَبِ
وكان من قبلك لم يَطْرِبِ
طارَ لَوَافِي خَطْفَةِ الكوكَبِ
ليست لحامي الغابَةِ المُغْضَبِ
إلا التماحِ الخائفِ المُذنبِ

مَنْ مُبْلَغُ عَنِّي إِمَامَ الهُدَى
أَنِّي إِذَا أَطْنَبَ مَدَّاحُهُ
لَا فَكَّ عَنِّي اللهُ إِنْ لَمْ تَكُنْ
وَأصْبَحَ المَشْرِقُ مِنْ شوقِهِ
منبرُهُ يَهْتَفُ مِنْ وَجْدِهِ
أَطْرَبَهُ الوَقْتُ الَّذِي قَدْ دَنَا
هَفَا بِهِ الوَجْدُ فلو منبرٌ
إلى جَمِيلِ الوَجْهِ ذِي هَيْبَةٍ
لَا يُمَكِّنُ النَّاظِرَ مِنْ رُؤْيَةٍ

كنا نعجب بقول البحترى ونستغربه في قوله لجعفر المتوكل:

في وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ المنبرُ

فلو أَنَّ مَشْتاقًا تَكَلَّفَ غَيْرَ مَا

حتى إذا رأينا قول الغزال، وعلما انه سبق إليه بزمانه، على أن البحترى استحققه أيضا بإحسانه، لأنه أتى بالمعنى في بيت واحد، واختصره اختصارا حسنا. كما أن قول الغزال:

إلا التماحِ الخائفِ المُذنبِ

لَا يُمَكِّنُ النَّاظِرَ مِنْ رُؤْيَةٍ

حسن جدا في معنى الهيبة، وقد أخذه منهم محمد بن أبي الحسن، فقال و أحسن، وزاد في المعنى وبين:

نُطَّأُطِي لَهَا بِالرُّعْبِ كُلِّ الأَحْيَانِ

كَأنا مِنَ الإِجْلالِ تَحْتَ غَمَامَةٍ

لِسَانُ يُقَوِّينَا بِعُذْرٍ مُبَايِنِ

كَأنا قُرْفِنا بِاجْتِرامِ وَمالِنا

ولبعض أهل البلاد من قصيد يمدح به أمير المسلمين علياً:

لَهَا ما تُلِيحُ الشَّهْبُ فِي الخَفَّانِ

أراكِ مَلَأْتَ الخافِقِينَ مَهابةً

تُقَابِلُ مِنْكَ الشَّمْسُ فِي اللَّمَعانِ

وتُغْضِي العيونُ عَن سَنّاكَ كَأَنَّها

ولو سقنا جميع ما لأهل قطرنا في مثل هذا لخرجنا عن غرضنا. فلنرجع إلى شعر الغزال فإنه قال في آخره:

لم اجمع المال ولم اكسب
تلتمس الربح ولا ترغب
إن كان رأس المال لم يذهب

إن ترد المال فإني امرؤ
إذا أخذت الحق مني فلا
قد أحسن الله إلينا معا

والسبب في نظم هذا الشعر أن أبا المطرف عبد الرحمن المذكور كان ولاءه قبض الأعشار ببلاط مروان واختزائها في الأهراء. وكان توسل إليه بمدح مدحه به، فنفق الطعام في ذلك العام، وسما السعر بالقحط سموا كثيرا، فوضع يده في البيع حتى أتى على ما كان عنده في الأهراء. ثم إنه نزل الغيث ورخص الطعام، فأعلم السلطان بما صنع الغزال من البيع، فأنكره وقال: إنما تعد الأعشار لنفقات الجند والحاجة إليها في الجهد، فماذا صنع الخبيث! خذوه بأداء ما باع من أثمانها واشتروا به طعاما، واصرفوه في الأهراء إلى وقت الحاجة إليه. فلما طلب منه ثمن ما باع أبي من ذلك وقال: إنما اشتري لكم من الطعام عدد ما بعث من الإمداد، وبين العديدين بون كثير نحو من ثلاثين ألفا. فأعلم السلطان بامتناعه من الأداء، وبما ذهب إليه من شراء مثل ما باع. فأمر بسجنه وحمله إليه في الكبل، فسيق منها إلى قرطبة، وسجن بها فصنع هذا القصيد، ورفع إليه. فلما قرئ شعره أعجب به، وأعجب به الحاضرون، وقال له بعضهم: لقد أنصفك الغزال في قوله:

إن كان رأس المال لم يذهب

قد أحسن الله إلينا معاً

فإنه لو ذهب أيها الإمام، أي ذمة كانت تفي به للغزال، مع ما هو عليه من الاهتمام في الشهوات وقلة المال! فضحك الإمام وأمر بإطلاقه. وكان عبد الرحمن من أهل العلم، متمسما بالكرم والحلم، قديرا على النثر والنظم. له غلام جميل كان له، اسمه بدر:

ف بدأ بصفحته العذار
م بدأ به طرف السرار

أنظر إلى بدرٍ وكي
فكأنه بدرُ التما

وقال ذو النسيين رضي الله عنه: وأنشدني الوزير الكاتب أبو عبد الله محمد ابن أبي القاسم بن عميرة، قال: أنشدني ذو الوزارتين أبو محمد قال: أنشدني أبي ذو الوزارتين أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج اللورقي في ذم العذار:

لُ فأظهرَ خدك لبسَ الحدادِ
ع فأصبحَ ينبتُ شوكَ القتادِ
ء يُدرِكُ بالكونِ أو بالفَسادِ

أبا جعفر مات فيك الجما
وقد كان ينبت نور الربّي
أبن لي متى كان بدرُ السّما

سِ فَأَخْشَى عَلَيْكَ لِبَاسَ السَّوَادِ

وَهَلْ كُنْتَ فِي الْمَلِكِ مِنْ عَبْدِ شَمِ

وَفِي ضِدِّهِ قَوْلُ الْأَسْتَاذِ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ سَارَةَ فِي مَدْحِهِ:

فَقَلُّوْبُنَا وَجَدًّا عَلَيْهِ رِقَاقُ

وَمُعَذَّرِ رَقَّتْ حَوَاشِي حُسْنِهِ

نَفَضْتَ عَلَيْهِ صِبَاغَهَا الْأَحْدَاقُ

لَمْ يُكْسَ عَارِضُهُ السَّوَادَ وَإِنَّمَا

وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْعَرِيبِ الْعَجِيبِ.

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا رَأَيْتُ فِيهِ مِمَّا انْفَرَدَ قَائِلُهُ بِمَعْنَاهُ، وَلَمْ يَشْرِكْ فِيهِ أَحَدٌ سِوَاهُ، قَوْلُ أَبِي مَرْوَانَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُرَيْيَةَ الْبَلَنْسِيِّ:

لَمَّا دَنَا مِنْ لَثَمٍ فِيهِ الْأَشْنَبِ

دَبَّ الْعِذَارُ بِخَدِّهِ ثُمَّ انْتَنَى

فَالرِّيقُ سُمٌّ قَاتِلٌ لِلْعَقْرَبِ

لَا غَرَوَ إِنْ خَشِيَ الرَّدَى فِي لَثَمِهِ

وَمَا أوردناه في العذار من النظم، هو من المعاني العقم، وإنما اجْتُلبتْ هذه الأبيات صلةً لأبيات السلطان عبد الرحمن والشَّيْءُ يذكر بمثله، تغمَّدنا الله بفضله.

وَلَمَّا وَقَدَّ عَلَى السَّلْطَانَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ رُسُلُ مَلِكِ الْحَبُوسِ تَطَلَّبُ الصَّلْحِ بَعْدَ خُرُوجِهِمْ مِنْ إِشْبِيلِيَّةِ، وَإِيقَاعِهِمْ بِجِبْهَاتِهَا ثُمَّ هَزِيمَتِهِمْ بِهَا، وَقَتْلُ قَائِدِ الْأَسْطُولِ فِيهَا، رَأَى أَنْ يِرَاجِعَهُمْ بِقَبُولِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ الْغَزَالَ أَنْ يَمْشِيَ فِي رِسَالَتِهِ مَعَ رُسُلِ مَلِكِهِمْ، لَمَّا كَانَ الْغَزَالُ عَلَيْهِ مِنْ حِدَّةِ الْخَاطِرِ، وَبِدِيهَةِ الرَّأْيِ، وَحَسَنِ الْجَوَابِ وَالنَّجْدَةِ وَالْإِقْدَامِ وَالِدُخُولِ وَالْخُرُوجِ مِنْ كُلِّ بَابٍ، وَصَحْبَتِهِ يَحْيَى ابْنَ حَبِيبٍ، فَنَهَضَ إِلَى مَدِينَةِ شَلْبِ، وَقَدْ أَنْشَأَ لِهَمَّا مَرْكَبَ حَسَنِ كَامِلِ الْأَلَّةِ، وَرَوَّجَعَ مَلِكِ الْحَبُوسِ عَلَى رِسَالَتِهِ وَكَوْفَى عَلَى هَدِيَّتِهِ، وَمَشَى رَسُولُ مَلِكِهِمْ فِي مَرْكَبِهِمُ الَّذِي جَاءُوا فِيهِ مَعَ مَرْكَبِ الْغَزَالِ، فَلَمَّا حَازُوا الطَّرْفَ الْأَعْظَمَ الدَّاخِلَ فِي الْبَحْرِ الَّذِي هُوَ حَدُّ الْأَنْدَلُسِ فِي آخِرِ الْغَرْبِ، وَهُوَ الْجَبَلُ الْمَعْرُوفُ بِاللُّوِيَّةِ هَاجَ عَلَيْهِمُ الْبَحْرُ، وَعَصَفَتْ بِهِمْ شَدِيدَةٌ وَحَصَلُوا فِي الْحَدِّ الَّذِي وَصَفَ الْغَزَالُ فِي قَوْلِهِ:

نَا بَيْنَ مَوْجٍ كَالْجِبَالِ

قَالَ لِي يَحْيَى وَصِرَ

مِنْ دَبُورٍ وَشَمَالِ

وَتَوَلَّتْنَا رِيَاخَ

بَنَّتْ عُرَا تِلْكَ الْحِبَالِ

شَقَّتْ الْقَلْعَيْنِ وَأَنْ

تَ إِلَيْنَا عَنْ حِيَالِ

وَتَمَطَّى مَلِكُ الْمَوِ

فَرَأَيْنَا الْمَوْتَ رَأَى الْعَيْنَ حَالًا بَعْدَ حَالِ

لم يكن للقوم فينا

يا رفيقي رأس مال

وهذا القصيد يجول عليه رونق الانطباع، وهو القريب غير المستطاع؛ ورأيت له في الغزل من هذا القصيد معنى انفراد باختراعه، وأبداع ما شاء في إبداعه، وهو قوله:

وسلّمي ذات زهدٍ

في زهدٍ من وصالٍ

كلّما قلت صليبي

حاسبتني بالخيال

وهذا اختراع عجيب، ومعنى غريب. وزاد فيه بعد ذلك، فقال:

والكرى قد منعتهُ

مُقلتي أخرى اللبالي

وهي أدرى فلماذا

دأفتني بمحال

أتراني أقضيتها

بعدُ شيئاً من نوال

ثم أن الغزال سلم من هول تلك البحار، وركوب الأخطار؛ ووصل أول بلاد الجوس إلى جزيرة من جزائرها فأقاموا فيها أياماً وأصلحوا مراكبهم، وأجموا أنفسهم. وتقدم مركب الجوس إلى ملكهم، فأعلمه بلحاق الرسل معهم، فسر بذلك ووجه فيهم، فمشوا إليه إلى مستقر ملكه، وهي جزيرة عظيمة في البحر المحيط، فيها مياه مطردة وجنات، وبينها وبين البر ثلاث بحار، وهي ثلاثمائة ميل، وفيها من الجوس ما لا يحصى عددهم. وتقرب من تلك الجزيرة جزائر كثيرة. منها صغار وكبار، أهلها كلهم مجوس، وما يليهم من البر أيضاً لهم مسيرة أيام، وهم مجوس، وهم اليوم على دين النصرانية وقد تركوا عبادة النار، ودينهم الذي كانوا عليه، ورجعوا نصارى إلا أهل جزائر منقطعة لهم في البحر هم على دينهم الأول من عبادة النار، ونكاح الأم والأخت وغير ذلك من أصناف الشنار. وهؤلاء يقاتلونهم ويسبونهم. فأمر لهم الملك بمثل حسن من منازلهم، وأخرج إليهم من يلقاتهم، واحتفل الجوس لرؤيتهم. فرأوا العجب العجيب من أشكالهم وأزيائهم. ثم إنهم انزلوا في كرامة، وأقاموا يومهم ذلك، واستدعاهم بعد يومين إلى رؤيته، فاشتراط الغزال عليه ألا يسجد له ولا يخرجهما عن شيء من سنتهما، فأجبهما إلى ذلك. فلما مشيا إليه قعد لهما في أحسن هيئة، وأمر بالمدخل الذي يفضي إليه، فضيق حتى لا يدخل عليه أحد إلا راکعاً، فلما وصل إليه جلس إلى الأرض وقدم رجله وزحف على أليته زحفة، فلما جاز الباب استوى واقفاً. والملك قد أعد له وأحفل في السلاح والزينة الكاملة. فما هاله ذلك ولا ذعره، بل قام ماثلاً بين يديه، فقال: السلام عليك أيها الملك وعلى من ضمه مشهدك، والتحية الكريمة لك، ولازلت تمتع بالعز والبقاء والكرامة الماضية بك إلى شرف الدنيا والآخرة، المتصلة بالدوام في جوار الحي القيوم، الذي كل شيء

هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه المرجع. ففسر له الترجمان ما قاله، فأعظم الكلام، وقال: هذا حكيم من حكماء القوم، وداهية من دهاهم، وعجب من جلوسه إلى الأرض وتقديمه رجله في الدخول، وقال: أردنا أن نذله، فقابل وجوهنا بنعليه! ولولا انه رسول لأنكرنا ذلك عليه. ثم دفع إليه كتاب السلطان عبد الرحمن وقرئ عليه الكتاب، وفسر له. فأستحسنه وأخذه في يده، فرفعه ثم وضعه في حجره، وأمر بالهدية ففتحت عياهما، ووقف على جميع ما اشتملت عليه من الثياب والأواني! فأعجب بها، وأمر بهم فانصرفوا إلى منزلهم ووسع الجراية عليهم.

ولللغزال معهم مجالس مذكورة، ومقاوم مشهورة؛ في بعضها جادل علماءهم فبكتهم، وفي بعضها ناضل شجعانهم فأثبتهم.

ولما سمعت امرأة ملك الجوس بذكر الغزال وجهت فيه لثراه، فلما دخل عليها سلم، ثم شخص فيها طويلاً ينظرها نظر المتعجب. فقالت لترجمانها: سله عن إدمان نظره لماذا هو؟ أ لفرط استحسان أم لضد ذلك؟ فقال: ما هو أي لم أتوهم أن في العالم منظرًا مثل هذا، وقد رأيت عند ملكنا نساء انتخبن له من جميع الأمم فلم أر فيهن حسناً يشبه هذا. فقالت لترجمانها: سله أجد هو أم هازل؟ فقال: لا، بل مجد. فقالت له: فليس في بلدكم إذا جمال! فقال الغزال: فاعرضوا علي من نسائكم حتى أقيسها بها. فوجهت الملكة في نساء معلومات بالجمال فحضرن، فصعد فيهن و صوب ثم قال: فيهن جمال وليس كجمال الملكة، لأن الحسن الذي لها والصفات المناسبة ليس يميزه كل أحد، وإنما يعني به الشعراء، وإن أحببت الملكة أن أصف حسننها وحسبها وعقلها في شعر يروي في جميع بلادنا فعلت ذلك. فسرت بذلك سروراً عظيماً وزهيت، وأمرت له بصلة، فامتنع من أخذها الغزال، وقال: لا أفعل. فقالت لترجمان: سله، لم لا يقبل صليتي؟ أ لأنه حقرها أم لأنه حقرني؟ فسأله، فقال الغزال: إن صلتها جزيلة، وإن الأخذ منها لتشرف لأنها ملكة بنت ملك، ولكن كفاني من الصلة نظري إليها وإقبالها علي، فحسبي ذلك صلة. وإنما أريد أن تصلني بالوصول إليها أبداً. فلما فسر لها الترجمان كلامه زادت منه سرورا وعجبا، وقالت: تحمل صلتته إليه، ومتى أحب أن يأتيني زائراً فعلاً يحجب، وله عندي من الكرامة والرحب والسعة. فشكرها الغزال، ودعا لها وأنصرف.

قال تمام بن علقمة: سمعت الغزال يحدث بهذا الحديث، فقلت له: وكان لها من الجمال في نفسها بعض هذه المتزلة التي صورت؟ فقال: وأبيك، لقد كانت فيها حلاوة، ولكني اجتلبت بهذا القول محبتها، ونلت منها فوق ما أردت.

قال تمام بن علقمة: وأخبرني أحد أصحابه، قال: أولعت زوجة ملك الجوس بالغزال فكانت لا تصبر عنه

يوما حتى توجه فيه، و يقيم عندها يحدثها بسير المسلمين وأخبارهم وبلادهم، وبعن يجاورهم وبلادهم، وبعن يجاورهم من الأمم. فقلما انصرف يوما قط من عندها إلا اتبعته هدية، تلتطفه بها من ثياب أو طعام أو طيب، حتى شاع خبرها معه، وأنكره أصحابه، وحذر منه الغزال، فحذر وأعجب زيارتها. فباحثته عن ذلك، فقال لها ما حذر منه. فضحكت، وقالت له: ليس في ديننا نحن هذا، ولا عندنا غيره، ولا نساؤنا مع رجالنا إلا باختيارهن، تقيم المرأة معه ما أحببت، وتفارقه إذا كرهت. وأما عادة المحوس قبل أن يصل إليهم دين رومة، فألا يمتنع أحد من النساء على أحد من الرجال، إلا أن يصحب الشريفة الوضيع، فتعير بذلك، ويحجره عليها أهلها فلما سمع ذلك الغزال من قولها أنس إليه وعاد إلى استرساله.

قال تمام: كان الغزال في اكتهاله ويسما، وكان في صباه جميلا، ولذلك سمي بالغزال. ومشى إلى بلاد المحوس وهو قد شارف الخمسين وقد وخطه الشيب، ولكنه كان مجتمع الأشد، ضرب الجسم، حسن الصورة. فسألته يوما زوجة الملك - واسهما نود - عن سنة، فقال مداعبا لها: عشرون سنة. فقالت للترجمان: ومن هو من عشرين سنة يكون بها هذا الشيب؟ فقال للترجمان: وما تنكر من هذا؟ ألم تر قط مهراً ينتج وهو أشهب؟ فضحكت نود، وأعجبت بقوله. فقال في ذلك الغزال بديها:

كُفَّتْ يَا قَلْبِي هَوَى مُتَعَبَا	غَالِبَتْ مِنْهُ الضِّيغَمَ الْأَغْلَبَا
إِنِّي تَعَلَّقْتُ مَجُوسِيَّةً	تَأْبَى لِشَمْسِ الْحُسْنِ أَنْ تَغْرُبَا
أَقْصَى بِلَادِ اللَّهِ لِي حَيْثُ لَا	يَلْقَى إِلَيْهَا ذَاهِبٌ مَذْهَبَا
يَا نُودِ يَا رُودَ الشَّبَابِ الَّتِي	تُطَلِّعُ مِنْ أَرْزَارِهَا الْكُوكِبَا
يَا بَابِي الشَّخْصُ الَّذِي لَا أَرَى	أَحْلَى عَلَى قَلْبِي وَلَا أَعْدْبَا
إِنْ قَلْتُ يَوْمًا إِنَّ عَيْنِي رَأَتْ	مُشْبِهَهُ لَمْ أَعْدُ أَنْ أَكْذَبَا
قَالَتْ أَرَى فَوْدِيَّةً قَدْ نَوَّرَا	دُعَابَةً تُوجِبُ أَنْ أَدْعِيَا
قَلْتُ لَهَا يَا أَبَايَ إِنَّهُ	قَدْ يُنْتِجُ الْمَهْرَ كَذَا أَشْهَبَا
فَاسْتَضَحَّكَتْ عُجْبًا بِقَوْلِي لَهَا	وَإِنَّمَا قُلْتُ لَكِي تَعْجَبَا

قوله "يا رؤد الشباب" الرأدة والرؤدة والرؤد: الجارية الناعمة الجسم. وقد رؤد شبابها. والغصن الرؤد: الرطب، والشعراء يسهلون الهمزية يستهلون الهمزة منه تخفيفا فلا يكادون ينطقون بها. وقوله: "فودية قد نورا"، فالفودان: ما يلي الأذنين من الشعر. وقوله: "أن أدعبا" فإنه يقال من الدعابة: دَعِبَ، بكسر العين في الماضي، يدعب، بفتح العين في المضارع، دعبا، بفتح الدال والعين في المصدر.

وهذا الشعر لو روى لعمر بن أبي ربيعة، أو لبشار بن برد، أو لعباس بن الأحنف، ومن سلك هذا المسلك من الشعراء المحسنين لاستغرب له. وإنما أوجب أن يكون ذكره منسياً، أن كان أندلسياً؛ وإلا فما له أخمل، وما حق مثله أن يهمل. وهل رأيت أحسن من قوله: "تأبى لشمس الحسن أن تغربا"، أو كاليبت الأول من هذه القطعة، أو كصفتها لما جرى من الدعابة؟ هل وصفته إلا الدر المنتظم، وهل إلا نظلم في حقنا ومهتضم! يا لله لأهل المشرق! قوله غاص بما شرق. ألا نظروا إلى الإحسان بعين الاستحسان، وأقصروا عن استهجان الكريم الهجان عن استهجان الكريم الهجان؛ ولم يخرجهم الإزراء بالمكان عن حد الإمكان؛ لئن أرهفت بصائرهم البصرة وأرقتها الرقتان؛ فقد درجنا نحن بحيث مرج البحرين يلتقيان، فإن منهما مخرج اللؤلؤ والمرجان. وينشد ما قاله بعض شعرائنا:

نَرَا حُ لِفَضْلِ أَنْ يَكُونَ لَدَيْكُمْ فَمَا لَكُمْ تَأْبُونَ أَنْ كَانَ عِنْدَنَا
فَلَا تَحْسَدُونَا أَنْ تَلُوحَ بِأَفْئِكُمْ لَنَا طَالِعَاتٌ مِنْ هُنَاكَ وَمِنْ هُنَا
وَإِنْ كُنْتُمْ فِي الْعَدَا أَكْثَرَ مَفْخَرًا فَلَا تَظْلَمُونَا فِي الْقَلِيلِ الَّذِي لَنَا

ولنرجع إلى ذكر الغزال، فإنه لما أنشد "نود" الشعر وفسره الترجمان لها، ضحكت منه وأمرته بالخضاب. ففعل ذلك الغزال، وغدا عليها يوماً ثانياً. وقد احتضب؛ فمدحت خضابه وحستته عنده، ففي ذلك يقول الغزال:

بَكَرَتْ تُحَسِّنُ لِي سَوَادَ خِضَابِي فَكَأَنَّ ذَاكَ أَعَادَنِي لِشَبَابِي
مَا الشَّيْبُ عِنْدِي وَالْخِضَابُ لَوَاصِفٍ إِلَّا كَشَمْسٍ جُلَّتْ بِضَبَابِ
تَخْفَى قَلِيلًا ثُمَّ يَقْشَعُهَا الصَّبَا فَيَصِيرُ مَا سَتَرْتُ بِهِ لَذَهَابِ
لَا تُتَكْرِي وَضَحَ الْمَشْيِبِ فَإِنَّمَا هُوَ زَهْرَةٌ الْإِفْهَامِ وَالْأَلْبَابِ
فَلَدِي مَا تَهْوِينِ مِنْ شَأْنِ الصَّبَا وَطَلَاوَةِ الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ

ثم انفصل الغزال عنهم، وصحبه الرسل إلى شنت يعقوب بكتاب ملك المجوس إلى صاحبها. فأقام عنده مكرماً شهرين، حتى انقضى حجهم، فصدر إلى قشتالة مع الصادرين، ومنها خرج إلى طليطلة حتى لحق بحضرة السلطان عبد الرحمن بعد انقضاء عشرين شهراً ومن قوله أيضاً المتفق عليه في جميع الروايات:

يَا رَاجِيًا وَدَّ الْغَوَانِي ضِلَّةً فَفَوَّادُهُ كَلَفًا بَهَنَ مُوَكَّلُ
لَا تَكَلَّفَنَّ بُوَصْلِهِنَّ فَإِنَّمَا ال كَلِفُ الْمَحَبِّ لَهِنَّ مِنْ لَا يَعْقَلُ

فالسَّرْجُ سَرَجُكَ رِيثَمَا لَا تَنْزِلُ
ذَاكَ الْمَكَانَ وَفَاعِلٌ مَا تَفْعَلُ
عَنهُ وَيَنْزِلُ بَعْدَهُ مِنْ يَنْزِلُ
تَدْنُو لِأَوَّلٍ مِنْ يَمُرُّ فَنُؤَكِّلُ

إِنَّ النِّسَاءَ لَكَالسَّرُوجِ حَقِيقَةً
فَإِذَا نَزَلَتْ فَإِنَّ غَيْرَكَ نَازِلٌ
أَوْ مَنْزِلِ الْمُجْتَازِ أَصْبَحَ غَادِيًا
أَوْ كَالثَّمَارِ مُبَاحَةً أَغْصَانُهَا

أَعْطِ الشَّبِيبَةَ لَا أَبَالَكَ حَقَّهَا مِنْهَا فَإِنَّ نَعِيمَهَا مَتَحَوَّلٌ

عِنْدَ النِّسَاءِ بِكُلِّ مَا يَشْتَبَدَلُ

وَإِذَا سُلِّبَتْ ثِيَابُهَا لَمْ تَنْتَفِعْ

ثم إن الغزال هجا أبا الحسن علي بن نافع، الملقب بزرياب، بهجو مقذع، تخرجت من إيداعه في هذا الكتاب.

وزرياب هذا مولى الخليفة المهدي، ابن الخليفة أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب. قدم الأندلس مهاجراً إلى عبد الرحمن بن الحكم، فتلقيه بأعلى المحل، وفوض إليه أكثر أموره في العقد والحل؛ وذلك لهجرته إليه وحسن غنائه، وتناهيه في الإطراب وغنائه. وهو أول من سن في الأندلس أكل الهليون والنقاوى وقلى الفول واستعمال الأنطاع للنوم، والتحلي بالحرير والخز والمروية. وسن لباس البياض من المهرجان إلى نصف أكتوبر، وإن كان مطراً. وعلمهم الغناء واخترع النقر بالريش، وتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائتين فشكا للسلطان الغزال وعرض هجوه عليه، وما قذفه به ونسبه من الفحش إليه. فأمر السلطان بنفيه عن الأندلس. فكلمه فيه أكابر أهل دولته فتركه. ثم إن الغزال لم يطب نفساً بالمقام في الأندلس فرحل إلى العراق، وذلك بعد موت الحسن بن هانئ بمدة يسيرة، فوجدهم يلهجون بذكره ولا يساؤون شعر أحد بشعره. فجلس يوماً مع جماعة منهم فأزروا بأهل الأندلس، واستهجنوا أشعارهم؛ فتركهم حتى وقعوا في ذكر الحسن، فقال لهم: من يحفظ منكم قوله:

تَأَبَّطْتُ زِقِّي وَاحْتَسَبْتُ عَنَائِي
فَهَبَّ خَفِيفَ الرُّوحِ نَحْوَ نِدَائِي
عَلَى وَجَلٍ مَنِّي وَمِنْ نُظْرَائِي
طَرَحْتُ إِلَيْهِ رِيْطِي وَرِدَائِي
بَدَلْتُ لَهُ فِيهَا طَلَّاقَ نِسَائِي
لَهُ غَيْرَ أَنِّي ضَامِنٌ بِوَفَائِي

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّرْبَ أَكَدْتُ سَمَاؤَهُمْ
فَلَمَّا أَتَيْتُ الْخَانَ نَادَيْتُ رَبِّي
قَلِيلَ هُجُوعِ الْعَيْنِ. إِلَّا تَعَلَّةً
فَقُلْتُ أَذْقْنِيهَا فَلَمَّا أَذَاقَنِي
وَقُلْتُ أَعْرَنِي بِذَلَّةٍ أَسْتَتِرُ بِهَا
فَوَاللَّهِ مَا بَرَّتْ. يَمِينِي وَلَا وَفَّتْ

وَأَبْتُ إِلَى صَحْبِي وَلَمْ أَكُ آتِبًا

فَكُلُّ يُفَدِّينِي وَحَقَّ فِدَائِي

فأعجبوا بالشعر وذهبوا في مدحهم له كل مذهب. فلما أفرطوا قال لهم: خفضوا عليكم فإنه لي. فأنكروا ذلك. فأنشدهم قصيده الذي أوله:

تَدَارَكْتُ فِي شُرْبِ النَّبِيذِ خَطَائِي

وَفَارَقْتُ فِيهِ شِمِيئِي وَحَيَائِي

فلما أتم القصيد بالإنشاد خجلوا وافترقوا عنه.

وأقام الغزال في رحلته تلك مدة يتجول في ديار المشرق، وما انفك في كل قطر منه من غريبة يطلعها، وطريقة يبدعها؛ ثم إنه رجع إلى نفسه، وحن إلى مسقط رأسه؛ وانصرف إلى الأندلس وهو قد ترك شرب الخمر وتزهّد في الشعر وشارف الستين، وركب النهج المبين؛ ولم ينسك نسكا أعجمياً، بل ظرف ظرفاً أديباً، وسلك مسلكاً من البر مرضياً وقال في جارية اشتراها واسمها لعوب، وقد أراد منها أمراً فعجز عنه اليعسوب:

لَمْ أُنْسَ إِذْ بَرَزْتُ إِلَى لَعُوبٍ

طَرَبًا وَحَيْثُ قَمِيصُهَا مَقْلُوبٌ

وَكَأَنَّهَا فِي الدَّارِ حِينَ تَعَرَّضْتُ

ظَبِيٍّ تَدَلَّهُ بِالْفَلَا مَرْعُوبٍ

تَقْتَرُّ عَنْ دُرٍّ تَتَّاسِقُ نَظْمُهُ

فِيهِ لَثَاةٌ عَدْبَةٌ وَغُرُوبٍ

حَاوَلْتُ مِنْهَا رَشْفَةً فَكَأَنَّهَا

عَسَلٌ بِمَاءِ سَحَابَةٍ مَقْطُوبٍ

وَدَعَيْتُكَ دَاعِيَةَ الصَّبَا فَتَطَرَّبْتُ

نَفْسٌ إِلَى دَاعِيِ الضَّلَالِ طَرُوبٍ

وظننت عهدك عهدها في الدهر إذ

فَيَنَانُ غُصْنِكَ بِالشَّبَابِ رَطِيبٍ

فجريت في سنن الصبا شأواً وقد

وزعتك عنه كبرةً ومثيب

وحسبت صاحبك الذي هو ذاك إذ

تَدَعُوهُ مَهْمَا شِئْتَهُ فَيُجِيبُ

قد كان لا ينبو إذا جربته

فَالآنَ أَحْدَاثُ الزَّمَانِ تَتُوبُ

لَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ الَّذِي تَحْوُلُهُ

سَمَحَتْ فَمَالَ عَلَى الكَثِيبِ قَضِيبُ

وتأودت خمصانةً بهنائةً

كَالْفَجْرِ يعلوه دُجَى غَرِيبِ

فقبضت ملء يدي على مُسْتَهْدِفِ

رَابِيِ المَجَسَّةِ لونه حُلُوبِ

بيدي الشمال وللشمال لطافةً

لَيْسَتْ لِأُخْرَى وَالْأَدِيبِ أَرِيبِ

فَتَقَاعَسَ المَلْعُونُ عَنْهُ وَإِنِّي

لَأُكَادُ مِنْ فَرَطِ الحَيَاءِ أَدُوبِ

وَأَبِي كَعْبَرِ السَّوِّءِ إِلَّا وَقْفَةً
أَخْزَىٰ بِهَا وَالْوَرْدُ مِنْهُ قَرِيبٌ
فَكَأَنَّهُ مِمَّا تَشْنَجُ جِلْدُهُ
كَبِيرٌ تَقَادِمُ عَهْدُهُ مَنقُوبٌ

هذا شعر حسن في الهزل جزل في معانيه، دون فحش فيه. والبهانة: الطيبة الريح؛ وقد قيل: هي الرخيمة المنطق؛ وقيل فيها: الضحوك المداعبة. وكل هذا مما يليق بوصفها في تلك الحالة. وقوله "لونه حلوب". يقال للأخضر إذا اشتدت خضرته فضرب إلى السواد: حلوب. وقد أتينا من ذكر الغزال بفنون، والحديث ذو شجون. ومن الحق أن نختتم ذكره بما قال في الزهد؛ فإنه - عفا الله عنا وعنه - عمر حتى قارب مائة عام، أربي عليها، وهو القائل:

أَلَسْتَ تَرَىٰ أَنْ الزَّمَانَ طَوَّانِي
تَحْيَقْنِي عُضْوًا فَعَتَضُوا فَلَمْ يَدْعُ
وَلَوْ كَانَتْ الْأَسْمَاءُ يَدْخُلُهَا الْبَلَىٰ
وَمَا لِي لَا أَبْلَىٰ لِتَسْعِينَ حِجَّةً
إِذَا عَنَّ لِي شَخْصٌ تَخَيَّلَ دُونَهُ
فِيَا رَاغِبًا فِي الْعَيْشِ إِنْ كُنْتَ عَاقِلًا
وَبَدَّلَ خَلْقِي كُلَّهُ وَبَرَّانِي
سِوَىٰ اسْمِي صَاحِبًا وَحَدَّهُ وَلِسَانِي
لَقَدْ بَلَىٰ اسْمِي لِامْتِدَادِ زَمَانِي
وَسَبَعِ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا سَنَتَانِ
شَبِيهَ ضَبَابٍ أَوْ شَبِيهَ دُخَانِ
فَلَا وَعَظَ إِلَّا دُونَ لَحْظِ عِيَانِ

ومن قول الغزال في الزهد:

النَّاسُ خَلْقٌ وَاحِدٌ مُتَشَابِهٌ
وَيَقَالُ حَقٌّ فِي الرِّجَالِ وَبَاطِلٌ
وَلِكُلِّ إِنْسَانٍ بِمَا فِي نَفْسِهِ
يَسْتَنْتَقِلُ اللَّمَمَ الْخَفِيفَ لِغَيْرِهِ
وَيَنَامُ عَنْ دُنْيَاهُ نَوْمَةً قَانِعٌ
وَرَأَيْتُ أَلْسِنَةَ الرِّجَالِ أَفَاعِيًا
فَإِذَا سَلِمَتْ مِنَ الْمَقَالَةِ غَيْرِ مَا
لَكِنَّمَا تَتَخَالَفُ الْأَعْمَالُ
أَيُّ امْرَأٍ إِلَّا وَفِيهِ مَقَالٌ
مِنْ عَيْبِهِ عَنْ غَيْرِهِ أَشْغَالٌ
وَعَلَيْهِ مِنْ أَمْثَالِ ذَاكَ جِبَالٌ
بِنَعِيمِ دُنْيَاهُ وَذَاكَ خَيَالٌ
طَوْرًا تَنْوُرُ وَتَارَةً تَغْتَالُ
تَجْنِي فَأَنْتِ الْأَسْعَدُ الْمَفْضَالُ

ومن مفاخر الأندلس وشعرائها، وعلمائها المتقنين وكبرائها:

أبو عمر ابن عبد ربه

أحمد بن محمد بن عبد ربه

صاحب كتاب العقد الذي انجد وغار، وملاً بذكره الآفاق والأقطار. وذكر العالم المؤرخ الثقة أبو بكر الحسن بن محمد بن مفرج المعافري القرطبي - يعرف بالقبشي - لسكناه بها، في كتابه الذي سماه بكتاب الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال، الذي حدثنا به الحدّث العدل أبو القاسم بن بشكوال، عن الحافظ الثقة أبي محمد بن يربوع عن الثقة أبي محمد بن خزرج عنه، قصة جرت لابن عبد ربه، مع الكاتب أبي حفص عمر بن قلهيل في التسمع على جاريتيه مصابيح. واتفق أن اجتاز أحمد بن محمد بن عبد ربه بدار أبي حفص عشية ففرغ سمعه من طيب الغناء ما استوقفه، وأراد الدنو من الباب. وقيل، إنه صب عليه من العلية ماء بل ثيابه، فلم يردعه ذلك عن طلب الازدياد في السماع. فعدل إلى مسجد بقرب الدار، وسأل المعلم فيه أن يأتيه بدواة وبياض يكتب فيه، فجاءه بهما فكتب، إلى قلهيل رقعة فيها: بسم الله الرحمن الرحيم. طاولتكَ النعم وطالت بك. إنا لمسنا سماءَ لهوك، "فَوَجَدْنَهَا مُلْتِ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهْبًا. وَأَنَا كُنَّا نَقَعُدُّ مِنْهَا مَقْعَدًا لِّلسَّمْعِ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ" ... إلى آخر الآية. وفي ذلك أقول:

يا مَنْ يَضُنُّ بِصَوْتِ الطَّائِرِ الْغَرْدِ ما كُنْتُ أَحْسَبُ هَذَا الضَّنَّ فِي أَحَدٍ
لو أَنَّ أَسْمَاعَ أَهْلِ الْأَرْضِ قَاطِبَةٌ أصغْتُ إِلَى الصَّوْتِ لَمْ يَنْقُصْ وَلَمْ يَزِدْ
لو لا اتقائي شهباباً منك يُحرقني بناره لا سترقتُ السَّمْعَ من بُعْدِ
لو كان زريابُ حياً ثم أسمعهُ لماتَ من حَسَدٍ أو ذابَ من كَمَدِ
فلا تَضَنَّ عَلَى أذني تُقَرِّطها صوتاً يَجُولُ مِجالَ الرُّوحِ فِي الجَسَدِ
أما الشَّرابُ فَإِنِّي لست أَقربهُ ولستُ أَتِيكَ إِلا كِسرَتي بيدي

وسأل البواب فأوصل الرقعة إليه، فلما قرأها وعرف موضعه جاء حافياً إليه، وسأله الحضور ففعل. ثم قال ممازحاً: هات الكسرة التي زعمت أنك ترفع عنا مئونها. فقال: أنصرف فأتيتك بها. فأقام أحمد عنده أياماً. وقد ذكر هذه الحكاية الحميدي في جذوة المقتبس له مبتورة مصحفة. وزرياب عندهم كان يجري مجرى الموصل في الغناء، وله طرائق أخذت عنه، وأصوات أستفادت منه. وقدمناه ذكره عند ذكر الغزال، وسقنا خبره. ومن شعر ابن عبد ربه:

الجِسمُ فِي بِلَدِ وَالرُّوحُ فِي بِلَدِ يا وَحِشَةَ الرُّوحِ بِلِ يا عُربَةَ الجَسَدِ

إِن تَبَكَ عَيْنَاكَ لِي مَن كَفَّتْ بِهِ

مِن رَحْمَةٍ فَهُمَا سَهْمَاكَ فِي كَبِدِي

قال الحميدي: ومما أنشدنيه من شعره أبو محمد علي بن أحمد، واخبرني أن بعض من كان يألفه أزمع على الرحيل في غداة ذكرها، فأتت السماء في تلك الغداة بمطر جود حال بينه وبين الرحيل، فكتب إليه أبو عمر:

هَلَّا أَذْكَرْتَ لِبَيِّنٍ أَنْتَ مَبْتَكِرٌ
هَيَّاهُتْ يَا بَيْتِي عَلَيْكَ اللَّهُ وَالْقَدْرُ
مَا زِلْتُ أَبْكِي حَذَارَ الْبَيِّنِ مُرْتَهِنَا
حَتَّى رَثَى لِي فِيكَ الرِّيحُ وَالْمَطَرُ
يَا بَرْدَةً مِنْ حَيَا مُزْنٍ عَلَى كَبِدٍ
نِيرَانُهَا بِغَلِيلِ الشُّوقِ تَسْتَعْرِ
أَلَيْتُ أَلَّا أَرَى شَمْسًا وَلَا قَمْرًا
حَتَّى أَرَاكَ فَأَنْتَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

ولأبي عمر بن عبد ربه هذا مدائح كثيرة ومجموعات كبيرة في مدح مواليه بني أمية. آخرها ما جمع للمستنصر بالله الحكم بن عبد الرحمن الناصر لدين الله، ثم كفر عن جميع ما قال واحسن المقال وسماها بالممحصات، والله يقبل التوبة ويعفو عن السيئات. فمن ذلك قطعة محص بها القطعة المذكورة آنفا:

يَا عَاجِزًا لَيْسَ يَعْفُو حَيْثُ يَقْتَدِرُ
وَلَا يُقْضَى لَهُ مِنْ عَيْشِهِ وَطَرُ
عَايِنَ بِقَلْبِكَ إِنَّ الْعَيْنَ غَافِلَةٌ
عَنِ الْحَقِيقَةِ وَعَلِمَ أَنَّهَا سَقَرُ
سُودَاءُ تَرْفِرُ عَنْ غَيْظٍ إِذَا سَعُرَتْ
لِلظَّالِمِينَ فَلَا تُبْقَى وَلَا تَذَرُ
إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوْا دُنْيَا بآخِرَةٍ
وَشِقْوَةً بِنَعِيمٍ سَاءَ مَا تَجَرُّوا
يَا مَنْ تَلَهَّى وَشَيْبُ الرَّأْسِ يَنْدُبُهُ
مَاذَا الَّذِي بَعْدَ شَيْبِ الرَّأْسِ تَنْتَظِرُ
لَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ غَيْرُ الْمَوْتِ مَوْعِظَةً
لَكَانَ فِيهِ عَنِ اللَّذَاتِ مُزْدَجَرُ

أَنْتَ الْمَقُولُ لَهُ مَا قُلْتَ مَبْتَدَأً

هَلَّا أَذْكَرْتَ لِبَيِّنٍ أَنْتَ مَبْتَكِرُ

قال ذو النسيين، رضي الله عنه: وحدثنا الفقيه الأجل أبو الحسن علي بن الحسين بلفظه بمدينة فاس سنة ثلاث وسبعين وخمسائة، وفيها مات رحمه الله، قال: حدثنا الفقيه الحافظ أبو الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن عبد الرحمن ابن عديس الأنصاري بجامع القرويين بمدينة فاس سنة خمس وخمسائة، وفيها مات. قال: سمعت الإمام أبا عمر بن عبد البر يقول: سمعت الإمام الحافظ أبا الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف الأزدي، المعروف بابن الفرضي يقول: أنشدنا الإمام أبو زكريا يحيى بن مالك بن عائذ، قال: أنشدني أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه شاعر الأندلس لنفسه:

ألا إنما الدنيا غضارة أيكّة
هي الدار ما الآمال إلا فجائع
وكم سخنت بالأمس عين قريرة
فلا تكتحل عينك فيها بعبرة
وآخر شعر قاله قبل موته بأحد عشر يوماً:

كلّاني لما بي عادلي كفاني
بليت وأبلنتي الليالي وكرها
ومالي لا أبلي لسبعين حجة
فلا تسألاني عن تباريح علتي
وأني بحمد الله راج لفضله
ولست أبالي عن تباريح علتي
هُما ما هُما في كل حال تلم بي

والوزير الكاتب، كاتب الملك المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر:

ابن دراج القسطلي

أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج المعروف بالقسطلي

نسب إلى بلد هناك تعرف بقسطة دراج، معدود في الأندلس في جملة العلماء، والمتقدمين من الشعراء، والمذكورين من البلغاء، وشعره وترسيله في عدة أجزاء. فمن مستحسن قوله ما قاله في ملك سرقسطة، المنذر بن يحيى التجيبي:

يا عاكفين على المدام تنبهوا
ملك لو استوهبت حبة قلبه
وسلوا لساني عن مكارم منذر
كرماً لجاد بها ولم يتعذر

قال الحميدي: "سمعت أبا محمد علي بن أحمد، وكان عالماً بنقد الشعر يقول: "لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو حبيب والمنتبي" مات أبو عمر قريباً من العشرين وأربعمائة الأديب الحسيب:

أبو عمر أحمد بن هشام

ابن عبد العزيز بن محمد بن سعيد الخير أورد له الوزير أبو الوليد بن عامر في الورد والنجس:

أحمره ضاحكٌ وأصفره

بهفوها مسكه وعنبره

حتى كأن الحبيب يهجره

تطويه أكمامه وتشره

انظر إلى الروض في جوانبه

إذا هفت فوقه الرياح سرى

نرجسه تستجد صفرته

والورد يختال في منابته

والوزير الخطير، الفاضل النحرير:

ابن شهيد

أبو عامر أحمد بن السادة الوزراء: أبي مروان عبد الملك بن مروان بن ذي الوزارتين الأعلى أحمد بن عبد الملك ابن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد أشجعي النسب، من ولد الوضاح بن رزاح الذي كان مع الضحاك بن قيس الفهري يوم مرج راهط.

وأبو عامر هذا أرسخ أهل الأندلس قاطبة بالأدب، ينسل إليه من كل حذب؛ ولم ير لنفسه في البلاغة أحداً يجاريه، ويساحله في جميع العلوم وبياريه، وأما الكرم فلا يقاربه فيه أحد من أهل بلده ولا يدانيه. ومن أخباره العظيمة، ومناقبه الكريمة، ما حدثني به الفقيه العالم المحدث النحوي القاضي بمدينة غرناطة وأعمالها، أبو محمد عبد المنعم بن محمد بن عبد الرحيم الخزرجي، رحمه الله، قال: حدثنا الوزير أبو عامر محمد بن أحمد بن عمر السالمي، قال: حدثنا الشيخ أبو عبد الله بن الصفار قال:

كان رجل من أهل طليطلة ذا محل شريف، ومكان عال منيف؛ فبنا به الوطن، وخبانه على معهوده الزمن؛ فأتى إلى قرطبة رث الحال، منبت الجبال؛ لا يملك فتيلة، ولا يدرك كثيرا ولا قليلا؛ فأنزل عياله في أحد الفنادق وخرج يلتمس حراً يستجديه، وفاضلا يستهديه. فأرشد إلى أبي عامر بن شهيد، فكتب إليه كتابا يعرب عن فضل أدب، وكريم نسب. فقال للرافع له: ما زى هذا الرجل ولبسه؟ وكيف همته ونفسه؟ فأعلمه بما بدا من حاله؛ وظهر من اختلاله، فأمر بدخوله. فلما أدناه أبو عامر وقربه، ورتب له من البر والإكرام ما رتبه؛ ثم إنه أسر إلى وكيله بكلام لم يدره الرجل، إذ كان حائرا قد اكتنفه الخجل. ثم أمر أن يدخل في الحمام، ويحتفل في البر به والإكرام. فلما خرج منه ألقى سبينة بثياب أعدت له فلبسها، وأعيد إلى دار ابن شهيد، ووافق ذلك اليوم دعوة له لبعض القوم، فمكث الرجل وهو معلق البال، بمن تركه هنالك من العيال؛ فلما انتظم الأصحاب، وقدم الطعام والشراب، دخل الرجل مدخلهم في ذلك المأنس، وأخذ مكانه من المجلس؛ وأبو عامر بن شهيد يؤثر مكانه، ويدعو إلى بره إخوانه. فمكث الرجل بين فرح

وترح، طوراً ممتد الأنس، وتارة مكدر النفس. فلما كان عشي اليوم الثاني خرج الرجل وقد قدم له مركب سار عليه، وغلام بشمعة بين يديه؛ إلى أن أدى به إلى هذه الدار، وهي مشهورة بقرطبة إلى الآن بين جميع الديار. فقال: أنزل يا مولاي. قال الرجل: ليست هذه داري، وإنما نزلت في الفندق الفلاني. فقال الغلام: بل هي دارك، أعطاكها سيدي، وأنا والدابة لك فأخرس الرجل ودخل الدار، فوجدها قد ملئت نعماً كثيرة، وفرشا وثيرة؛ وعياله في منضد تلك المجالس، قد أفرغت عليهن أفخر الملابس؛ وقد ملئت خزائنها بما يملأ العيون قرة، والقلوب مسرة.

ولهذا الوزير كتب كثيرة الهزل والجد، بعيدة عن الحصر والعد. منها كتاب التوابع والزوابع، وكتاب حانوت العطار، وكتاب كشف الدك وإيضاح الشك وقال حافظ أهل زمانه الفقيه أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، في رسالته في فضل الأندلس، مفتخراً به: "ولنا من البلغاء أحمد ابن عبد الملك بن شهيد، صديقنا وصاحبنا، وهو حي لم يبلغ بعد سن الاكتهال. وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدار يكاد ينطق فيه بلسان مركب من لساني عمرو وسهل" وتوفي رحمه الله ضحى يوم الجمعة آخر يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين وأربعمائة بقرطبة؛ ودفن يوم السبت ثاني يوم وفاته في مقبرة أم سلمة؛ وصلى عليه رئيس قرطبة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور الكلبي. ومولده سنة اثنتين وثمانين وثلثمائة، ولم يعقب. وانقرض عقب الوزير أبيه بموته. وكان جواداً لا يليق شيئاً، ولا يأسى على فائت، عزيز النفس. ومن شعره الدال على كرمه وفخره:

أَلَمْتُ بِالْحُبِّ حَتَّى لَوْ دَنَا أَجَلِي لَمَّا وَجَدْتُ لَطْعَمَ الْمَوْتِ مِنْ أَلَمِّ
وَزَادَنِي كَرَمِي عَمَّنْ وَلِهَتْ بِهِ وَيَلِي مِنْ الْحَبِّ أَوْ وَيَلِي مِنْ الْكَرَمِ

وقال:

كَتَبْتُ لَهَا أَنَّنِي عَاشِقٌ عَلَى مُهْرَقِ الْكَتْمِ بِالنَّازِرِ
فَرَدَّتْ عَلَيَّ جَوَابَ الْهَوَى بِأَحْوَرَ فِي مَائِهِ حَائِرِ
مَنْعَمَةً نَطَقْتُ بِالْجُفُونِ فَدَلَّتْ عَلَيَّ دَقَّةَ الْخَاطِرِ
كَانَ فَوَادِي إِذْ أَعْرَضْتُ تَعَلَّقَ فِي مِخْلَبِي طَائِرِ

وقوله:

وَتَدْرِي سِبَاغَ الطَّيْرِ أَنَّ كُمَاتَهُ إِذَا لَقَيْتُ صَيْدَ الْكُمَاةِ سِبَاغُ
تَطِيرُ جِياعاً فَوْقَهُ وَتَرُدُّهَا ظُبَاهُ إِلَى الْأَوْكَارِ وَهِيَ شِبَاعُ

قال ذو النسيب، رضي الله عنه: هذا المعنى قد سبقه إليه مروان بن أبي الجنوب فقال: يمدح المعتصم:

لا تَشْبَعُ الطَّيْرُ إِلَّا فِي وَقَائِعِهِ

فَأَيْنَمَا سَارَ سَارَتْ خَلْفَهُ زُمْرًا

عوارفًا أنه في كُلِّ مُعْتَرِكٍ

لا يُغْمَدُ السَّيْفَ حَتَّى يُكْتَرَّ الْجَزْرًا

الجزر، بفتح الجيم والزاي: الشاء المذبح؛ والواحدة: جزرة. قاله أبو علي في البارع: وأراد به الشاعرها هنا كثرة القتلى. وهذا مأخوذ من قول أبي نواس:

تَتَأَيَّا الطَّيْرُ غُدْوَتَهُ

ثِقَةً بِالشَّبَعِ مِنْ جَزَرِهِ

وأخذه مسلم بن الوليد فقال:

قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقَنَ بِهَا

فَهِنَّ يَتَّبَعْنَهُ فِي كُلِّ مُرْتَحِلٍ

وأخذه أبو تمام فقال:

وَقَدْ ظَلَّلَتْ عِقْبَانُ أَعْلَامِهِ ضُحَى

بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلِ

أَقَامَتْ مَعَ الرَّايَاتِ حَتَّى كَانَهَا

مِنَ الْجَيْشِ إِلَّا أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلْ

وكلهم قصر عن النابغة الذبياني في قوله:

إِذَا مَا غَزَوْا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُمْ

عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَائِبِ

جَوَانِحَ قَدْ أَيْقَنَ أَنَّ قَبِيلَهُ

إِذَا مَا التَّقَى الْجَمْعَانِ أَوْلُ غَالِبِ

لَهِنَّ عَلَيْهِ عَادَةٌ قَدْ عَرَفْنَهَا

إِذَا عَرِضَ الخَطِيُّ فَوْقَ الكَوَائِبِ

وإنما قلنا إنهم قصروا عن النابغة لأنه زاد في المعنى واحسن التركيب. ودل على أن الطير إنما أكلت أعداء الممدوح. وكلامهم كلهم مشترك محتمل ضد ما نواه الشاعر. وإن كان أبو تمام قد زاده في المعنى على أن الطير إذا شبع ما تسأل أي القبيلين الغالب. وقد أحسن أبو الطيب المتنبّي في قوله:

لَهُ عَسْكَرًا خَيْلٍ وَطَيْرٍ إِذَا رَمَى

بِهَا عَسْكَرًا لَمْ يَبْقَ إِلَّا جَمَاجِمُهُ

ويتوجه عليه أن هذه الطير لأي معنى عافت الجماجم، دون عظام السوق والأذرع وغيرها من الأعضاء. وقد اخذ منهم بكر بن النطاح فقال:

وَتَرَى السَّبَاعَ مَعَ الجَوَا

رِحَ فَوْقَ عَسْكَرِنَا جَوَانِحَ

ثِقَةً بَأَنَّ لَا نَزَا

لُ نُمِيرِ سَاغِبِهَا الذَّبَائِحَ

ساغبها: جائعها، والسغب: الجوع.

ولو تتبعنا جميع ما نظمه الشعراء في هذا الباب، لأتى على أكثر الكتاب.

وقال أبو عامر بن شهيد:

ولمّا تَمَلَّأَ مِنْ سُكْرِهِ
فَنَامَ وَنَامَتِ عُيُونُ الْعَسَسِ
دنوتُ إليه على بُعدِهِ
دُنُوٌّ رَفِيقٌ دَرَى مَا التَّمَسِ
أدبُ إليه دَبِيبَ الكَرَى
وَأَسْمُو إِلَيْهِ سُمُو النَّفْسِ
وبتذُّبِهِ ليلتي ناعماً
إلى أن تَبَسَّمَ ثَغْرُ الغَلَسِ
أَقْبَلُ مِنْهُ بَيَاضُ الطُّلَا
وَأَرشَفُ مِنْهُ سَوَادَ اللَّعَسِ

ومنهم شاعر قرطبة وزعيمها، ونخبة بني مخزوم وضميمها، ذو الوزارتين:

أبو الوليد بن زيدون المخزومي

أحمد بن عبد الله بن أحمد فمن قصائده التي ضربت في الإبداع بسهم، وطلعت في كل خاطر ووهم، ونزعت مترعاً قصر عنه حبيب وابن الجهم:

أضحى التناهي بديلاً من تدانينا
وناب عن طيب لُقيانا تجافينا
بتّم وبنّا فما ابتلت جوانحنا
شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
تكاد حين تتاجيكم ضمائرنا
يقضي علينا الأسي لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فعدت
سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا
ومورد اللّهُ صافٍ من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الأنس دانيةً
قطوفها فجنينا منه ماشينا
ليُسق عهدكم عهد السرور فما
كنتم لأرواحنا إلا رياحينا
من مبلغ الملبثين بانتزاحهم
حزناً مع الدهر لا يبلى ويئلينا
أن الزمان الذي ما زال يُضحكنا
أنساً بقربهم قد عاد يئكينا
غيظ العدا من تساقينا الهوى فدعوا
بأن نعصّ فقال الدهر آمينا

وبات ليلة بإحدى جنات إشبيلية فقال:

وليل أدمنا فيه شرب مُدامة
إلى أن بدأ للصبح في الليل تأشيرُ
وجاءت نجوم الليل تضرب في الدجى
فولت نجوم الليل والليل مقهور
فجزنا من اللذات أطيب طيبها
ولم يعرنا هم ولا عاق تكدير
خلا أنه لو طال دامت مسرتي
ولكن ليالي الدهر فيهنّ تقصير

ومن قوله:

بيني وبينك ما لو شئت لم يضع
سراً إذا ذاعت الأسرار لم يدع

يا بائعا حظه مني ولو بُذلت
حسبي بأنك إن حملت قلبي ما
تِه احتمل، واستطل أصبر، وعزأهن
لي الحياة بحظي منك لم أبع
لا تستطيع قلوب الناس يستطع
وول أقبل، وقل أسمع، ومر أطمع

هذا أحسن ما قيل في هذا الباب، لما فيه من ذكر الجواب لكل حرف من حروف الأمر، وخلو بيت أبي الطيب المتنبي:

أقل أنل أقطع أحمل عل سل أعد
زد هس بش تفضل دن سُرَّصِيل

ولبعض أهل ذلك العصر، وهو أقل تكلفاً وأيسر تعسفاً:

فدم وابق واسلم واستطل عزة وصل
فلن يتنافى اثنان رأيك والنهي
وسد وارق واغنم واستزد رفعة واسم
ولن يتلاقى اثنان فعلك والذم

ولأبي الفرج الأصبهاني مؤلف كتاب الأغاني:

يا فرحة الهم بعد اليأس من فرج
يا فرحة الأمن بعد الروع والوهل
اسلم وذم وابق واملك وانم واسم وزد
وأعط وامنع وضر وانفع وصل وصل

وكان الأصل في ذلك قول أبي العميثل في عبد الله بن طاهر، ذي اليمينين:

يا من يحاول أن تكون صفاته
أصديق وعف وجد وأنصف واحتمل
كخصال عبد الله أنصت واسمع
واصفح وكاف ودار واحلم واشجع

وكان مجلس ذي الوزارتين أبي الوليد بن زيدون منحطاً عن مجلس السلطان المعتمد على الله أبي القاسم محمد، ابن السلطان أبي عمرو عباد، في القعود لإنقاذ أوامر أبيه، إذ كان لما هاجر إليه من قرطبة تلقاه بأعلى المحل، وعول عليه في العقد والحل، فكتب إليه المعتمد:

أيها المنحط عني مجلساً
بفؤداي لك حب يقتضي
وله في النفس أعلى مجلس
أن ترى تحمل فوق الأروس

فراجع ابن زيدون:

أسقيط الطل فوق النرجس
أم نسيم الروض تحت الجندس

أم قريضٌ جاعني عن ملك
يا جمالَ الموكبِ الغادي إذا
شرفتُ بكرُ المعالي خطبةً
وارتشفَ معسُولُ ثغرِ أشنتبِ
واغتبقَ بالسَّعدِ في دَسْتِ المُنَى
فاعتراضُ الدَّهرِ فيما شئتَه
مالك بالبرِّ رِقَّ الأنفسِ
سارَ فيه يا بهاءَ المجلسِ
بكَ فأنعم بسرُّورِ المَغْرَسِ
تَجْتَنِيهِ من مُجَاجِ اللُّعْسِ
يصبحُ الصنَّعِ دهاقِ الأكوُسِ
مرتَقَى في صَدْرِهِ لم يَهْجَسِ

وكان ابن زيدون زعيم الوزراء القرطبية، ونشأة دولتها السنية؛ حتى صار ملهج لسانها، وحل من عينها مكان إنسانها. وكان بينه وبين رئيسها الحسيب أبي الحزم ابن جهور ائتلاف الفرقدين، واتصال الأذن بالعين؛ فلما صار تدير ملك قرطبة إليه، ومدار أمرها عليه؛ طلب ابن زيدون طلباً أصاره إلى الاعتقال؛ وقصره عن الوحد والإرقال؛ وكان له فيه أمداح بمرت بنظامها، وظهرت كالبذور عند تمامها. فكتب إليه:

بني جهورٍ انتمُ سماءُ رياسةٍ
طريقتكمُ مثلَى وهدْيكمُ رِضاً
عطاءً ولا منَّ وحُكْمٌ ولا هوىً
وقال في أبي الحزم بن جهور حين حبسه:
بني جهورٍ أحرقتُم بجفائكم
تعدونني كالعنبرِ الورْدِ إنما
ثم كتب إليه:

قل للوزير وقد قطعتُ بمدحه
لم تعدُ في أمري الصَّوابَ موفِّقاً
عُمري فكان السَّجن منه ثوابي
هذا جزاءِ الشَّاعرِ الكذَّابِ

ثم إنه أعمل لنفسه في الخلاص من سجنه حيلة، واتخذ الليل للهرب جملاً. فقطع في ليلة واحدة ما بين قرطبة وإشبيلية من المفاوز والمراحل، ومسافتها ثلاثة أيام لو أخذت الرواحل. ولما اتصل خبر وصوله بأبي عمرو عباد، وهو يومئذ سلطان تلك البلاد؛ تلقاه في جماعة من جماهير الكماة، ومشاهير العلماء والقضاة؛ فألقى مقاليد وزارته وجميع أمور دولته إليه، وأفاض الخلع والسوابغ عليه.

ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن عمار

هو وابن زيدون فرسا رهان، ورضيعا لبان، في التصرف في فنون البيان؛ وهما كانا شاعري ذلك الزمان. وكانت ملوك الأندلس تخافه لبذاءة لسانه، وبراعة إحسانه؛ لا سيما حين اشتمل عليه السلطان المعتمد على الله وأهضه جليساً وسميراً؛ وقدمه وزيراً ومشيراً، ثم خلع عليه خاتم الملك ووجهه أميراً، وقد كان أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً؛ فتبعته المواكب والمضارب، والنجائب والجنائب؛ وانقادت له العساكر والكتائب والجنود، وضربت خلفه الطبول ونشرت على رأسه الرايات والبنود؛ فملك مدينة تدمير، وأصبح راقى منبر وسرير؛ مع ما كان فيه من عدم السياسة وسوء التدبير. ثم انتزى على مالك رقه، ومستوجب شكره ومستحقه. فبادر إلى عقوقه وبخس حقه؛ فتحيل المعتمد عليه، وسدد سهام المكائد إليه؛ حتى حصل في قبضته قنيصا، وأصبح لا يجد له محيصا، إلى أن قتله المعتمد في قصره ليلاً بيده، وأمر من أنزله في ملحده؛ وذلك سنة سبع وسبعين وأربعمائة. فمن قوله الراقق، ولفظه الفائق، يمدح السلطان المعتضد بالله أبا عمرو عباد بن محمد:

أدِرِ الزُّجَاجَةَ فَالنَّسِيمِ قَدِ انْبَرَى
وَالصَّبْحُ قَدِ أَهْدَى لَنَا كَافورَه
وَالرَّوْضُ كَالْحَسَنَاءِ كَسَاهُ زَهْرُه
أَوْ كَالغَلَامِ زَهَا بوردِ رِيَاضِه
رَوْضٌ كَأَنَّ النَّهْرَ فِيهِ مِعْصَمٌ
وَتَكَلَّمْتُ بِالزَّهْرِ صُلْعَ هِضَابِه
وَتَهَزُّهُ رِيحُ الصَّبَا فِتْخَالُه
عَبَادُ الْمُخْضَرِّ نَائِلُ كَفِّه
عَلِقَ الزَّمَانُ الْأَخْطَرَ الْمُهْدَى لَنَا
مَلِكٌ إِذَا ازْدَحَمَ المُلُوكَ بِموردِ
أندى على الأكبادِ من قَطْرِ الندى
فَدَاحَ زَنْدِ المَجْدِ لَا يَنْفَكُ عَن
يَخْتَارُ أَنْ يَهَبَ الخَرِيدَةَ كَاعِباً
أَيَقْنَتُ أَنِّي مِنْ ذُرَاهِ بَجْنَةَ
وَالنَّجْمُ قَدِ صَرَفَ العَنَانَ عَنِ السُّرَى
لَمَّا اسْتَرَدَّ اللَّيْلُ مِنَّا العَنْبِرَا
وَشَيْئاً وَقَلْدَهُ نَدَاهُ جَوْهَرَا
خَجَلًا وَتَاهَ بَأْسِهِنِ مُعْذَرَا
صَافٍ أَطْلَ عَلَى رِدَاءِ أَخْضَرَا
حَتَّى حَسَبْنَا كُلَّ هَضْبٍ قَيْنَصَرَا
سَيْفَ ابْنِ عِبَادٍ يُفَرِّقُ عَسْكَرَا
وَالجَوْ قَدِ لَبَسَ الرِّدَاءَ الْأَغْبَرَا
مِنْ مَالِهِ العَلْقَ النَّفِيسَ الْأَخْطَرَا
وَنَحَاهُ لَا يَرِدُونَ حَتَّى يَصْذُرَا
وَأَلَذُّ فِي الْأَجْفَانِ مِنْ سِنَةِ الكَرَى
نَارِ الوَعَى إِلَّا إِلَى نَارِ القَرَى
وَالطَّرْفَ أَجْرَدَ وَالْحُسَامَ مُجَوَّهَرَا
لَمَّا سَقَانِي مِنْ نَدَاهُ الكَوْثَرَا

وعلمتُ حقاً أن ربِّي مُخْصِبٌ
من لا تُوازِنُه الجبالُ إذا احتبَى
قَادَ المواكبَ كالكوكبِ فوقَها
من كلِّ أبيضٍ قد تَقَلَّدَ أبيضاً
مَلِكٌ يروُفُكُ خَلْقُه أو خَلْقُه
وسَمِعْتُ باسمِ القَطْرِ حتى شِمْتُهُ
وجَهَلْتُ مَعْنَى الجُودِ حتى زُرْتُهُ
فاحِ الذِّى مُتَعَطِّراً بِثَنَائِهِ
حَسْبِي على الصَّنْعِ الذِّي أَوْلَاهُ أن

لَمَّا سَأَلْتُ بِهِ الغَمَامَ المُمْطِراً
مَنْ لا تُسَابِقُه الرِّياحُ إذا جَرَى
مِنْ لَامِهِ مِثْلُ السَّحابِ كَنَهْوَراً
عَضْباً واسمَرَ قد تَقَلَّدَ أسْمِراً
كالرَّوْضِ يُحْسِنُ مَنظِراً أو مَخْبِراً
فَرَأَيْتُهُ فِي بُرْدَتَيْهِ مُصَوِّراً
فَقَرَأْتُهُ فِي راحَتَيْهِ مُفَسِّراً
حَتَّى حَسِبْنَا كلَّ تُرْبٍ عَنبراً
أُسْعَى بِشُكْرِ أو أَموتَ فأَعْذِراً

عَبَّادُ المَلِكِ الذِّي وَصَلَ المُنَى
ماضٍ وَصَدْرُ الرُّمَحِ يَكْهَمُ وَالظُّبَا
لا شَيْءَ أَقْرَأُ مِنْ شِفَارِ حُسَامِهِ
السِّيفُ أَفْصَحُ مِنْ زِيادِ خُطْبَةٍ
ما زِلْتُ تُغْنِي مِنْ عَنَّا لَكَ راجِياً
حَتَّى حَلَلْتَ مِنَ الرِّياسَةِ مَحْجِراً
شَقِيتَ بِسِيفِكَ أُمَّةً لَمْ تَعْتَمِدْ
أَثْمَرْتَ رُمُحَكَ مِنْ رُؤْسِ كُماثِهِمْ
وَصَبَغْتَ دِرْعَكَ مِنْ دِماءِ كُلِّوْمِهِمْ
وَإِلَيْكِها كالرَّوْضِ زارَتُهُ الصَّبَا
نَمَقَّتْها وَشَيْئاً بِذِكْرِكَ مُذْهَباً
مَنْ ذا يُتَافَحِنِي وَذِكْرِكَ مَنَدَلٌ
فَلَنْ وَجَدْتَ نَسِيمَ حَمْدِي عَاطِراً

مِنْهُ بَوَجْهِ مِثْلِ حَمْدِي أَزْهَراً
تَتَبُّوْا وَأَيْدِي الخَيْلِ تَعْتُرُ فِي البَرَى
إِنْ كُنْتَ شَبَّهْتَ المَواكِبَ أُسْطُراً
فِي الحَرْبِ إِنْ كَانَتْ يَمِينُكَ مَنِيراً
فَضْلاً وَتُفْنِي مَنْ طَغَى وَتَجَبَّراً
رَحْباً وَضَمَّتْ مِنْكَ طَرْفاً أَحوراً
إِلاَّ لِاليَهُودِ وَإِنْ تَسَمَّتْ بَرَبِراً
لَمَّا رَأَيْتَ الغُصْنَ يُعَشِّقُ مِثْماً
لَمَّا رَأَيْتَ الحُسْنَ يُلبَسُ أَحْماً
وَحَناً عَلَيْهِ الطَّلُّ حَتَّى نَوَّراً
وَفتَقَّتْها مِسْكَاً بِحَمْدِكَ أَذْفاً
أوردتُهُ مِنْ نارِ فِكْرِي مِجْماً
فَلَقَدْ وَجَدْتُ نَسِيمَ بَرِّكَ أَعْطِراً

قال ذو النسيين رضي الله عنه: وهذه القصيدة من غرر القصائد، ودرر القلائد؛ وكل بيت منها بيت قصيد، وواسطة سلك فريد.

وله يتغزل في مملوك رومي للمؤمن، قد لبس درعا:

وأغيدَ منَ ظِباءِ الرُّومِ عاطٍ
فَسَا قَلْبًا وَشَنَّ عَلَيْهِ دِرْعًا
بكِيتٌ وَقَدْ دَنَا وَنَأَى رِضَاهُ
وَإِنْ فَتَى تَمَلَّكَه بِنَقْدٍ
بِسَالِفَتِيهِ مِنْ دَمْعِي فَرِيدُ
فَظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ حَدِيدُ
وَقَدْ يَبْكِي مِنَ الطَّرْبِ الْجَلِيدِ
وَأَحْرَزَ رِقَّةً لَفَتَى سَعِيدِ

يقال: سَنَتَ الماءَ بالسَّيْنِ، المهملة، وشَنَّتَه، بالشين المعجمة، فالسَنُّ والشَّنُّ: الصَّبُّ.

وقال ابن الأنباري: سن الدرع عليه، بالسین غير معجمة: صبها.

وأهدى الناس في يوم عيد إلى السلطان المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد، مما يهدى للملوك في الأعياد، فاقصر على ثوب صوف بحري أصفر، وكتب معه:

لما رأيتُ النَّاسَ يُحْتَفِلُونَ فِي
فَبَعَثْتُ نَحْوَ الشَّمْسِ شِبْهَ إِهَابِهَا
إِهْدَاءِ يَوْمِكَ جِنَّتَهُ مِنْ بَابِهِ
وَكَسَوْتُ مَتْنِ الْبَحْرِ بَعْضَ ثِيَابِهِ

وله يعتذر من وداعه للسلطان أبي يحيى محمد بن معن بن صمادح.

أُمُعْتَصِمًا بِاللَّهِ وَالْحَرْبُ تَرْتَمِي
دَعَتْنِي الْمَطَايَا لِلتَّرْحِيلِ وَإِنِّي
بَأَبْطَالِهَا وَالْخَيْلُ بِالْخَيْلِ تَلْتَقِي
وَأِنِّي إِذَا غَرَبْتُ عَنْكَ فَإِنَّمَا
لَأُفْرِقَ مِنْ ذِكْرِ النَّوَى وَالتَّفْرِقِ
جَبِينُكَ شَمْسِي وَالْمَرِيَّةُ مَشْرِقِي

وكتب إليه المعتصم بالله ثلاثة أبيات في العتاب:

وَزَهَّدَنِي فِي النَّاسِ مَعْرِفَتِي بِهِمْ
فَلَمْ تَرْنِي الْأَيَّامَ خِلًا تَسْرُنِي
وَطُولُ اخْتِبَارِي صَاحِبًا بَعْدَ صَاحِبِ
بِوَادِيهِ إِلَّا سَاعِنِي فِي الْعَوَاقِبِ
مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا كَانَ إِحْدَى النُّوَائِبِ
وَلَا صَرِيتُ أَرْجُوهُ لِدَفْعِ مُلَمَّةٍ

فأجابه ابن عمار:

فَدِينُكَ لَا تَزْهَدُ فَتَمَّ بَقِيَّةُ
وَأَبْقِ عَلَى الْخُلْصَانِ إِنْ لَدَيْهِمْ
سَتَرْتُ غَيْبَ فِيهَا عِنْدَ وَقَعِ التَّجَارِبِ
تَكْنَفْتَنِي بِالنَّظْمِ وَالنَّثْرِ جَاهِدًا
عَلَى الْبَدْءِ كَرَّاتٍ بِحُسْنِ الْعَوَاقِبِ
وَسَقَّتَ عَلَى الْقَوْلِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وقد كان ليلو شئتُ ردُّ وإنما أجزَّ لِساني بعضُ تلك المواهب

ولابدَّ من شكوى ولو بتنفُسٍ
كتبتَ على رَسْمي وبعد نسيئةٍ
ثلاثة أبياتوهياتٍ ما بعثتَ إلى حربي ثلاثَ كتائبٍ
وكيف يلدُّ العيشُ في عَنبٍ سيِّدٍ
يُخَفِّفُ من حرِّ الحشَا والتَّرائبِ
قرأتُ جوابي من سطورِ المواقبِ
وما لذَّ لي يوماً على عَنبٍ صاحبِ

وقبلُ جَرَتُ عن بعضِ كُتبي جَفوةٌ
وما كنتُ مُرتاداً ولكن لِنُفحةٍ
سلكتُ سبيلي للزيارةِ إثرها
ولو لمعتُ لي من سمانك بضرقَّةٍ
ألحتُ على وجهي بغمزِ الحوارجِ
تَعَوَّدتُ من رِيحانِ تلك الضَّرائبِ
فقابلتُ دُفْعاً في صُدورِ الرِّكائبِ
ركبتُ إلى مَغناكَ هُوجَ السَّحائبِ
وقضيتُ من رُؤياك أوكدَ واجبِ
وخلفتَ للعافي ثقالَ الحَقائبِ
وغيرُك يَقضي بالظُّنونِ الكَوائبِ
سِواكَ يَعي قولَ الوُشاةِ من العدا

واجتاز على أكرم أهل زمانه، واعلم وقته وأوانه؛ الوزير الكاتب السمي المراتب، أبي محمد بن القاسم الفهري؛ فما عرج عليه، فعاتبه الوزير أبو محمد على إساءته في ذلك عليه، فكتب إليه أبياتا أمر بعض خواصه أن ينثرها بين يديه:

لم يئنِّ عنك عِناني سلوَّةً خَطرتُ
وقَصْرُك البيتُ لو أَنِّي قَضيتُ به
لكن عدتني عنكم خَجلةٌ سَلَفتُ
"لو اختصرتُم من الإحسانِ زُرْتكمُ"
على فؤادي ولا سَمعي ولا بَصري
حَجِّي وكفكُ منه موضِعُ الحجرِ
كَفاني القولُ فيها قولُ مُعتذرٍ:
والعذْبُ يُهجرُ للأفراطِ في الخَصَرِ "

وشعره مدون كثير، وقد ذكرنا منه ما اقتضاه التخيير.

ذو الوزارتين ابن الحاج

أبو الحسن جعفر بن إبراهيم بن الحاج

عين مدينة لورقة وإنسائها، ومدرهها ولسائها؛ وكان أكرم من غمام، وأرسي حلماً من شمام؛ وله شعر أعذب من الجريال في صحن الخد، وأطيب من الوصال بعد الصد.
 أنشدني الوزير الفقيه المحدث الكاتب، أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن عميرة، قراءة مني عليه سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، رحمه الله، قال: أنشدنا ذو الوزارتين أبو محمد قال: أنشدني أبي ذو الوزارتين أبو الحسن المذكور:

أزورك مُشتاقاً وأرجع مُغرماً	وأفتح باباً للصَّبَابَةِ مُبْهِمًا
أمدعي السقم الذي آد حمله	عزيرٌ علينا أن نصحّ وتَسْقَمَا
منعتُ مُحِبًّا منك أيسرَ لحظة	تَبَلُّ غَلِيلَ الشَّوْقِ أَوْ تَنْقَعُ الظَّمَا
وما ردَّ ذاك السَّجْفُ حين رميته	من القلب سَهْمًا من هواك مُصمِّمًا
هوى لم تُمن عينٌ عليه بنظرة	ولم يكُ إلا سَمْعَةً وتَوْهُمًا
ومُلْتَقَطَاتٍ من حديث كأنما	نثرت به سِلَكُ الجُمان المنظَّمَا
دعوتُ إليك القلب بعد نُزوعه	فأسرع لَمَّا لم يجد متلومًا

وله:

وبيضاء ينبو الحظُّ عند التقائها	وهل تستطيع العينُ تنظرُ في الشمسِ
وهبتُ لها نفساً على كريمة	وقد علمتُ أنَّ الضنَّانة بالنفسِ
أعالجُ منها السُّخْطَ في حالة الرضى	ولا أعدمُ الإيحاش في ساعة الأُنسِ

وله وقد أهدى تفاحا

بعثتُ بها ولا ألوك حمداً	هدية ذي اصطناع واعتلاقِ
خودَ أربةٍ وافين صباً	وعُدْنَ على ارتماضٍ واحتراقِ
فحمرَّ بعضها خجلُ التلاقي	وصفرَّ بعضها وجلُّ الفراقِ

وله في زرزور:

يا رَبِّ أعجم صامتٍ لَقْنَتَهُ	طَرَفَ الحديثِ فصارَ أفصحَ ناطقِ
جونِ الإهابِ أعيرَ فوه صُفْرَةً	كالليل طَرَّزه وميضُ البارقِ
حكَم من التدبيرِ أعجزتِ الورى	ورأى بها المخلوقُ لُطْفُ الخالقِ

وكان الوزير ذو الوزارتين أبو الحسن المذكور ذا بضائع من العلوم والآداب كلها جواهر، وجميعها إذا أدمجت الأيام زواهر؛ وكان ذكر بني عباد بالكرم بالمغرب. وقد طار وطبق الأقطار، فقصدتهم بتلك البضائع التي لا يروج إلا لديهم نفاقها، ولا تقام إلا عندهم أسواقها؛ فأحفق لاشتغالهم عنه - لا لتقلص ظلال كرمهم - مسعاه، وتكدر مورده وصوح مرعاه؛ فأم غير مورد ندامهم موردا، وارتحل عنهم منشدا:

تَعَزَّ عن الدُّنْيَا ومَعْرُوفِ أهلها
إِذَا عُدِمَ المَعْرُوفُ فِي آلِ عِبَادِ
أَقَمْتُ بِهِمْ ضَيْقًا ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ
بِغَيْرِ قَرِيٍّ ثُمَّ انصَرَفْتُ بِلا زَادِ

فندموا على تفريطهم فيه وما فرط من إهمالهم، وقد ألبسهم من العار ما عراهم من حلال الأبيادي السابقة من نوالهم.

وله إلى الفقيه العالم الأديب الأحسب، قاضي القضاة بشرق الأندلس ونخبة الأملاك من كلب، أبي أمية إبراهيم بن عصام الكلبي:

لِي صَاحِبُ عَمِيَّتٍ عَلَيَّ شُؤْنُهُ
حَرَكَاتُهُ مَجْهُولَةٌ وَسُكُونُهُ
يَرْتَابُ بِالْأَمْرِ الجَلِيِّ تَوْهُمًا
وَإِذَا تَيَقَّنَ نَازَعَتُهُ ظُنُونُهُ
مَا زِلْتُ أَحْفَظُهُ عَلَيَّ شَرْقِيَّ بِهِ
فَالشَّيْبُ تَكَرَّهُهُ وَأَنْتَ تَصُونُهُ

والوزير أبو بكر محمد بن عيسى الداني المعروف:

ابن اللبانة

من شعراء السلطان ابن عباد، وممن وفي له فقصده وهو محبوس بأغمات آخر تلك البلاد. فمن قوله في المدح في المعتمد على الله:

مَلِكٌ إِذَا عَقَدَ المَغَافِرَ لِلوَعَى
حَلَّ المَلُوكُ مَعَاقِدَ التَّيْجَانِ
وَإِذَا غَدَت رَايَاتُهُ مَنشُورَةً
فَالخَافِقَانِ لِهِنَّ فِي خَفَّانِ

وله في ناصر الدولة صاحب جزيرة ميورقة.

وَعَمَّرَتْ بِالإِحْسَانِ أَفُقَ مَيُورِقَةَ
وَبَنَيْتَ فِيهَا مَا بَنَى الإسْكَندَرُ
فَكَأَنَّهَا بَغْدَادُ أَنْتَ رَشِيدُهَا وَوَزِيرُهَا
وَلَا السَّلَامَةُ جَعْفَرُ

قوله: "وله السلامة" في باب الحشو أملح وأوضح من قول المتنبي لكافور:

وتحتقر الدنيا احتقاراً مجربترى كل ما فيها و حاشاك فانياً

وله:

كأنّ علاك أفلاك وفلك
بأزاق البرية جاريات
كأن هباتها من غير وعد
نتائج مالهن مقدمات
ومهما اهتز جيشك نحو جيش
فأنت سنانه وهو القناة

النتيجة عند أهل المنطق لا تكون إلا عن مقدمات، أقلهن اثنتان. والشاعر لا يطالب بحقيقة، ولا يغالب بغير طريقته من طريقه.

وله في غلام جميل:

إن تكن تبغى القتال فدعني
عنك في حومة القتال أحامي
خذ جناني عن جنة ولساني
عن سنان وخاطري عن حسام
وقال يهنئ بمولود ولد في شهر رجب:

نجم تراءى في سماء الحسب
للشهب في إبانته منتسب
وأعربت ليلة ميلاده
بليلة القدر أتت في رجب

والوزير الفقيه اللغوي النحوي العالم، ومن له المناقب والأحساب الشهيرة والمكارم؛ بحر العلم الزاخر، وفخر الأوائل والأواخر، الذي يهتدي بنجم فضله المهتدون، أبو محمد عبد المجيد بن عبد الله:

ابن عبدون

وقد ذكرنا قبل قصيدته المحتوية على جميع الفنون، التي أنشدنيها عنه القاضي أبو عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون. وأنشدني له أيضاً:

وما أنس بين القصر والنهر وقفة
نشدت بها ما ضلّ من شارِدِ الحُبِّ
رَميت بعيني رمية سمحت بها
فلم أثنها إلا ومجروحها قلبي

وله:

مررت على الأيام من كل جانب
اصعدُ فيها تارة وأصوبُ
يُنير لي الثغران: صبح وصارم
ويكتمني القلبان: ليل وغيب
لقد لفظتني الأرض إلا تتوفة
يُحدثني عنها العين فيكذب

ومما قاله، وجمع فيه حروف الزيادة:

سَأَلْتُ الحُرُوفَ الرَّائِدَاتِ عَنِ اسْمِهَا فَقَالَتْ وَلَمْ تَكْذِبْ أَمَانٌ وَتَسْهِيلٌ

قال أبو الفتح بن جني في كتاب "التصريف الملوكي" له ما هذا نصه:
"القول على حروف الزيادة، وهي عشرة أحرف: الألف والياء والواو والهمزة والميم والتاء والنون والهاء والسين واللام، ويجمعها قولك: اليوم تنساه؛ ويقال أيضاً: سألتمونيها. ويحكى أن أبا العباس سأل أبا عثمان عن حروف الزيادة، فأنشده أبو عثمان:

هَوَيْتُ السَّمَانَ فَشَيَّبَنِي وَمَا كُنْتُ قَدِماً هَوَيْتُ السَّمَاناً

فقال له أبو العباس: الجواب؟ فقال: قد أجبتك دفعتين. يعني قوله: هويت السمان".
وأبو العباس، الذي ذكره، هو محمد بن يزيد المبرد. وأبو عثمان هو المازني. وإنما ذكرنا هذا بسبب بيت الوزير ابن عبدون الذي ذكر فيه حروف الزوائد، وهي قوله: "أمان وتسهيل". وهي احسن من جميع الألفاظ التي جمعوا فيها حروف الزوائد، لما فيها من عذوبة اللفظ وسهولة النطق بها وحسن التفاضل. فحروف الزيادة هي حروف "هويت السمان" وهي الهاء والواو والياء والتاء والهمزة، في أول السمان دون أن تصلها، واللام والسين والألف الساكنة والنون.
وقرأت بمدينة شريش شذونة على فارس الفقه والنحو والشعر، القاضي العدل أبي الحسن علي بن أحمد بن لبال الأمي في كتاب "المحكم في حروف المعجم"، وذكر حروف الزيادة وذكر ما تقدم من قولهم: "اليوم تنساه" التي هجاؤها: الهمزة، في الألف الأولى واللام، والياء والواو والميم والتاء والنون والسين والألف الساكنة والهاء.
"و سألتمونيها" عشرة أيضاً: السين والهمزة واللام والتاء والميم والواو والنون والياء والهاء والألف. وزاد في كتابه "أسلمنى وتاه" وهي أيضاً من الألفاظ المستعذبة إلا أنها لا تدخل في الوزن. وتفسيرها: الهمزة الأولى والسين واللام والميم والنون والياء والواو والتاء والألف والهاء. ولشيخنا فيها جمعان ذكرهما في كتاب المحكم له.
وله وقد أنزله المتوكل على الله بدار وكفت عليه، فكتب إليه:

أيا سامياً من جانبيه إلى العُلا
لِعَبْدِكَ دَارُ حَلِّ فِيهَا كَأَنَّهَا
"سُمُو حَبَابِ المَاءِ حَالاً عَلَى حَالٍ"
"ديارٌ لَسَلْمَى عَافِيَاتٌ بذي الخَالِ"
"ألا عَمِ صَبَاحاً أَيُّهَا الطَّلُّ البَالِي"
"و هل يَعْمَنَ مَنْ كان بِالعُصْرِ الخَالِي"
يقولُ لها لَمَّا رَأَى مِنْ دُثُورِها
فَقَالَتْ وَلَمْ تَعَبَّأَ بَرْدَ جِوابِها

"فإنَّ الفتى يَهْذِي وليس بفعَّالٍ"

فَمَرُّ صَاحِبِ الْأَنْزَالِ فِيهَا بِفَاضِلٍ

قال اللغويون: الخال يأتي على أثنى عشر معنى: الخال: أخو الأم. والخال: موضع. والخال: من الزمان الماضي. والخال: اللواء. والخال: الخيلاء. والخال: الشامة. والخال: العزب؛ ويقال: المتفرد. والخال: قاطع الخلا. والخال: الجبان. والخال: ضرب من البرود. والخال: السحاب. وسيف خال: أي قاطع. وقد نظم ذلك الفقيه الأستاذ النحوي الكبير، المتقن الخطير، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمي السبتي، وقد لقيته ولقيت أباه، فإنه مات بعده رحمه الله، فقال:

يروحُ ويغدو في بُرودٍ من الخَالِ

أقولُ أخالي وهو يوماً بذِي خَالِ

بربّةِ خالٍ لا يُزَنُّ بها الخالي

أما ظفرتُ كفاك في العُصرِ الخالي

إلى منزلٍ بالخالِ خلوٍ من الخَالِ

تمرُّ كمرِّ الخالِ يرتجِ رِدْفُها

يؤمُّ إليها من صحيحٍ ومن خَالِ

أقامتُ لأهلِ الخَالِ خالاً فكلّهم

قال ذو النسيين، رضي الله عنه: وأغفل شيخنا القاضي المؤرخ المحدث الثقة العدل أبو القاسم بن بشكوال في كتاب الصلة له، ذكر أبي الحسن:

علي بن إسماعيل الفهري

من أهل مدينة أشبونة. وكان من الشعراء العلماء، والزهاد الفضلاء. ويلقب بالطيطل وبالقط. وقد ذكره الحميدي في جذوة المقتبس. فمن شعره:

تَدبُّ علي ورَدٌ خَدَّ نَدِي

وتحتَ البراقعِ مقلوبُها

وتلَّسعَ قلبَ الشَّجِي الأبعد

تُسالِمُ مَنْ وَطِئتُ خَدَّه

وقد اخذه ابن جاح الصباغ وادعاه.

ولبعض أهل العصر في قصيد فريد، يمدح فيها مولانا السلطان الملك الكامل ملك ملوك العصر، أيده الله بالنصر:

هي البدرُ في لَيْلِ الذَّوائبِ طالِعُ

وما مَحنتي في الحُبِّ غيرَ غَريرةٍ

على أَنَّهُ غُصنٌ من البانِ يانِعِ

يَقْدُ فُوادي قَدُّها وهو ذَابِلُ

كَمَا لانَ مَتْنُ السِّيفِ والحدُّ قاطِعِ

وتَجرحُ أحشائي بعينِ مَرِيضةٍ

خَضَعْتُ لَهَا فِي الْحَبِّ مِنْ بَعْدِ عَزَّتِي
 وَمَاذَا أَجَنَّتْ مِنْ أَزْهَرِ جَنَّةٍ
 وَفَوْقَ شَبِيهِ الْوَرْدِ يُلْحِظُ عَكْسَهَا
 وَقَالُوا بُدُورٌ وَالشُّعُورُ حَنَادِسُ
 دَعَتْ وَادَّعَتْ مُلْكِي لَدَى حَاكِمِ الْهَوَى
 وَلَا حَاكِمَ أَرْضَاهُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
 يُدَافِعُ عَنِّي الضَّيِّمَ قَائِمٌ سَيْفُهُ
 هُوَ الْكَامِلُ الْأَوْصَافِ وَالْمَلِكُ الَّذِي
 لِيَبِيضَ أَيْدِيهِ الْكَرِيمَةِ فِي الْوَرَى
 وَيَوْمَاهُ يَوْمَاهُ اللَّذَانِ هُمَا هُمَا
 فَيَوْمَ نَدَى فَوْقَ السَّرِيرِ مَوْقِعٌ
 وَأُنْحَى مَلُوكِ الْأَرْضِ فِي لُغَةِ الْوَعَى
 وَمِنْ نَحْوِهِ يَوْمَ الْجَلَادِ عَوَامِلٌ
 كِتَابُهُ مَنْصُورَةٌ بِكَتَائِبِ
 تَهِيمٍ بِمَغْزَاهُ خِلَالِ أَبِيَّةٍ
 فَلَا يَطْمَعَنَّ فِيهِ الْعِدَا فُلَّ حَدَّهِمْ فِي غَيْرِ أَمْنٍ اللَّهُ يَطْمَعُ طَامِعٌ
 وَالْقَصِيدُ طَوِيلٌ.

وَكُلُّ مُحِبٍّ لِلْأَحَبَّةِ خَاضِعٌ
 كَمَا تُمْ مِنْ رِيْطِ وَهْنِ الْبِرَاقِعِ
 لَوْدَاغٍ فِي قَلْبِي لَهَا وَلِوَادِعِ
 وَهْنِ شَمُوسٍ فِي الْغُصُونِ طَوَالِعِ
 وَلِي لِلْهَوَى قَلْبٌ مُطِيعٌ وَسَامِعٌ
 سِوَى مَلِكٍ دَهْرِي لَهُ الْيَوْمَ طَائِعِ
 إِذَا عَزَّ مِنْ لِلضَّيِّمِ عَنِّي يُدَافِعِ
 تُشِيرُ إِلَيْهِ بِالْكَامِلِ الْأَصَابِعِ
 قَلَانْدُ فِي الْأَعْنَاقِ هُنَّ الصَّنَائِعِ
 إِذَا جَمَعْتَ غُلْبَ الْمُلُوكِ الْمَجَامِعِ
 وَيَوْمَ رَدَى تَحْتَ اللَّوَاءِ مَوَاقِعِ
 وَأَعْرَبَهُمُ بِالسَّيْفِ حِينَ يُمَاصِعِ
 خَوَافِضُ لِلْهَامَاتِ فِيهِ رَوَافِعِ
 مِنَ الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَجِبْرِئِلَ وَازِعِ
 وَتَغْنَى بِمَغْنَاهُ نَفُوسٌ نَوَازِعِ

الوزراء الأجلاء الشعراء

أبو محمد وأبو بكر وأبو الحسن بنو القبطرنة بيت الفضل والإحسان، والمعاني الحسان. فمن أحسن أخبارهم، ورقيق أشعارهم أنهم باتوا ليلة في زمن الربيع بالمنية التي أنشأها السلطان المتوكل على الله؛ وسماها بالبديع، يتعاطون كئوس الراح، ويدور عليهم منها أقداح الأفراح؛ إلى أن غلبهم النوم، وربط على آذانهم فارتفع عنهم اللوم؛ فلما تبلى وجه الصباح، وألبست الشمس معصفر خلعتها فجاج البطاح؛ هب كل واحد منهم من نومه منشدا رافعا عقيرته يالإنشاد مغردا؛ فقال الوزير الأوحى أبو محمد:

سَتَرَ اللَّيْلَ ضَوْؤُهُ وَبَهَاؤُهُ

يَا شَقِيقِي أَنْتَى الصَّبَاحُ بِوَجْهِهِ

فاصْطَبِحْ وَاغْتَمِّمْ مَسْرَةَ يَوْمٍ

ثم استيقظ الوزير الخطير أبو بكر فقال:

يا أَخِي قُمْ تَرَ النَّسِيمَ عَلِيلاً

لَا تَنْمَ وَاغْتَمِّمْ مَسْرَةَ يَوْمٍ

ثم استيقظ أخوهما الوزير الحسن أبو الحسن فقال:

يا صَاحِبِي ذَرَا لَوْمِي وَمَعْتَبِي

وَبَادِرَا غَفْلَةَ الْأَيَّامِ وَاغْتَمِّمَا

لَسْتَ تَدْرِي بِمَا يَجِيءُ مَسَاؤُهُ

بَاكِرِ الرَّوِّضِ وَالْمَدَامِ شَمُولاً

إِنَّ تَحْتَ التُّرَابِ نَوْماً طَوِيلاً

قُمْ نَصْطَبِحْ خَمْرَةً مِنْ خَيْرِ مَا ذَخَرُوا

فَالْيَوْمَ خَمْرٌ وَيَبْدُو فِي غَدٍ خَبْرٌ

وذو الوزارتين الناظم النائر الكثير المعالي والمآثر أكتب أهل زمانه على الإطلاق، وآدب أهل الأندلس بالإجماع والاتفاق؛ مع التقييد للحديث، والاشتغال بعلمه في القديم والحديث:

ابن أبي الخصال

أبو عبد الله محمد بن مسعود حدثني عنه خمسون شيخاً، منهم قاضي القضاة إمام النحويين، بقية أعلام مشيخة الأندلسيين، أبو جعفر أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن سعد بن مضاء اللخمي رضي الله عنه.

فمما أنشدونا له في مطرب:

وَإِذَا وَقَدِ عَظُمْتُ عَلَى ذُنُوبِهِ

فَمَحَا إِسَاءَتَهُ بِهَا إِحْسَانَهُ

وله يعتذر من استبطاء المكاتبة:

فِي غَيْبَةٍ قَبَّحْتُ بِهَا آثَارُهُ

وَاسْتَغْفَرْتُ لَذُنُوبِهِ أَوْتَارُهُ

أَلَمْ تَعْلَمُوا وَالْقَلْبُ رَهْنٌ لَدَيْكُمْ

يُخَبِّرُكُمْ عَنِّي بِمُضْمَرِهِ بَعْدِي

وَلَوْ قَبِلْتَنِي الْحَادِثَاتُ مَكَانَكُمْ

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي وَأَهْلِي وَوَالِدِي

لَأَنْهَيْتَهَا وَفَرِي وَأَوْطَأْتَهَا خَدِّي

فِدَاءٌ وَلَا أَرْضَى بِتَقَدِّمِي وَحَدِي

ولابن أبي الخصال تصانيف كثيرة، مستحسنة أثيرة؛ منها: كتاب ظل الغمامة وطوق الحمامة، في مناقب من خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم من صحابته رضي الله عنهم بالكرامة، وأحلهم بشهادته الصادقة دار المقامة. والقصيدا الموسومة بمعراج المناقب، ومنهاج الحسب الثاقب؛ في نسب رسول الله

صلى الله عليه وسلم. وما انتظم به من مناقب صحابته الأبرار. إلى غير ذلك من ترسله الفائق، وشعره الرائق، وذلك في خمس مجلدات.

وأشدي الوزير الفقيه المحدث الفاضل الكاتب أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم ابن عميرة المروي؛ المنسوب إلى مدينة المرية، على ما تقتضيه صناعة العربية؛ قال: حدثني بجميع تصانيفه الوزير أبو نصر الفتح بن خاقان، سماحه الله بما سلف منه وكان، وكان طبعه في الانقياد له في ميدان البلاغة سلس العنان؛ وقد قدمنا أنه قتل ذبحاً، ورأوا له في تشحطه بدمائه سبحاً.

فمن شعره يخاطب أبا يحيى محمد بن الحاج، وقد كان وقع بينه وبينه في بعض الأيام تنازع أدى إلى الانفصال، وتعطيل تلك البكر والآصال؛ ثم انقضت تلك المخيلة، وتحركت فيه المودة الدخيلة؛ وأكدت تجديد ذلك العهد الرائق، وكف أيدي العوائق، فكتب إليه:

أَكْبَعَةَ عَلِيَاءٍ وَهَضْبَةَ سُودَدٍ
هَنِيئاً لِمَلِكِ زَانَ نُورُكَ أَفْقَهُ
وَإِنِّي لَخَفَاقِ الْجَنَاحَيْنِ كَلِمًا
وَقَدْ كَانَ وَاشٍ هَاجِبًا لِنَتَافُرٍ
فَهَلْ لَكَ فِي وَدِّ ذَوِي لَكَ ظَاهِرًا
وَلَسْتُ بِعَلِقٍ بِيَعٍ بَخْسًا وَإِنِّي
وَرَوْضَةَ مَجْدٍ بِالْمَفَاخِرِ تَمْطِرُ
وَفِي صَفْحَتَيْهِ مِنْ مَضَائِكَ أُسْطَرُ
سَرَى لَكَ ذَكَرٌ أَوْ نَسِيمٌ مُعْطَرُ
فَبِتُّ وَأَحْشَائِي جَوَى تَنْقَطِرُ
وَبَاطِنُهُ يَنْدَى صَفَاءً وَيَقْطُرُ
لَأَرْفَعُ أَعْلَاقِ الزَّمَانِ وَأَنْضِرُ

الأعلاق: جمع علق، وهو الشيء النفيس، فأمر الأمير ذو الوزارتين أبا عبد الله ابن أبي الخصال بمراجعته، فكتب عنه بقطعة منها:

تَنَبَّيْتُ أَبَا نَصْرٍ عِنَانِي وَرَبَّمَا
وَنَالَتْ هَوَى مَا لَمْ تَكُن لَتَنَالَهُ
وَمَا أَنَا إِلَّا مَنْ عَرَفْتَ وَإِنَّمَا
نَظَرْتَ بَعِينٍ لَوْ نَظَرْتَ بِغَيْرِهَا
تَنَّتْ عَزْمَةَ السَّهْمِ الْمُصْمَمِ أُسْطَرُ
سُيُوفٌ مَوَاضٍ أَوْ قَنَا تَتَأَطَّرُ
بَطَرْتُ وَدَادِي وَالْمُودَّةُ تُبْطِرُ
أَصَبَّتْ وَجْفُنُ الرَّأْيِ وَسَنَانُ يَسْطَرُ

الوزير الحسيب العالم الأوحد:

ابن الجد

أبو القاسم محمد بن عبد الله الفهري النسب، المستبحر في الحديث والفقهِ والمتقدم في الأدب وعلم النسب؛ كاتب الحضرة العليا، المرجو للدين والدنيا. توفي رحمه الله سنة خمس عشرة وخمسمائة حدثني

عنه ابن عمه حافظ أهل زمانه، المقدم على أهل عصره بحفظ مذهب إمام دار الهجرة، أبي عبد الله مالك بن أنس وأصحابه، ونصوص أقوالهم، واتفاقهم واختلافهم، مع المعرفة بلسان العرب، والنهاية في الفضل والدين وسمو النسب، والجاه وأعلى الرتب، أبو بكر محمد بن عبد الله بن يحيى بن الجدد. توفي رضى الله عنه ليلة الخميس الرابع عشر من شوال سنة ست وثمانين وخمسمائة، ودفن ظهر يوم الخميس بداره بمدينة إشبيلية؛ ولم يتخلف عن شهود جنازته كبير إنسان، ومشى فيها الملوك والعلماء وجميع الأعيان، حتى أودعوه بطن ضريحه وتركوه في ذمة من الله وضمان. وكان مولده في شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين وأربعمائة. فكان له من العمر يوم وفاته تسعون سنة وسبعة أشهر. فمن شعر الوزير أبي لقاسم بن الجدد ما أنشدنيه له ابن عمه رحمهم الله:

لئن رآق مرأى للحسان ومسمعُ
عروسٌ جلاها مطلعُ الشمسِ فانتنتُ
زفتت بها بكرًا تضوع طيبها
لها من طرازِ الحُسنِ وشيْءٍ مهلَّلُ
فحسناؤك الغراء أبهى وأمتعُ
إليها النجومُ الزاهراتُ تطلعُ
وما طيبها إلا التناء الموضوعُ
ومن صيغة الإحسان تاجُ مرصعُ

وأنشدني له:

أما ونسيمُ الروضِ طاب له نشرُ
يُحامي له عن سره زهرُ الربى
ففي كلِّ سرٍّ من أحاديثِ طيبه
لقد فغممتني من ثنائك نَفحةٌ
وهبَّ له من كلِّ زاهرةٍ نشرُ
ولم يدر أن السرَّ في طيبه نشرُ
تمائمُ لم يعلّق بحاملها وزرُ
يُنافسني في طيبِ أنفاسِها العطرُ
وقد أوهمتني أن منزلها الشحرُ
تجانف عن مسرى صرامتي الكبرُ
فخيّل لي أن ارتياحي بها سكرُ
وإيّاك في محض الهوى الماءُ والخمرُ
وفي جوك الشمسُ المنيرةُ والبدرُ
ومن بحرك الفياض يُستخرج الدرُّ
وقد سالَ في أرجاء معدنه التبرُّ
أما ونسيمُ الروضِ طاب له نشرُ
يُحامي له عن سره زهرُ الربى
ففي كلِّ سرٍّ من أحاديثِ طيبه
لقد فغممتني من ثنائك نَفحةٌ
تضوع منها العنبرُ الندُّ فانتنت
سرى الكبرُ في نفسي لها ولربما
وشيب بها معنى من الرّاح مطربُ
أبا عامرٍ أنصف أخاك فإنه
أمثلكُ يبغي في سمائي كوكبا
ويلتمسُ الحصباء في ثعب الحصى
عجبت لمن يهوى من الصقر تومةً

قوله: "لقد فغممتني" الفغم، بالغين المعجمة يستعمل في ملء الرائحة، أنفاً أو مكاناً قال الراجز:

نفحة مسك تفغم المزكوما

ومن المتقدمين من شعراء الأندلس والمغرب:

أبو القاسم محمد بن هاني

الأندلسي الدار، وإن كان قبيح الغلو، شهير الاستهتار، فرما صدرت عنه درر تلحقه بالشعراء الكبار:

فُتِّقَتْ لَكُمْ رِيحُ الْجِلَادِ بَعْدَ بَرِّ
وَأَمْدُكُمْ فَلَقَّ الصَّبَّاحِ الْمُسْفِرِ
وَجَنِينُكُمْ يَمَرُ الْوَقَائِعِ يَانِعًا
بِالنَّصْرِ مِنْ وَرَقِ الْحَدِيدِ الْأَخْضَرِ

قال ذو النسيين، رضي الله عنه، هذا بيت بديع زاد فيه على قول البحري:

حَمَلْتُ خَمَائِلُهُ الْقَدِيمَةَ ثِقَلُهُ
مِنْ عَهْدِ عَادٍ غَضَّةٌ لَمْ تَدْبَلِ
وَضَرَبْتُمْ هَامَ الْكُمَاةِ وَرُعْتُمْ
بِيضَ الْخُدُورِ بِكُلِّ لَيْثٍ مُخْدِرِ
أَبْنِي الْعَوَالِي السَّمْهَرِيَّةِ وَالسِّيَوِ
فِ الْمَشْرِفِيَّةِ وَالْعَدِيدِ الْأَكْثَرِ
مَنْ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْمُطَاغُ كَأَنَّهُ
تَحْتَ السَّوَابِغِ تُبَعُّ فِي حِمِيرِ
الْقَائِدِ الْخَيْلِ الْعِتَاقِ شَوَازِبًا
خُزْرًا إِلَى لِحْظِ السَّنَانِ الْأَخْزَرِ

ومنها يصف الممدوح:

نَحَرَ الْقَبُولَ مِنَ الدَّبُورِ وَسَارَ فِي
جَمَعَ الْهَرَقْلِ وَعَزَمَةَ الْإِسْكَانِدِرِ
فِي فَنِيَّةٍ صَدَأَ الدَّرُوعِ عَبِيرُهُمْ
وَخَلَوْقُهُمْ عَلَقُ النَّجِيعِ الْأَحْمَرِ
لَا يَأْكُلُ السَّرْحَانُ شَلْوَةَ عَقِيرِهِمْ
مِمَّا عَلَيْهِ مِنَ الْقَنَاءِ الْمَتَكْسِرِ

قوله: "لا يأكل السرحان شلو عقيرهم... البيت". أي لو يمت لشجاعته حتى تحطم عليه من الرماح ما لا يصل معه الذئب إليه، ولو كان العقير هو الذي عقروه هم لكان البيت هجوا، لأنه كان يصفهم بالتكاثر على واحد.

ومن قوله أيضا يمدح الأمير أبا الفضل جعفر بن علي الأندلسي:

أَلَيْلَتَنَا إِذْ أَرْسَلْتَ وَارِدًا وَحَفَا
وَبَاتَ لَنَا سَاقٍ يَصُولُ عَلَى الدُّجَى
وَبِتْنَا نَرَى الْجُوزَاءَ فِي أَدْنَاهَا شَنْفَا
بِشَمْعَةٍ صُبْحٌ لَا تُقَطُّ وَلَا تُطْفَا

ومن مليحها قوله:

يَقُولُونَ حَقْفٌ فَوْقَهُ خَيْرُ رَانَةٌ
أَمَّا يَعْرِفُونَ الْخَيْرَ رَانَةَ وَالْحَقْفَا

جَعَلْنَا حَسَايَانَا نِيَابَ مُدَامِنَا
فَمَنْ كَبِدٌ تَدْنِي إِلَى كَبِدِ هَوَى
وقوله منها يشبه نجوم الليل:

فولت نجومٌ للثريا كأنها
ومرّ على آثارها دبرائها
وأقبلت الشعري العبور مكبّةً
وقد بادرتها أختها من ورائها

وقدّتنا لنا الظلماء من جلدنا لحفا
ومن شفة توحى إلى شفة رشفا

خواتيم تَبْدُو في بَنَانِ يَدِ تَخْفَى
كصاحب رداء كمننت خيله خلفا
بمِرْزَمِهَا اليعيوب تجنّبهُ طرفاً
لِتَخْرُقَ من ثَنِيي مَجْرَتِهَا سِجْفَا

تخاف زئير الليث يقدّم نثره
كأن السماكين اللذين تظاهرا
فذا رامح يهوى إليه سنانه
كأن رقيب الليل أجدل مرّقب
كأن بني نعش ونعشا مطافل
كأن سهيلاً في مطالع أفضه
كأن سهاها عاشق بين عود
كأن معلّى قطبها فارس له
كأن قدامي النسّر والنسر واقع
كأن أخاه حين دوّم طائراً
كأن الهزيع الأبنوسي لوئه
كأن ظلام الليل إذ مال ميّلة
كأن عمود الفجر خاقان معشر
كأن لواء الشمس غرة جعفر

وبيرير في الظلماء ينسفها نسفا
على لبديته ضامنان له حتفا
وذا أعزل قد عض أنملة لهفا
يقلّب تحت الليل في ريشه طرفاً
بوجرة قد أضلّان في مهمه خشفا
مفارق ألف لم يجد بعده ألفا
فأونة يبدو وأونة يخفى
لواء ان مركزوزان قد كره الزحفا
قُصصن فلم تسم الخوافي به ضعفا
أتى دون نصف البدر فاخطف النصفاً
سرى بالنسيج الخسرواني ملنفا
صريع مدام بات يشربها صرّفا
من الترك نادى بالنجاشي فاستخفى
رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفا

وبقية شعر هذا الرجل قعاقع وجعاجع، وثلاثة الأثافي والرسوم البلاقع.

والخسرواني: الحرير الرقيق الحسن في الصنعة، منسوب إلى خسرو، أحد ملوك الأكاسرة.

ومنهم الأديب، الشاعر الأريب:

أبو جعفر أحمد بن عبد الولي البتي

وبتة: قرية من قرى مدينة بلنسية. وكان كثير التصرف، مليح التطرف. أنشدني له غير واحد من أهل مدينة بلنسية:

غَصَبْتُ الثُّرَيَّا فِي الْبِعَادِ مَكَانَهَا وَأودعت في عيني صادق نوئها
وفي كلِّ حالٍ لم تزلني بخيلةً فكيف أعرتِ الشمسَ حلةً ضوئها

أحرقه القنبيطور -لعنه الله- في حين تغلبه على بلنسية وذلك في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة.
والوزير الكاتب:

أبو الفضل بن حسداي

من بيت شرف اليهود بالأندلس، ذكر القاضي بطليطلة الفقيه المؤرخ المتقن أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن صاعد في كتاب الطبقات له، أن ابن حسداي هذا من ولد موسى صلى الله على نبينا وعليه. جرى في ميدان البلاغة إلى أبعد أمد، وبنى عراسها بالصفاح والعمد؛ وكانت الذمة تقعه عن مراتب أكفائه، وتجد في طموس رسمه وعفائه، حتى ألحقه الله بأقرانه، وأقاله من متعثر خسارانه؛ فتطهر وأسلم، وآمن بمحمد صلى الله عليه وسلم.
فمن شعره القطعة التي أطلعها نيرة، وترك الألباب منها متحيرة؛ ذكرها أبو نصر الفتح بن خاقان، في كتاب قلائد العقيان:

تَوْرِيْدُ خَدِّكَ لِلأَحْدَاقِ لَدَاتُ عليه من عنبر الأصدأغ لاماتُ
نِيرَانُ هَجْرِكَ لِلْعُشَّاقِ نَارُ لَطَى لَكِنْ وَصَالُكَ عَنْ وَاصِلَتِ جَنَاتِ
كَأَنَّما الرَّاحُ وَالرَّاحَاتُ تَحْمَلُهَا بُدُورُ تَمِّ وَأَيْدِي الشَّرْبِ هَالَاتِ
حُشَّاشَةٌ ما تَرَكَنا المَاءَ يَفْتُلُها إِلا لَتَحْيَا بِها مَنَّا حُشَّاشَاتِ
قَدْ كانَ فِي كَأْسِها مَن قَبِلَها تَقَلُّ فَخَفَّ إِذِ مُلِئَتْ مِنْها الزُّجَاجَاتِ

قال ذو النسيين رضي الله عنه: أخذ هذا المعنى من قول الشاعر أبي علي إدريس بن اليمان، من أهل جزيرة يابسة، من قصيدة طويلة بمدح بها إقبال الدولة أبا الحسن علي بن أبي الجيش مجاهد بن عبد الله مولى أبي عامر:

تَقَلَّتْ زُجَاجَاتُ أَتُنَّتْا فُرْغاً حتَّى إِذا مُلِئَتْ بِصِرْفِ الرَّاحِ

وكذا الجسوم تخفُّ بالأرواح

خَفَّتْ فَكَادَتْ تَسْتَطِيرُ بِمَا حَوَتْ

ومنهم الفقيه الأديب الزكي الحسيب:

أبو عبد الله محمد بن الفخار

بيت الفخار، ومنبت الفضل المشرق إشراق النهار؛ يعرف بابن نصف الريض، الراسخ في علم الجواهر والعرض. أنشدني له جماعة من أهل مدينة مالقة، منهم ولده الوزير الأديب، الفقيه الحكيم الأريب: أبو الحسين؛ والخطيب في مجالس الملوك، الناثر من فيه درر السلوك، صديقنا أصبغ بن أبي العباس:

وهل يُنْكَرُ النُّورُ الْمُفْتَحَ فِي غُصْنِ

أُمُسْتَكْرَ شَيْبِ الْمَفَارِقِ فِي الصَّبَا

وإن كنتُ في إحدى وعشرين من سني

أظنُّ طِلَابَ الْمَجْدِ شَيْبَ مَفْرَقِي

ومن شعراء الجزيرة صاحب الموشحات الشهيرة:

أبو بكر بن بقي

فمن شعره:

صَهْبَاءَ كَالْمَسْكَ الْفَنِيْقِ لِنَاشِقِ

عَاطِيَتُهُ وَاللَّيْلُ يَسْحَبُ ذَيْلَهُ

وَدُوَّابَّتَاهُ حَمَائِلٌ فِي عَاتِقِي

وَضَمَمْتُهُ ضَمَّ الْكَمِيِّ لِسَيْفِهِ

زَحَزَحْتُهُ رِفْقًا وَكَانَ مُعَانِقِي

حَتَّى إِذَا مَالَتْ بِهِ سِنَةُ الْكَرَى

كِي لَا يَنَامُ عَلَى وَسَادٍ خَافِقِ

بَاعَدْتُهُ عَنِ أَضْلَعِ تَشْتَاقِهِ

ومنهم الفقيه الأصولي اللغوي النحوي:

العبدري

أبو بكر محمد بن عبد الله بن ميمون بن إدريس بن محمد بن عبد الله، سكن عدوة المغرب، وتصدر بمراكش لإقراء النحو والأدب. لقيته بها سنة خمس وستين، وقد شرح كتاب "الجمال"، وانفرد من الفضل بمفصله والجمال. وتوفي رحمه الله بحضرة مراكش يوم الثلاثاء الثامن عشر من جمادى الآخرة، ودفن ضحى يوم الأربعاء، سنة سبع وستين وخمسمائة. فمن شعره:

وها أنا من مسّها لم أفق

أبا قاسمٍ والهوى جنة

كَمَا خُضَّتْ بَحْرُ دُمُوعِ الْحَدَقِ

أَمَنْتُ الْحَرِيقَ أَمَنْتُ الْغَرَقَ

تَقَحَّمْتُ جَا حِمَّ نَارِ الضُّلُوعِ

أَكُنْتُ الْخَلِيلَ أَكُنْتُ الْكَلِيمَ

ومنهم شاعر المغرب الأقصى، ومفخره في صناعة المحاكاة والتخييل؛ وإن كان له غلو في الأمداح، وإفراط في الاختراع والأقتداح؛ فرمما ثنى عنانه إلى مدح اللطيف الخبير، وروى ظمأه ذلك العذب النمير، وهو:

ابن حيوس

أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حبوس

بالباء بنقطة واحدة من أسفل، مولى بني أبي العافية، الذين ملكوا المغرب الأقصى، في أيام بني أمية الأندلسيين. وأصلهم من تازا، من أهل تسول، من بني مجدول، منهم. وتسول: كانت حاضرة ملكهم، ومنتظم سلكتهم؛ فذهبت أيامهم، وتقلص إنعامهم، وتلك عادة الله، وسنته في الذين خلوا من قبل، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

وقد رفعت ديوان شعره للمقام المولوي السلطاني الملكي الكامل الناصري، أدام الله إنعامه، ووالي له حسن الصنع وأدامه.

لقبته بحضرة مراکش، سنة أربع وستين وخمسائة. ثم دخلت عنده في داره بمدينة فاس، بدرج السراجين منها، فأخذت عنه وسمعت منه. وأنشدني شيخني الفقيه الأستاذ اللغوي النحوي أبو العباس أحمد بن علي بن محمد الكناي - يعرف بابن سيد - من أهل إشبيلية؛ تصدر للإقراء بها، فطلع شمساً من جانبها؛ وكان من أهل البلاغة والشعر، والتقدم في النظم والنثر. ختم كتاب سيبويه مرتين على الأستاذ النحوي أبي القاسم بن الرماك بعد قراءته القرآن العظيم على القاضي أبي الحسن شريح بن محمد، والمجود الكبير أبي العباس أحمد بن عيشون، وأجاز له. وكذلك أجاز له جماعة من علماء قرطبة، منهم الفقيه أبو محمد بن عتاب، والعالم أبو بحر سفيان بن العاصي، والوزير أبو الوليد بن طريف وغيرهم، ولزم الوزير الأديب البليغ الأوحاد أبا محمد ابن عبد الغفور. فقرأ عليه كثيراً. وأنشدنا له في صاحب إشبيلية وقد خرج إلى غزاة:

وَأَرَادَ فَيْكَ مُرَادَكَ الْأَقْدَارُ

أَنِّي حَلَلْتُ وَدِيمَةً مِذْرَارُ

شَّ الْقَتَامَ وَكَيْفَ شَبَّتُ تُدَارُ

وَقَضَيْتَ بِسَيْفِكَ نَحْبَهَا الْكُفَّارُ

سِرُّ حَلِّ حَيْثُ تَحَلُّهُ النَّوَارُ

وَإِذَا ارْتَحَلْتَ فَشَيْعَتُكَ غَمَامَةٌ

تَنْفِي الْهَجِيرِ بَطْلَهَا وَتُنِيمُ بِالرَّ

وَقَضَى الْإِلَهَ بِأَنْ تَعُودَ مُظْفَرًا

وقد أبدع في هذه الأبيات غاية الإبداع، وهي من ابلغ ما قيل في الوداع.
وأنشدني رحمه الله قال: أنشدني الوزير الشريف الحسيب النسيب أبو محمد عبد العزيز بن الحسن بن أبي
البسام الحسيني، فريد عصره ووحيد دهره.

قال: نزلت بفندق بمدينة دانية ليلاً، فرأيتني امرأة كانت تعرفني في أيام السلطان أبي الطاهر تميم، وهي
الحرّة الفاضلة مريم بنت إبراهيم؛ والدنيا قد سحبت على من جاهها ووزارتها ذيلًا، فقلت مرتجلاً:

عَاذَلْتِي لَا تُفَنِّدِينِي أَنْ صِرْتُ فِي مَنْزِلِ هَجِينِ
فَلَيْسَ قُبْحُ الْمَكَانِ مِمَّا يَقْدَحُ فِي مَنْصِبِي وَدِينِي
الشَّمْسُ عَلْوِيَّةٌ وَلَكِنْ تَغْرُبُ فِي حَمَاءِ وَطِينِ

وكان شيخا هذا رحمه الله يلقب باللص لذيائه وسكونه، وتردده خفية في جميع شؤونه؛ وكان لا ينكر
هذا اللقب مع جاهه عند سلطان زمانه، وقد أنشدني بيتين قاهما في الوزير أبي الحسين بن فندله في إبان
شبابه وعنفوانه:

خَلَسْتُ قَلْبِي بِطَرْفِ أَبَا الْحُسَيْنِ خُلُوبِ
فَكَيْفَ أَدْعَى بَلِّصِ وَاَنْتَ لَصُّ الْقُلُوبِ

ولما وصلت المحلات العظيمة، والعساكر العميمة، بجبل الفتح والنصر والهدى، قام منشداً:

عَمَّضُ عَنِ الشَّمْسِ وَاسْتَقْصِرْ مَدَى زُحَلِ وَأَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ الرَّأْسِيِّ عَلَى جَبَلِ
أَنْيَّ اسْتَقَلَّ بِهِ أَنْيَّ اسْتَقَرَّ بِهِ أَنْيَّ رَأَى شَخْصَهُ الْعَالِيَّ فَلَمْ يَزَلْ

توفي شيخنا رضي الله عنه ببلدة إشبيلية سنة ست وسبعين وخمسمائة. وأخبرني أن مولده سنة سبع
 وخمسمائة. سمعت منه كثيراً، وأجاز لي جميع رواياته ولأخي، نفعنا الله.
الوزير الكبير وزير إشبيلية وعظيمها، وشاعرها المشهور وكريمها:

أبو بكر محمد

ابن الوزير الكبير، الطبيب النحير، أبي مروان عبد الملك؛ ابن وزير ذلك الدهر وعظيمه، فيلسوف ذلك
العصر وحكيمه؛ أبي العلاء زهر، ابن الوزير الكبير أبي مروان عبد الملك، الراحل إلى المشرق، وبه تطيب
 زماناً طويلاً وتولى رئاسة الطب ببغداد، ثم بمصر ثم بالقيروان، ثم استوطن مدينة دانية، وطار ذكره منها
 إلى أقطار الأندلس والمغرب، واشتهر بالتقدم في علم الطب حتى بذ أهل زمانه. ومات بدانية. وأبوه

الوزير الفقيه العالم أبو بكر محمد بن مروان بن زهر الإيادي النسب العالم بالرأي والحافظ للأدب. وكان حاذقاً في الفتوى، مقدماً في الشورى، متفنناً في العلوم، وسيماً فاضلاً، جمع الرواية والدراية. توفي بطليبة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وهو ابن ست وثمانين سنة. حدث عنه جماعة من علماء الأندلس، ووصفوه بالدين والفضل، والجود والبذل.

حدثني شيخنا المبدأ بذكره، وهو الوزير أبو بكر، عن جده الوزير أبي العلاء بجميع تواليفه وشعره. وتوفي الوزير أبو العلاء بمدينة قرطبة، ممتحناً من نغلة. بين كتفيه سنة خمس وعشرين وخمسمائة. والذي انفرد شيخنا به وانقادت لتخيله طباعه، وأصارت النبهاء حوله وأتباعه: الموشحات، وهي زبدة الشعر وخلاصة جوهره وصفوته. وهي من الفنون التي أغربت بها أهل المغرب على أهل المشرق. وظهروا فيها كالشمس الطالعة والضيء المشرق، فمن ذلك قوله:

على أوجه كالبُذورِ

سَدَلْنَ ظِلَامَ الشُّعُورِ

سَقَرْنَ فِلاحَ الصِّباحِ

هَزَزْنَ قُدُودَ الرِّماحِ

ضَحِكْنَ ابْتِسامَ الأَفاحِ

كَانَ الَّذي في النُّحُورِ

سَلُّوا مُقَلَّتِي سَاحِرِ

عَنِ السِّحْرِ والسَّاحِرِ

وَعَنِ نَظَرِ حائِرِ

يَرِيشُ سَهامَ الفُتُورِ

لَقَد هَمَّتَ وَيحي بِها

وَذُلَّ قَلْبِي لَها

أَما وَالهُوى إِنَّها

لَظَبِّي كِناسِ نَفُورِ

حُرِّمَتْ لذيذَ الكَرَى

سَهَرْتُ وَنامَ الوَرَى

تُرى لَيتَ شِعْري تُرى

تَخَيَّرْنَ مِنْهُ الثُّغُورِ

ويَرمي خَبايا الصُّدُورِ

تَغارُ عَلَيهِ الخُدُورِ

أَسْرَفُ غُلَامِكَ صَبُورٌ أَسَاعَدْتُ لَيْلِي شُهُورٌ
أُمُّ اللَّيْلِ حَوْلِي يَدُورٌ ظَفَرْتُ بِصَبِّ كَثِيبٍ
فَنَكَّدَ وَعَذَّبَ وَجُورٌ

وقوله:

أَيُّهَا السَّاقِي إِلَيْكَ الْمُشْتَكِي
وَنَدِيمِ هِمَّتُ فِي غُرَّتِهِ
وَسَقَانِي الرَّاحِ مِنْ رَاحَتِهِ
كَلِمَا اسْتَيْقِظَ مِنْ سَكْرَتِهِ
جَذَبَ الزَّقِّ إِلَيْهِ وَأَتَا
لَيْسَ لِي صَبْرٌ وَلَا لِي جَلْدٌ
مَا لِقَوْمِي عَدَلُوا وَاجْتَهَدُوا
أُنْكُرُوا شَكْوَايَ مِمَّا أَجِدُ
وَسَقَانِي أَرْبَعًا فِي أَرْبَعِ

مِثْلُ حَالِي حَقُّهَا أَنْ تُشْتَكِيَ
غُصْنُ بَانٍ مَالٍ مِنْ حَيْثُ اسْتَوَى
بَاتَ مِنْ يَهْوَاهُ مِنْ فَرَطِ الْجَوَى
خَافَقَ الْأَحْشَاءَ مَوْهُونَ الْقُوَى
كَلِمَا فَكَّرَ فِي الْبَيْنِ بَكَى
مَا لِعَيْنِي شُغِفَتْ بِالنَّظَرِ
أُنْكُرْتُ بَعْدَكَ ضَوْءَ الْقَمَرِ
فَإِذَا مَا شِئْتُ فَاسْمَعْ خَبْرِي
وَبَكَى بَعْضِي عَلَى بَعْضِي مَعِي عَشَّيْتُ عَيْنَايَ مِنْ طُولِ الْبُكََا

الشغاف: حجاب القلب؛ وقيل: سويداؤه؛ وهو الشغف أيضا، بالعين المهملة.
قال الله العظيم: "قد شغفها حبا". وشغفة القلب: أعلاه، وهو معلق النياط. قال أبو عبيد: المشغوف:
الذي بلغ حبه شغاف قلبه؛ وبالعين المهملة: الذي خلص الحب إلى قلبه فأحرقه.

وكان شيخنا الوزير أبو بكر -رحمه الله- بمكان من اللغة مكين، ومورد من الطلب عذب معين. كان يحفظ شعر ذي الرمة، وهو ثلث لغة العرب، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب، والمترلة العليا عند أصحاب المغرب مع سمو النسب، وكثرة الأموال والنشب صحبته زمانا طويلا، واستفدت منه أدبا جليلا. واستجزته في جميع تصانيف أسلافه وتصانيفه، وجميع شعره ونثره وتواليفه.

ومن شعره:

وموسدين على الأكف خدودهم
ما زلت أسقيهم وأشربُ فضلهم
والخمر تعلم كيف تطلبُ ثأرها

قد غالهم نومُ الصِّباحِ وغالني
حتى سكرتُ ونالهم ما نالني
إني أملتُ إناءها فأمالني

ومن شعره:

رمتُ كبدي أختُ السمَّاكِ فأقصدتُ
قريبةً ما بين الخلاخلِ إن مشتُ
نعمت بها حتى أتيتُ لنا النوى

ألا بأبي رامٍ يُصيب ولا يُخطشي
بعيدةً ما بين القلادة والقرط
كذا شيم الأيام تأخذ ما تعطي

سألته رحمه الله عن مولده فقال: ولدت سنة سبع وخمسمائة. وبلغتني وفاته آخر سنة خمس وتسعين وخمسمائة وأنشدني الوزير الكاتب أبو الحكم علي، ابن الوزير الأعلى أبي بكر محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز بن محمد بن الحسين بن كميل بن عبد العزيز بن هارون اللخمي قال: أنشدني أبي لنفسه:

قد هزرتاك في المكارم غصنا
ووجدنا الزمان قد لأن عطفاً
فإنها ما سألته كان سمحاً
مؤثراً أحسن الخلائق لا يع
أنت ماء السماء اخصب واد
نزعَت بي إلى وداك نفسُ

واستلمناك في النوائب رُكناً
وتأتى فعلاً وأشرق حُسناً
وإذا ما هزرتَه كان لَدنا
رف ضناً ولا يكذبُ ظناً
يه ورفَّت رياضُه فانتجعنا
قلماً استمتعتُ بذِي الفضلِ خدنا

وأنشدني له وقد ودع

في ذمَّة المجدِّ والعلِّاءِ مُرتحلٌ
ضاعتُ به برهةً أرجاءُ قُرطبة

فأرقتُ صبري مذ فأرقتُ موضعه
ثم استقلَّ فسراً النَّينُ مَطْلعه

والوزير أبو الحكم هذا يعرف أبوه بابن المرخي. وصوابه عند أهل النحو: المرخي، بفتح الخاء. وهو من أهل قرطبة، وأصلهم من شرانة، قرية من قرى شريش شذونة. وكان أبوه بذ أهل وقته في الكتابة والأدب، واللغة وأنساب العرب؛ وكان وزيراً جليلاً بوزارة السلاطين بقرطبة، وكان ينتفع به الناس لحسن وساطته، ومبادرته إلى قضاء حوائج الناس ومشاركته.

أخذت عن ولده الوزير: أبي الحكم جميع ما رواه عن أبيه وعن غيره من أشياخ قرطبة، منهم ابن عمه الوزير الكبير أبو جعفر بن عبد العزيز. وأخذت عنه استدراكه على الوزير أبي عبيد البكري في معجم ما استعجم، وذلك نحو من أربعمائة موضع. وسمعت من لفظه أو هام ابن قتيبة في المعارف. وصحبته كثيراً، وأخذت عنه فضلاً غزيراً، واستجزته في جميع ما رواه، وألفه، فأجاز لي ولأخي الحافظ أبي عمرو. وسألته عن مولده، فقال: ولدت آخر سنة تسع عشرة وخمسائة. وتوفي رحمه الله بحضرة مراکش سنة أربع وثمانين وخمسائة، وشهدت جنازته.

وصاحب أحكام القضاء بمدينة مالقة، الفقيه العالم: أبو الحسن صالح بن عبد الملك.

ابن سعيد الأوسي

يعرف بالقتيرال، بالقاف، والنون والتاء المثناة باثنتين من فوقها والراء المهملة.

وكان شيخاً جليلاً، محدثاً، فقيهاً، فاضلاً، أصيلاً. لقي قاضي الجماعة، أبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشيد المالكي مؤلف كتاب المقدمات لأوائل كتب المدونة، وكتاب البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل، واختصار المبسوط، واختصار مشكل الآثار للطحاوي - و الإمام العالم قاضي الجماعة أبا عبد الله، محمد بن الحاج الشهيد، فسمع عليه صحيح مسلم. ولقي الإمام العالم أبا بكر غالب بن عطية الحاربي، والفقيه المشاور القاضي أبا الحسن علي بن أضحي الهمداني، والمحدث الجليل أبا جعفر أحمد بن محمد بن عبد العزيز اللخمي، ولقي بلوشة الفقيه الإمام أبا الوليد هشام ابن أحمد بن هشام الهلالي، قرأ عليه، وعلق عنه جميع كلامه، على صحيح البخاري، وكان عالماً به واقفاً على معانيه. ولقي بإشبيلية القاضي الإمام أبا بكر محمد بن عبد الله العربي المعافري، وكان مختصاً به. والفقيه المشاور القاضي أبا مروان الباجي، والمقرئ النحوي القاضي بإشبيلية أبا الحسن شريح بن محمد الرعيني، والفقيه القاضي الإمام أبا القاسم أحمد بن محمد بن أحمد بن عيسى ابن منظور، والوزير أبا بكر محمد بن فندله. والوزير الحسين أبا عبد الله جعفر بن مكّي، وقرأ القرآن العظيم بقرطبة علي ابن ذروة، وعلى الأستاذ عياش بن عبد الملك الأزدي اليابري. ولقي الفقيه المشاور الأستاذ أبا عبد الله محمد بن عيسى المشتهر بالشرقي،

ولقي بالمرية الإمام العالم الأوحى أبو القاسم ابن ورد، وقرأ عليه الحديث تفقيها، والفقير الإمام الزاهد الشهيد أبو عبد الله محمد بن يحيى، يعرف بابن الفراء، وسمع عليه. ولقي ببلده مالقة الفقيه المشاور الفاضل أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن معمر، والفقيه الأستاذ المقرئ أبو علي بن تملأ، يعرف بالأحدب، والأستاذ النحوي أبو الحسين بن الطراوة، والفقيه الأستاذ اللغوي أبو عبد الله محمد بن سليمان هو ابن أخت غانم. ولقي من أهل مرياطر بلنسية الإمام العالم أبو بحر سفيان بن العاصي، ولقي الأستاذ المقرئ أبو المطرف عبد الرحمن بن سعيد الفهمي، حدثه عن الفقيه عبد الحق الصقلي إجازة، وعن القاضي الإمام أبي الوليد الباجي سماعاً عليه، وعن الإمام أبي عمر بن عبد البر إجازة، وعن غيرهم.

ولقي في علم الأصول الفقيه المتكلم أبو العباس أحمد بن محمد الجذامي، يعرف بابن الزنقي، إلى غير ذلك من شيوخه. وقد سمعت عليه وصحبته، وأجاز لي جميع رواياته، ولأخي الحافظ أبي عمرو.

ومن أعظم ما شاهد أهل الأندلس منه أن يده اليمنى بطلت فأطلق الله يده اليسرى، فكتب بها دواوين لا تحصى كثرة، كمسند البزار وغيره، كما كان يكتب بيده اليمنى وأحسن. توفي رضي الله عنه بمالقة وهو يتولى الأحكام، ويدرس العلوم سنة خمس وسبعين وخمسمائة.

وأنشدني قال: أنشدني الإمام العالم أبو بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن عطية المحاربي لنفسه، يعاتب بعض إخوانه:

وكنت أظن أن جبال رضوي
ولكن القلوب لها انقلاب
فإن يك بيننا وصل جميل
وإلا فليكن هجر جميل

وقد سمعت هذه الأبيات من الفقيه أبي محمد عبد الحق، ابن قاضي مالقة أبي مروان عبد الملك بن بونة العبدري، قال: أنشدنا الإمام أبو بكر غالب لنفسه أيضا يحذر من خلطة الناس:

جفوت أناساً كنت ألف وصلهم
وما بالجفا عند الضرورة من بأس
بلوت فلم أحمد فأصبحت يائساً
ولا شيء أشفى للنفس من اليأس
فلا تعدلوني في انقباضي فإني
رأيت جميع الشر في خلطة الناس

وأنشدني القاضي الفقيه أبو الحسن صالح المذكور، قال: أنشدنا الفقيه القاضي أبو الحسن بن أضحى:

أزف الفراق وفي الفؤاد كلوم
ودنا الترحل والحمام يحوم
قل للأحبة كيف أنعم بعدكم
وأنا المسافر والفؤاد مقيم
قالوا الوداع يهيج منك صباة
ويثير ما هو في الهوى مكتوم

قَلْتُ اسْمَحُوا لِي أَنْ أَفُوزَ بِنَظْرَةٍ

وَدَعُوا الْقِيَامَةَ بَعْدَ ذَلِكَ تَقُومُ

وحدثني شيخنا المذكور آنفا قال: أخبرنا القاضي أبو بكر بن العربي وأملاه علي، قال: حدثنا محمد بن عبد الملك التنيسي الصوفي قال: خرجنا مع شيخنا أبي الفضل بن الجوهري بنجب عميرة لتشيع الحاج ووداعه على العادة، فبتنا معهم. وحين أصبحنا وأثيرت الجمال وقوض الناس للرحيل إذا بفتى شاب حسن الوجه عليه شحوب واصفرار، وهو يشيع الهوداج هودجاً هودجا، حتى فنيت الهوداج ومشى الحاج، وهو يقول أثناء ترده عليها، ونظره إليها:

وَفِي أَيِّ خَدْرٍ مِنْ خُدُورِكُمْ قَلْبِي

أَحْجَاجَ بَيْتِ اللَّهِ فِي أَيِّ هُودَجٍ

وَحَادِيكُمُ يَحْدُو بِقَلْبِي مَعَ الرَّكْبِ

أَبْقَى رَهِيْنَ الْجِسْمِ فِي أَرْضِ غُرْبَةٍ

وَلَمْ أَتَمَتَّعْ بِالْجَوَارِ وَبِالْقُرْبِ

فَوَا أَسْفَا لَمْ أَقْضِ مِنْكُمْ لُبَانْتِي

فَهَأَنْذَا أَقْضِي عَلَى إِثْرِكُمْ نَضْحَبِي

وَفُرَّقَ بَيْنِي فِي الرَّحِيلِ وَبَيْنَكُمْ

فلما أكمل الحاج السير ويمس، ضرب بنفسه إلى الأرض وجعل يقول:

بَانَ مِنْ تَهَوَّاهُ وَارْتَحَلُوا

خَلَّ دَمْعَ الْعَيْنِ يَنْهَمِلُ

فَهُوَ يَوْمَ الْبَيْنِ مُبْتَدِّلُ

أَيُّ دَمْعٍ صَانَهُ كَلْفُ

ثم مال إلى الأرض، فجتنا إليه فوجدناه ميتا.

أبو الفضل بن الجوهري، هذا مصري؛ كان يسكن القرافة، واسمه عبد الله ابن حسين؛ أسماه الإمام أبو بكر بن عطية. وهو واعظ جليل، وفقهه نبيه ونبيل. روى عنه من العلماء: أبو مروان عبد الملك بن زيادة الله الطيني، وأبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي، وغيرهما. وذكره الأمير أبو نصر بن ماكولا في كتاب الإكمال له وأثنى عليه وقال: "روى عنه الحميدي".
وصاحب لواء العربية، وذو النسب السرية:

أبو محمد القاسم بن عبد الرحمن

ابن القاسم بن مسعدة بن عبد الرحمن بن القاسم بن عثمان بن إسماعيل بن عثمان بن مطرف بن دحمان بن الغمر بن مرغم بن ذبيان بن فتوح بن نصر الأوسي، من أهل مدينة مالقة، وأصله من وادي الحجارة، وجدته ملكها؛ والدحم، في اللغة: الدفع؛ وبه سمي الرجل دحمان. قاله كراع وغيره.

لقيته بمدينة مالقة فسمعت عليه وأجاز لي ولأخي الحافظ أبي عمرو بخطه. و أخبرني أن مولده سنة خمس وثمانين وأربعمائة ببلنسية، عام حصار القنيطور لها. وتوفي رضي الله عنه بمالقة وله اثنتان وتسعون سنة، يوم الاثنين بعد صلاة العصر، وهو الثاني من ذي القعدة، وآخر يوم من آذار، سنة خمس وسبعين وخمسائة. ودفن يوم الثلاثاء بعد صلاة العصر بمقربة من الشريعة بخارج مالقة. وصلى عليه على شفير قبره أخوه الفقيه أبو عبد الله محمد، وكان رحمه الله إمام أهل زمانه في الحرف والفعل والاسم، والحد والرسم، والتنكير والتعريف، والصرف والتصريف. ويذهب كل مذهب في التعليل. ويفضل رأي عمر وأبي بشر، والخليل. وإذا وقع في وادي الشعر والقريض، فذو لسان طويل وباع عريض. ثم رأى أن الحديث والفقه ثمرة المعارف، وعارفة العوارف؛ فأكثر منهما وأفرط، واستقصر نفسه عن اشتغاله بغيرهما وفرط؛ مع أنه لم تعرف له قط في شببته صبوة، ولا اتخذ أهلاً ولا سمعت عنه هفوة. وانفرد في آخر عمره لإقراء القرآن والقيام به، واجتهد في العبادة، ليله راكعاً وساجداً. وسأل الله الكريم في جنح الظلام متهجداً لا هاجداً؛ إلى أن مات على أحسن أحواله، مقدماً لصالح أعماله. وهو شيخ شيخنا الأستاذ النحوي، أبي القاسم السهيلي؛ قرأ كتاب سيبويه قراءة تفقه وإتقان، وبحث وبيان؛ على نحو أهل زمانه، أبي الحسين بن الطراوة، واختص به. ولقي الخطيب المصقع أبا الفتح سعدون بن مسعود المرادي، فروى عنه جميع رواياته وتواليه؛ والأستاذ اللغوي النحوي أبو عبد الله محمد بن سليمان، المشتهر بابن أخت غانم؛ وقرأ القرآن العظيم على الأستاذ أبي علي المغراوي المتصدر بجامع مالقة. روى بها عن أبي معشر الطبري؛ ولقي الفقيه أبا عبد الله أبي الأديب، والقاضي المتقن أبا محمد التوحيدي. وأجاز له الأئمة العلماء: أبو بحر سفيان بن العاصي، والقاضي الشهيد أبو عبد الله بن الحاج، والفقيه أبو الحسن بن مغيث، والإمام العالم أبو القاسم بن ورد، والعالم أبو جعفر بن باق السرقسطي، نزيل مدينة فاس، والأديب أبو عبد الله جعفر محمد بن مكّي، والقاضي الأديب الكاتب الخطيب أبو الفضل جعفر بن محمد بن يوسف حفيد الأعلام النحوي، أبي الحجاج الشتمري. وأنشدنا قال: أنشدنا الأستاذ اللغوي النحوي، أبو عبد الله محمد بن سليمان النفري، قال: أنشدني خالي اللغوي النحوي العالم الفقيه أبو غانم بن وليد القرشي المخزومي لنفسه:

سَمُّ الْخِيَاطِ مَجَالٌ لِلْحَبِيبِينَ

صَيَّرَ فَوَادِكَ لِلْمَحْبُوبِ مَنزِلَةً

فَقَلَّمَا تَسَعُ الدُّنْيَا بَغِيضِينَ

وَلَا تَسَامِحُ بَغِيضاً فِي مُعَاشِرَةٍ

السم: ثقب الإبرة والفقيه أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد يعرف:

ابن زرقون

بتقديم الزاي المعجمة على الراء المهملة؛ من أهل إشبيلية؛ وقد تكلمنا على نسبه ولقبه في كتابنا المسمى
بوهج الجمر في تحريم الخمر.

أجاز له الشيخ الفقيه أبو عبد الله أحمد بن محمد الخولاني برغبة أبيه سنة اثنتين وخمسمائة، وهو العام الذي
ولد فيه أبو عبد الله، واستجاز أيضا له ولابنه أبي عبد الله القاضي بإشبيلية العالم أبو عبد الله محمد بن
شبرين، والفقيه المفتي أبو محمد بن عتاب. ونقله أبوه إلى حضرة مراکش فلقي بها الفقيه الإمام أبو عمران
موسى بن أبي تليد الشاطبي - إذ كان حمل إلى مراکش، وأخرج عن وطنه - فسمع عليه كتاب التقصي،
فأكثر كتاب السنن لأبي داود، وأجاز له جميع ما رواه. ثم تجول بالأندلس ولزم الوزير الفقيه الكاتب أبو
محمد بن عبدون وقرأ عليه كثيرا من روايته وتصانيفه ومنظومه ومنشوره، وكان أشعر أهل الأندلس
واكتبهم. ولزم الوزير أبو محمد بن القبرطرنة وإخوته. ثم رجع من بطليوس إلى إشبيلية. فقرأ على القاضي
الخطيب بجامعها، أستاذ المقرئين أبي الحسن شريح بن محمد الرعيبي، وعلى الفقيه القاضي العالم اللغوي
النحوي أبي محمد عبد الله ابن الوحيد. ثم لزم القاضي أبا الفضل عياض بن موسى مدة مديدة، وأعواماً
عديدة، وكان فقيه الدرس والنفس، وإن كان حكى عنه ابن خاقان في قلائده أنه كان يحضر مجالس
الأنس. فالتوبة بإجماع محاة للذنوب، مذهبة للمجون والعيوب. وقد استصلح في كبرته للقضاء وقضى،
ولم يقض إلا وهو عدل رضى.

فما أنشدنيه لنفسه، وكتبته من خطه:

ذَكَرَ الْعَهْدَ وَالذَّيَارَ غَرِيبُ
فَجَرَى دَمْعُهُ وَلَجَّ النَّحِيبُ
إِذْ صَفَاءُ الْوُدَادِ غَيْرُ مَشُوبِ
بِتَجَنٍّ، وَوَدُنَا مَشُوبِ
وَإِذِ الدَّهْرِ دَهْرُنَا وَإِذَا الدَا
رُ قَرِيبِ وَإِذْ يَقُولُ الرَّقِيبِ
وَقِيَانِ الْأَوْتَارِ تُسَدُّهَا الْأَطُ
يَارِ وَالرُّوْضِ زَاهِرٍ مَهْضُوبِ
وَوِشَاحِي مَعَاصِمٍ لَوْتِ الشُّو
وَفِرَاشِي بَطْنٍ وَصَدْرٍ وَنَهْدٍ
وَاللَّمَا وَالرُّضَابُ كَأَسِي وَخَمْرِي
وَحِمَى الْأَزْرِ لِي مُبَاحٍ وَحُكْمِي
وَإِذَا مَا الْحِمَى أَغَارَ عَلَيْهِ
وَأَسْأَلُ اللَّهَ عَفْوَهُ فَلَنْنِ سَا
قَدْ يِنَالُ الْفَتَى الصَّغَائِرَ طَرْفَا
عَلَيْهَا مَنِي رَفِيقٌ طَبِيبِ
حَبَّذَا الْكَأْسُ حَبَّذَا الْمَشْرُوبِ
عَمَّ مَقَالِي لَقَدْ تَعَفُّ الْغُيُوبِ
لَا سِوَاهَا وَلِلذُّنُوبِ ذُنُوبِ
قِ عَلَيْنَا وَظَاهَرَتْهَا الْقُلُوبِ
نَافِذٌ فِيهِ وَالْفِعَالُ ضُرُوبِ
عَمَّ مَقَالِي لَقَدْ تَعَفُّ الْغُيُوبِ
لَا سِوَاهَا وَلِلذُّنُوبِ ذُنُوبِ

وأخو الشعر لا جناح عليه

وسواء صدوقه والكذوب

وأنشدني، وكتبته من خطه، يخاطب امرأة:

يا نورَ نَفْسِي حَقُّ الضَّيْفِ مُفْتَرَضٌ

وأنتِ من قَوْمِ صِدْقِ ظَاهِرِي الكَرَمِ

مرّت ليالٍ علينا في جِوارِكُم

ونحن في جَفْوَةٍ أَفْضَتْ إِلَى سَقَمٍ

إن قلتِ تُبْتُ، فما كانتِ مُفاحِشَةً

وإين منك مَقالُ الله في اللَّمَمِ

أو كان نُسكٌ فما ذو النُّسكِ في سَعَةِ أَنْ يَسْتَحِلَّ وَقَاكَ اللهُ سَفَكَ دَمِي

وقد تكلمنا على هذه الأشعار، ومن انتقدها عليه من العلماء الكبار، واعتذرنا عنها أبلغ الاعتذار، وذلك في كتاب "وهج الجمر في تحريم الخمر".

وشاهدناه في آخر عمره قد اتخذ المسجد الجامع داراً، والتفت إلى رواياته وتوابعه فروى صغراً وكباراً. قرأت عليه كثيراً وسمعت، وأجاز لي ولأخي الحافظ أبي عمرو جميع رواياته ومجموعاته. وتوفي رحمه الله على أحسن حالاته ببلدة إشبيلية سنة ست وثمانين وخمسمائة، وله أربع وثمانون سنة. وخلف أموالاً عظيمة، ز كتباً في كل فن كريمة؛ وكان له ولد يكنى أبا الحسين، وكان سخنة عين؛ فأساء ذكره، ولم يتبع حسنه، فأمر صاحب المغرب أن يصفد في الحديد، وأن يلقي في عنقه ما يتصل بجبل الوريد؛ وحمل إلى السجن الذي بباب حميدة، على حالة مذمومة بكل لسان غير حميدة؛ ثم حضر في موطن جرت العادة فيه بضرب رقاب أهل الظلم والعدوان، وهو يحجل في قيوده ويضطرب اضطراب الخيزران؛ ثم أمر بإطلاقه بعد هوان، وخوف غلب على أمان. ثم أمر بإحضار كتبه وهي التي ورثها من أبيه، وكانت تقاوم مالا جسيما وتساويه، في كل صنف تشتمل عليه من الرأي وفيه؛ فأوردت النار وبئس الورد المورود، فأحرقت فسمع للنار تسعسع ورئي لهما وقود، واحترق الكاغد وانزوت الجلود، وذلك يوم يؤرخ به مشهود.

أنشدني الفقيه أبو عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون، قال: أنشدنا الفقيه المفتي أبو عمران موسى بن عبد الرحمن بن أبي تليد شيخنا لنفسه:

حَالِي مع الدَّهْرِ في تَقَلُّبِهِ

كطائِرٍ ضَمَّ رِجْلَهُ شَرَاكَ

فَهُمْهُ في فَكَاكَ مُهْجَتِهِ

يَرُومُ تَحْلِيصَهَا فَتَشْتَبِكُ

وأصل "اللمم" في اللغة: الهم بالخطيئة من جهة مقاربتها، وحديث النفس بما من غير مواقعتها.

ثبت في الصحيحين عن عبد الله بن عباس قال: ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة: إن النبي

صلى الله عليه وسلم قال: كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا

اللسان النطق، والنفس تمني وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه.

ولها طرق في الصحيحين، منها: كتب الله على ابن آدم حظه من الزنا، فأخبر صلى الله عليه وسلم أن العين نظرهما زنا إذا نظرت إلى من لا يحل لها النظر إليه من النساء، وأنها توصل ذلك إلى النفس، فتمنى النفس وتشتهي ما رأت العين، فيكون داعياً إلى الفرج الذي هو يكذب الفعل أو يصدقه. وقد تكلمنا عليه في المجلدة الخامسة من كتاب العلم المشهور، في فوائد فضل الأيام والشهور".

أنشدني الفقيه المحدث المتقن أبو القاسم أحمد بن يوسف بن عبد العزيز ابن محمد بن رشد القيسي، قال: أنشدنا أبو بحر سفيان بن العاصي الأسدي قال: أنشدنا الإمام العالم الأوحى القاضي أبو الوليد هشام بن أحمد بن هشام بن خالد بن سعيد الكنايني يعرف بالوقشي: ووقش: قرية بخارج طليطلة، بينها وبينها اثنا عشر ميلاً. وأبو الوليد الوقشي أحد رجال الكمال في وقته، باحتوائه على فنون المعارف، وجمعه لكليات العلوم، وهو من أعلم الناس بالنحو واللغة، ومعاني الأشعار وعلم العروض وصناعة البلاغة. وهو بليغ مجيد شاعر، متقدم حافظ للسنن وأسماء نقلة الأخبار، بصير بأصول الاعتقادات، وأصول الفقه، واقف على كثير من فتاوى الأمصار، نافذ في علم الشروط والفرائض، محقق لعلم الحساب والهندسة، مشرف على جميع آراء الحكماء، حسن النقد للمذاهب، ثاقب الذهن في تمييز الصواب، ويجمع إلى ذلك آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة، ولين الكنف وصدق اللهجة. وتوفي رضي الله عنه في دار خال أبي الإمام العالم الحسيني أبي بكر عتيق بن محمد بن عبد الحميد بدانية، يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء لليلة بقيت لجمادى الآخرة من سنة تسع وثمانين وأربعمائة.

قال الإمام أبو بحر، وكان مختصاً به، ويقدمه على جميع من لقي من شيوخه، أنشدنا لنفسه:

ببديع أفعال المهيمن ماهرة

قد بينت فيه الطبيعة أنها

بالمسك خطأ من محيط الدائرة

عُنيت بمبسمه فحطت فوقه

وهذا شعر وهندسة.

وأنشدنا الفقيه الإمام المحدث الأصولي النحوي اللغوي أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن باديس بن القائد الحمزي - ينسب إلى حمزة الشرق، على مقربة من أشير، سميت بحمزة بن الحسن بن سليمان بن الحسين بن علي ابن الحسن بن علي بن أبي طالب عليهم السلام، وهو الذي أسسها وبنها. وكان للحسن بن سليمان، وهو الذي دخل المغرب، من البنين: حمزة هذا، وعبد الله، وإبراهيم، وأحمد، ومحمد، والقاسم، وكلهم أعقب - مولد شيخنا بمدينة المرية سنة خمس وخمسمائة وتوفي رحمه الله

بمدينة فاس، يوم الجمعة بعد الصلاة، في أول وقت العصر السادس من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة، وهو يتلو سورة الإخلاص، يكررها بسرعة. ثم تشهد ثلاث مرات وسقط على وجهه ساجدا، فرفع ميتا، وذلك بعد خروجه من الحمام وحلق رأسه، واستحداده واستعداده للقاء ربه، جلت قدرته.

قرأ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتقنه على أبي جعفر بن عزلون صاحب القاضي أبي الوليد الباجي، وعلى القاضي الإمام أبي القاسم ابن ورد، وروى صحيح مسلم عن أبي عبد الله بن زغبة الكلابي يرويه، عن العذري. ورحل إلى شرق الأندلس للقاء الأستاذ العالم إمام النحو والآداب، والشارح للحديث والفقيه والأصول والأنساب، أبي محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطلبيوسي، فقرأ عليه كتاب التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة، وهو كتاب حسن.

وأشدنا شيخنا هذا الفقيه أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف الحمزي، يعرف بابن قرقول في سفرة صحبته فيها سنة أربع وستين وخمسمائة، وأجاز لي جميع رواياته قال: أنشدنا الأستاذ النحوي أبو محمد بن السيد لنفسه:

وأوصاله تحت التراب رميمٌ

يُظنُّ من الأحياء وهو عديمٌ

أخو العلم حي خالدٌ بعد موته

وذو الجهل ميتٌ وهو ماشٍ على الثرى

وشيوخ شيخنا جملة عديدة، وتصانيفه متقنة مفيدة.

ومن لقيت بحضرة مراکش الوزير الكاتب:

أبو عبد الله الشاطبي

وكان فرداً في الكتابة والشعر والخطابة، فمن شعره:

فاشهدْ على عدتي بالزور والكذبِ

وأقبل الصُّبحُ في جيشٍ له لُجِبِ

في الجو ركضَ هلالٍ دائمِ الطلبِ

أدناه من كُرّةٍ صيغت من الذهبِ

كالنار لكنها نارٌ بلا لهبِ

متى وعدتُك في ترك الصبأِ عدّةً

أما ترى الليلَ قد ولتَ عساكره

وجدَّ في أثرِ الجوزاءِ يطلبُها

كصولجانٍ لجينٍ في يدي ملكٍ

فقم بنا نصطبِح صَفراءَ صافيةً

وله:

في وسطِ اللجّةِ تحت الحلكِ

واتخذ الفلكَ مكانَ الفلكِ

انظر إلى البدر الذي لاح لك

قد جعلَ البحرَ سماءً له

وله أيضا وقد لسبت بعض سادات المغرب عقيرب، فقال وأجاد المقال:

هَجَرَ الشَّوْلَةَ قَلْبُ الْعَقْرِبِ
وَجَفَّاهَا بِالْمَكَانِ الْأَقْرَبِ
ثُمَّ قَالَتْ أَنْجُمُ الْأَفْقِ لَهَا
أَنْتِ مَنَا كَالْبَعِيرِ الْأَجْرَبِ
لَكَ أُخْتُ فِي الثَّرَى قَدْ لَسَبْتَ
سَيِّدًا مِنْ خَيْرِ أَهْلِ الْمَغْرَبِ
فَأَجَابَتْهَا وَقَالَتْ إِنَّمَا
غَرَّتْ مِنْ أْخْمَصِهِ إِذْ مَرَّ بِي
يَبْتَغِي عِنْدَ النُّعَامِيِّ مَوْرَدًا
قَدْ دَعَاهُ مِنْهُ عَذْبَ الْمَشْرَبِ
فَتَغَيَّظْتُ عَلَيْهِ غَيْرَةً
قَلْتُ لِلْأُخْتِ بِهَا وَيْكَ اضْرِبِي
يَا سَرِيًّا قَدْ شَكَا أْخْمَصَهُ
لَسَبْتَ إِبْرَةَ تَلْكَ الْعَقْرِبِ
لَيْتَهَا فِي مَقْلَتِي أَوْ كَبْدِي
تَتَمَنَّى النَّعْلُ لَوْ سَبِقَتْ لَهَا
مِنْ قَرَى الطَّائِفِ أَوْ مِنْ يَثْرِبِ

قال علماء اللغة: لسبته العقرب ولسعته، والاختيار أن يقال لكل ما يضرب بفيه: لدغ؛ ولكل ضارب مؤخره: لسع، ولكل قابض بأسنانه: هُش. يقال: هُشته الحية، بالشين؛ وهُسته، بالسين، ونكزته، ونشطته، ولسعته. فالنكز: بأنفها؛ والنشط: بأنيابها.

والرياح أربع من أربع نواحي العالم: الشمال بفتح الشين، وفيها ست لغات. ذكرها الإمام أبو بكر الأنباري في شرح المعلقات له: شمال، بإثبات الألف من غير همزة؛ وشمأل، بإثبات همزة بعد الميم؛ وشمأل، بإثبات همزة قبل الميم؛ وشمأل، بفتح الشين والميم من غير إثبات ألف ولا همزة؛ وشمأل، بفتح الشين وإسكان الميم، وشمول، بإثبات الواو. وقد احتج ابن الأنباري لها بشواهد كثيرة. وهي التي تجري على يمينك إذا استقبلت قبلة العراق، وهي في الصيف حارة، واسمها البارح، والجمع البوارح؛ والجنوب تقابلها. والصبأ من مطلع الشمس، وهي القبول؛ والديبور تقابلها، وهي التي تهب من دبر الكعبة، وفيها خشونة وشدة، وهي تمحو السحاب وتثير العجاج. ويقال للصبأ: أَيْرٌ، وهَيْرٌ، وَأَيْرٌ، وهَيْرٌ، على مثال فيعل. ويقال للشمال: مَحْوَةٌ، غير مصروفة؛ وللجنوب: التُّعَامِي والأزيب. شملت الريح، إذا صارت شمالا؛ ودبرت، إذا صادت دبوراً؛ وجنبت، إذا صارت جنوباً؛ وصبت، إذا صارت صبا؛ كل ذلك بغير ألف. ويقال: أشمل القوم، وأجنبوا. وأصبوا، إذا دخلوا في الشمال والجنوب والصبأ.

فالشمال، هي الريح الشامية. والجنوب، هي الريح اليمانية، وتسمى النعامي والأزيب، كما قدمناه. وهي تهب من ناحية سهيل. والصبأ: هي الريح الشرقية. ويقال لها: القبول، تهب من مطلع الشمس. والديبور: هي الريح الغربية، يابسة جافية، ليس فيها ندوة. وأفضل هذه الرياح في جميع الأزمان ريح الصبا، لها

نسيم وروح، وتشويق إلى الأحباب والأوطان، وجلاء للهموم والأحزان، وبها نصر الله العظيم سيد أهل الإيمان. ثبت باتفاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور". وقال امرؤ القيس:

إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ الْمَسْكُ مِنْهُمَا نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بَرِيًّا الْقَرْنَفْلِ

تضوع، أي فاح متفرقا. ونسيم الصبا: تنسمها وهبها بضعف. وريا القرنفل: رائحته. ونصب "نسيم الصبا" لأنه قام مقام نعت لمصدر محذوف، والتقدير: إذا قامتا تضوع المسك منهما تضوعاً مثل تَضَوَّعِ نسيم الصبا. و"منهما" يعود على أم الحويرث، وقال الشاعر:

أَلَا يَا صَبَا نَجِدُ مَتَى هَجَّتْ مِنْ نَجْدِ فَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكٌ وَجَدًّا عَلَى وَجْدِ

وقال الآخر، وهو المجنون:

أَيَا جَبَلِي نَعْمَانُ بِاللَّهِ خَلِيًّا سَبِيلَ الصَّبَا يَحْلُصُ إِلَيَّ نَسِيمُهَا

فَإِنِ الصَّبَا رِيحٌ إِذَا مَا تَنَسَّمْتَ عَلَى نَفْسٍ مَحْزُونٍ تَجَلَّتْ هُمُومُهَا

أَجْدُ بَرْدَهَا أَوْ تَشْفُ مِنْ حَرَارَةٍ عَلَى كَيْدٍ لَمْ يَبْقَ إِلَّا صَمِيمُهَا

الأستاذ المحدث الفقيه النحوي الأصولي: أبو القاسم السهيلي

أبو زيد عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن، واسمه: أصبغ بن حسين بن سعدون بن رضوان بن فتوح، وهو الداخل للأندلس. هكذا أملي على نسبه، وقال: إنه من ولد أبي رويحة الخثعمي الذي عقد له رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء عام الفتح، ذكره أهل السير. نشأ بمالقة، وبها تعرف، وفي أكنافها تصرف؛ حتى بزغت في البلاغة شمس، ونزعت به إلى مطامح الهمم نفسه. أخبرني انه قرأ القرآن العظيم جمعاً وإفراداً على المقرئ الشهير أبي علي الحسين بن منصور بن الأحذب، رحمه الله، ثم قرأه أيضاً بالمقرئين: مقرراً نافع، وابن كثير، على الأستاذ المقرئ أبي الحسن علي بن عيسى المروي، نزيل مالقة. وقرأ الكتاب العزيز أيضاً بالمقارئ الأربعة، وشيئا من العربية على المقرئ النحوي الزاهد الضرير أبي مروان عبد الملك بن مجير، وسمع على الإمام أبي عبد الله محمد بن معمر. وسمع كتاب الهداية لأبي العباس المهدي على الشيخ الفقيه الأستاذ النحوي أبي عبد الله محمد بن سليمان، يعرف بابن أخت غانم. وقرأ الموطأ تفقها وعرضا، ومنتخب الأحكام لابن أبي زمنين على الفقيه المحدث أبي محمد عبد الرشيد المالقي. وسمع الموطأ على خال أبيه الفقيه المحدث الخطيب الظاهري أبي الحسن علي بن عياش. توفي بصحراء قديد راجعاً من زيارة قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم. وقرأ النحو على الأستاذ أبي الحسين سليمان بن الطراوة الشيباني، فلما مات قرأ على الأستاذ النحوي الفقيه أبي محمد القاسم بن دحمان. ورحل إلى

قرطبة، فقرأ القرآن العظيم بالمقارئ السبعة. على المقرئ أبي داود سليمان بن يحيى. بمسجده بباب الجوز، وقال لي عنه: كان يحمل أبي رحمهما الله. ثم قرأ الكتاب العزيز بالمقارئ الثلاثة بجامع قرطبة على المقرئ بها، الخطيب بجامعها؛ أبي القاسم عبد الرحمن ابن رضا، وسمع على الفقيه الحافظ أبي عبد الله محمد بن نباح الذهبي القرطبي، وعلى الوزير الأديب أبي عبد الله جعفر بن محمد بن مكى. ثم رحل إلى إشبيلية، فلزم القاضي الإمام أبا بكر بن العربي فأخذ عنه كثيرا من الحديث والأصول والتفسير، ثم سمع على المحدث الجليل أبي بكر محمد بن طاهر القيسي الإشبيلي جملة من الحديث، وسمع على القاضي أبي الحسن شريح بن محمد، ولزم الأستاذ الماهر النحوي أبا القاسم بن الرماك فلحق عنه فوائد في النحو. وكان لقي قبله الأستاذ الإمام النحوي الزاهد، أبا القاسم بن الأبرش، فلحق عنه فوائد في النحو. وأجاز له المحدث الراحل إلى مدينة السلام أبو الحسن عباد بن سرحان والقاضي الإمام العالم الأوحى أبو القاسم بن ورد، إلى جماعة من العلماء والنحاة والأدباء رحمهم الله جميعهم، وجعل الرحم خدينهم وكميعهم؛ وكان رحمه الله أقام للتصريف وعلل النحو برهانا، وتيم ألبابا وأذهانا؛ فترشف من ماء العربية أتى مزنه، وتوطأ من أكتافها كل سهله وحزنه؛ وأفاض على الطلبة من سجله، وجلب على النحاة بخيله ورجله؛ وتلقى الراية باليمن، وحوى الغاية بالهزيل والسمين؛ وكان ببلده يتسوغ بالعفاف، ويتبلغ بالكفاف؛ إلى أن وصلت إليه، وصحح "الروض الأنف" بين يديه فطلعت به إلى حضرة مراکش فأوقفت الحضرة عليه؛ فأمروا بوصوله إلى حضرتهم، وبذلوا له من مراكبهم وخيلهم ونعمتهم؛ وقوبل بمكارم الأخلاق، وأزال الله عنه علام الإملاق؛ واستقبل بالجاه الجسيم، والوجه الوسيم؛ وفي كل يوم يجنيهم من حديثه أزهارا، ويقطفهم من ملح آسا وبهارا؛ حتى حسده الطلبة وجردوا لملامه حساما، وحددوا للكلام فصولا وأقساما؛ وكان وصوله إلى الحضرة والعمر قد عسا وذبل عوده. وذهب العيش وأفل سعوده؛ فعندما عاش مات، وهيهات من الانقطاع لغير الله هيهات؛ فتفرد في لحده ومهاده، وتوحد في نجده ووهاده؛ وتوسد التراب والصفوح، وتوهد البياب والفيح، ولسان حاله ينشد ما أنشدنيه غير واحد، منهم شيخنا الإمام المقرئ النحوي الزاهد: أبو القاسم عبد الرحمن ابن غالب بن الشراط، قالوا: أنشدنا الأستاذ اللغوي النحوي أديب أهل زمانه، أبو طاهر محمد بن يوسف التميمي:

فلا ظهِّير ولا نصيرُ

يسمُو به باعِي القصيرُ

أنتَ بها عالمٌ بصيرُ

هأنذا في الترابِ وحدي

بالله هَبْ لي دُعَاءَ صدقِ

أسرفتُ يا رَبِّ في خطايا

فامنن بعفوٍ وجد برحمي

إليك يا ربّي المصير

وكان مقامه بالحضرة نحواً من ثلاثة أعوام، كلها أضغاث أحلام، سألته عن مولده، فأخبرني انه ولد سنة ثمان وخمسمائة، وتوفي رحمه الله بحضرة مراكش يوم الخميس، ودفن ظهره، وهو اليوم السادس والعشرون من شعبان عام أحد وثمانين وخمسمائة. قرأت عليه وسمعت كثيراً من أماليه التي أملاها في معاني الكتاب العزيز وأنواره، ودقائق النحو وأسراره، وغوامض علم الأصول وأغواره. وأنشدني رحمه الله، وذكر لي انه ما سأل الله بها حاجة إلا أعطاه إياها، وكذلك من استعمل إنشادها:

يا من يرى ما في الضمير ويسمعُ
يا من يرجي للشدائد كلها
يا من خزائن رزقه في قول كُن
ما لي سوى فقري إليك وسيلة
يا من رددت فأني باب أقرع
يا من كان فضلك عن فقير يمنع
يا من الذي أدعو وأهتف باسمه
يا من حاشا لمجدك أن تقنط عاصياً
أنت المعدُّ لكل ما يتوقعُ
يا من إليه المشتكى والمفرعُ
امنن فإن الخير عندك اجمع
فبالافتقار إليك فقري أرفع
فلئن رددت فأني باب أقرع
إن كان فضلك عن فقير يمنع
الفضل أجزلُ والمواهب أوسع

أما رفع "أجمع" في هذا البيت، فيجوز أن يكون توكيدا لمكان "إن" الابتدائية، إذ موضعها الابتداء، وهي مؤكدة للجملة، لم تغير معناها وإن غيرت لفظها. ألا تراهم قد عطفوا على اسمها بالرفع، وهو إذا استوفت خبرها، نحو: إن زيدا قائم وعمرو، وإذا لم تستوف خبرها فلا يجوز البصريون ذلك. وذلك أنك إذا قلت: إنك وزيد قائمان، وجب أن يكون "زيد" مرفوعا بالابتداء، ويكون عاملا في خبر زيد، وإن عاملة في خبر الكاف. ولا يجوز اجتماع عاملين على معمول واحد. وأما الكوفيون فاحتلفوا، فذهب الكسائي إلى جواز ذلك مطلقا، سواء تبين عمل "إن" أو لم يتبين، نحو: إن زيدا وعمرو قائمان، وإنه وبكر منطلقان. واستدل بقوله جل وعلا: "إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون" فعطف ورفع. وذهب الفراء إلى انه لا يجوز العطف إلا على ما لا يبين فيه العمل، نحو: إنك وزيد ذاهبان، لأنه بعدم التأثير ضعفت، فجاز العطف كما لو كان على المبتدأ. وإذا كان كذلك جاز أيضا توكيد الموضع بالرفع، والله اعلم.

وأنشدني أيضا يخاطب شيخنا المحدث الفقيه اللغوي النحوي الأصولي أبا إسحاق إبراهيم بن يوسف، يعرف بابن قرقول، أيام كونه بمدينة سبتة، فلما رحل منها إلى سلا، قال مرتجلا:

ألا فسلاً عن عهدت تحفياً
وهل ناعني إن قلت من لوعة سلاً

سَلَا عَنْ سَلَا إِنْ الْمَعَارِفِ وَالنُّهْيِ
بَكَيْتُ أَسَى أَرْمَانَ كَانَ بِسَبْتِنَا
وَقَالَ أَنَسٌ إِنْ فِي الْبُعْدِ سَلْوَةٌ
فَلَيْتَ أَبَا إِسْحَاقَ إِذْ شَطَّتِ النَّوَى
فَعَادَتِ دَبُورَ الرِّيحِ عِنْدِي كَالصَّبَا
بِهَا فَدَعَا أُمَّ الرَّبَّابِ وَمَأْسَلَا
فَكَيْفَ النَّاسِي حِينَ مَنْزِلُهُ سَلَا
وَقَدْ طَالَ هَذَا الْبُعْدُ وَالْقَلْبُ مَاسَلَا
تَحَيَّتَهُ الْحُسْنَى مَعَ الرِّيحِ أَرْسَلَا
لَدَى عُمَرَ إِذْ أَمْرٌ زَيْدٌ تَبَسَّلَا

هذا البيت حكاية لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع أخيه الشهيد المهاجر، وكان أسن من أخيه وأسلم قبله، وشهد بدرًا والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قتل يوم اليمامة شهيداً.

فَقَدْ كَانَ يُهْدِينِي الْحَدِيثَ مُوَصَّلَا
وَقَدْ كَانَ يَحْيَا الْعِلْمَ إِذْ كَانَ عِنْدَنَا
فَلِلَّهِ أُمَّ بِالْمَرِيَّةِ أَنْجَبَتْ
وَإِنِّي إِلَى تِلْكَ الْمَوَارِدِ عَاطِشٌ
أَقَمْتُ بَشْرُقٍ وَالْأَمَانِي بِمَغْرِبِ
فَلَوْ كُنْتُ مِنْ قَيْدِ الْحَوَادِثِ مُطْلَقَا
فَأَصْبَحَ مَوْصُولُ الْأَحَادِيثِ مُرْسَلَا
أَوْ أَنْ دَنَا فَالآنَ بِالنَّأْيِ كَسَّلَا
بِهِ وَأَبٌ مَاذَا مِنَ الْخَيْرِ أَنْسَلَا
وَإِنْ أَلْبَنَ الْقَلْبُ الْمَشَوْقُ وَأَعْسَلَا
فَأَصْبَحْتُ فِي كَفِّ الصَّبَابَةِ مُنْسَلَا
شَدَّدْتُ لَهُ كُورًا وَأَنْصَيْتُ عَنَسَلَا

وَأَرْقَلْتُ نَحْوَ الْمَجْدِ فَالْمَجْدُ عِنْدَهُ
وَلَمْ أَكُ فِي التَّطَلَابِ مَمَّنْ تَرَسَّلَا
العنسل: الناقة السريعة.

وتصانيفه كثيرة، فمذهبتها كتاب الروض الأنف، والمشرع الروي، في تفسير ما اشتمل عليه حديث سيرة رسول الله عليه وسلم واحتوى، سمعته عليه. وأنشدني القصيد الذي صنعه فيه، الذي أوله:

مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُشِيمَ الطَّرْفَ مِنْ شَرَفٍ
فَنَاطِرُ الْقَلْبِ أَوْلَى أَنْ يُنْزَهَهُ
فَقَدْ أَلَحَتْ لَدَى لُبِّ أَزْهَرِهَا
فِي رَوْضَةِ جَمَّةِ الْأَزْهَارِ وَالطَّرْفِ
مِنْ الْمَعَارِفِ وَسَطِ الرِّوَضَةِ الْأَنْفِ
وَقَدْ دَعَتْ لَجَنَاهَا كَفَّ مُقْتَطَفِ
الأيات إلى آخرها.

وأنشدنا رحمه الله وقد حضر بين يديه طعام يسمى بالمغرب "المجبنات"

شَغَفَ الْفُؤَادَ نَوَاعِمَ أَبْكَارُ
بَرَدَتْ فُؤَادَ الصَّبِّ وَهِيَ حِرَارُ

وأذُّ من صَهَبَاءَ حِينِ تُدَارِ
لكنْ حَكَتْ أَلْوَانَهَا الْأَزْهَارِ
وكأنما أَلْوَانُهُنَّ نَضَارِ
نارٌ، وأين من النَّعِيمِ النَّارِ

أذكى من المسكِ الفتيقِ لناشِقِ
صَفَتِ البِوَاطِنُ وَالظُّوَاهرُ مِثْلُهَا
فكأنما صافي اللِّجِينِ قُلُوبِهَا
عَجِبٌ لَهَا وَهِيَ النَّعِيمِ تَصَوِّغُهَا

وأملى عليّ "كتاب التعريف والإعلام، فيما أجم في القرآن من الأسماء الأعلام" وسمعت عليه مسألة رؤية الله تعالى في المنام، ورؤية النبي عليه أفضل الصلاة وأشرف السلام، وكلامه في حديث الأمة السوداء، وأين الله؟ قالت: في السماء؛ كيف سأها عن الأينية، ولم يسألها عن إثبات إله، فيقول لها: من الرب؟ وأملى عليّ السر في الأعرور الدجال، وتفسير قول النبي صلى الله عليه وسلم في: "قل هو الله أحد"، أنها تعدل ثلث القرآن. وكلامه على قول الله تعالى: "وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ، وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ"، وكلامه على الله جل وعلا "يَتَفَيَّؤُ ظِلَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ"، وكلامه على "سبحان الله" بإعراجها وشرحها. وأملى عليّ رحمه الله "كتاب نتائج الفكر" وهو من عجائب الدهر. إلى غير ذلك من مسأله في فنون العلم والنثر والنظم. وقد أحاز لي ولأخي الحافظ أبي عمرو جميع مروياته، ومسموعاته ومجموعاته، وقال لي يوما: يا عجبا للحريري حيث يقول في بيته: قد أمتنا أن يعززا بثالث. فقد جاء من عززهما بثالث ورابع وخامس وسادس وسابع وثامن وتاسع وعاشر وحادي عشر وثاني عشر، وأنشد بيته:

واشكرُ لمن أعطى ولو سِمِمْةً
لِنَفْتِنِي السُّودَدِ وَالْمَكْرَمَةِ

سِمِمْةً تَحْسَنُ آثَارُهَا
وَالْمَكْرَمَةُ اسْطَعَّتْ لَا تَأْتِيهِ

والزيادة على البيتين:

فإنه مهما غلا مهزمة
لم يخش من لوم ولا مندمه
لم يذر ما يؤسي ولا منعمه
مالي معي إن شئت كالأبلمه

والمهزمة مهزلة العرس لا تغله
من دمه صان لحرز التقي
من عمه القلب له شيمه
أب لمتي إلى الرضا واقتسم

أب: ارجع. ولمة الجمل من على قدر سنه، والأبلمة: الخوصة.

إلا كأصل المرتضى ملكمة

ما الكمة المجتث أعراقها

الملكمة: مفعلة من الضرب، يقول: لا يرتضيها إلا من لا أصل له، كالكمة. والكمة: الكمة، سهل همزها، فنقل حركتها إلى ما قبلها.

ما الحمة السوداء إلا الورى

الحمة هي الحمأة، مسهل الهمزة.

فلم ترى بينهم ملحمه

فالهيمن مهلاً لا تلم هيتنا

الهيمنة: الكلام الخفي.

في خلقه واحذر من الهيمنة

والهذرم مة دعه وكن ناطقاً

بالقصد إن العاب في الهذرمه

هذرم في كلامه: إذا خلط؛ ويقال للتخليط: الهذرمه. والهذرمه، أيضاً: السرعة في الكلام والشيء.

والعب: العيب

كم كمه وكم عمى جرّه

حُبُّ ذواتِ الخمرِ والكممه

الكمه: هو الذي يولد أعمى، وقيل: هو الذي لا يبصر في الليل، قاله البخاري في التاريخ، وخالفه الناس، فقالوا: الأعشى، هو الذي لا يبصر بالليل؛ وقيل: الكمه: هو الأيرى شيئاً.

وذوات الخمر: النساء. والكممه: من زي الحرائر ومن لا يمتهن من النساء. ورأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمة مكمكة فضرها بالدره. وقال: لا تشبهين بالحرائر.

وقد وجب أن أحجل لهذا الكتاب نهاية ينتهي إليها، وغاية يقف عندها ولا يزيد عليها؛ فإن شعر من عاصرته من شعراء ذلك العصر، يكاد يخرج عن حد الحصر؛ كالفقيه الأديب الشاعر المصيب، أبي محمد عبد الله ابن الفقيه الأستاذ الأديب؛ أبي عبد الله محمد بن الفقيه الأستاذ اللغوي النحوي، أبي محمد قاسم بن شقريق الرعيبي؛ أنشدني كثيراً من شعره، واقتصر آخره على تقرير سيدنا أبي عبد الله الحسين عليه السلام ووصف مآثره، ونظم جواهر مفاخره؛ راغباً في شفاعته جده، سيد ولد آدم صلى الله وعلى آله من بعده، سمعت الشيخ الفقيه، رأس العدول بسبته، أبا عبد الله، محمد بن الحسن ابن عمان، رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لي: بشر عبد الله ابن شقريق بالجنة، وأشار بإصبعه المقدسة، إلى وجهه الكريم، فبعد أيام قلائل ظهرت بوجهه بثره صغيرة جداً، فلم تزل تعظم حتى أتت على جميع وجهه. وتوفي رحمه الله منها سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، وهو في عشر الثمانين سنة، وشهدت جنازته. ولقيت الوزير الأعلى أحمد بن هردوس، موسى حلال الموشحات، وموشع حبر القصائد المستملحات، وهو القائل في السيد أبي سعيد:

يا ليلة الوصل والسعود

بالله عودي

وكأبي عبد الله الرصافي، الصافية من الأكدار في نظم الأشعار موارد، وكابن السكن البديعة في الفنون الشعرية مقاصده، وكأبي الوليد يونس القسطلبي الفائقة بقلائد الولايد أراجيوه وقصائده. ومن جرى مجراهم من المجيدين في الجد والهزل، ورقيق النظم الجزل؛ كصاحبنا الوزير أبي القاسم بن البراق، المعدود في الشعراء السباق؛ مررت على بلده ومقره، فخرج إلى متلقياً مع أهل مصره؛ وقد داسته حوادث الأيام دوسا، وغادرت صعدة قوامه قوسا وهو يسلك مسالك أهل الصبا، ويميل به الأدب طوراً إلى الجنوب وآونة مع الصبا؛ فعاتبته على بذل نفسه في طاعة الهوى جهد الاستطاعة، مع ما أعطاه الله من المعرفة والآداب ونفائس البضاعة؛ فقال لي: إنه كان وبرد شبابه قشيب، وغضن اعتداله رطيب؛ بقميص التُّسك متمص، وبعلم الحديث متخصص؛ واجتاز يوماً ويده مجلد من "صحيح مسلم، بقصر بعض الملوك الأكابر، وهو من بعض مناظره ناظر، لكل من هو بمدرجة القصر خاطر؛ وحسن المثاني والمثالث لديه عال، ومجلس انسه بخواص ندمائه حال؛ فقال: اطلعوا لنا بهذا الفقيه فلعلنا نضحك منه ونمازحه، ونجاريه في ميدان الأدب إن كان من أهله ونطارحه؛ فلما مثل بين يديه وحيا، أمر الساقى بمناولته كأس الحميا؛ فتقبض متأففاً، وأبدى تمعراً وتقشفاً؛ والسلطان يستغرب ضحكاً من مستغرب حركاته لما هجم الرجل عليه، ويد الساقى ممدودة إليه؛ واتفق في خلال ذلك أن انشقت من ذاتها صراحية من صافي الزجاج، فسال منها كالسائل من نجيع الذبيح من الأوداج؛ فأظهر السلطان التطير بذلك وجلا، فصرف ذلك عن خاطره بإنشاده على البديهيّة مرتجلاً:

لم يَخْلُ فِيهِ الزَجَّاجُ عَنْ أَرْبِ

فَشَقَّ أَتْوَابَهُ مِنَ الطَّرْبِ

وَمَجْلَسٌ بِالسَّرْوَرِ مُشْتَمِلٌ

سَرَى بِأَعْطَافِهِ تَرَنُّنًا

فسر السلطان وسرى عنه، واستحسن سماحة خاطره بهذين البيتين البديعين منه؛ وأمر له بجائزة سنوية، وخلعة رائعة بهية.

وقد انتهى ما أملته من كلام مرتجل، وبديه على عجل؛ ولولا الاستنامة إلى الإغضاء، وأن المبادرة إلى امتثال أمر السلطان أقرب إلى الإرضاء؛ لما أرعفت لليراع أنفاً، ولا حملت الروية على الكاتب عنفاً؛ لبعد المملوك عن بلاده، وكلب العدو في البحر على كتبه وطارفه وتلاده.

فإن وافق اجتهادي أمله، ووقفت على الغرض الذي سأله، فذلك نكتة من فضله عرضت عليه، وبضاعته ردت إليه؛ ضاعف الله له وعنده مواد الإسعاد، وأخدمه النصر في كل مبدأ، وختم له بالظفر في كل معاد، واهلك أعاديه وأبعدهم إبعاد ثمود وعاد. وصلى الله على سيد ولد آدم وأمينة على وحيه الذي

بعثه في أشرف زمان، وجعله من عصمته في ذمة وأمان؛ فجد في علو كلمة الله غير مقصر ولا وان،
وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا أهل الزيغ والعدوان:

فهاك ما شئت من نظم له نسق

لا حُسنَ إلا الذي حازت جواهره
أهديته لك رطباً لا جموداً به
ونفقته العُلا في سوق مجدك إذ
وحيث أنت فنم الفضل أجمعه
فيا بن خير ملوك الأرض دعوة من
في قبضة العدم لا جد يجد له
ولا حميم سوى شجو يردده
لولاك يا كامل الأوصاف لأنقصمت
لما اشتغلت به فكراً وكنت له
فإنه يجزيك والمختار من مضر